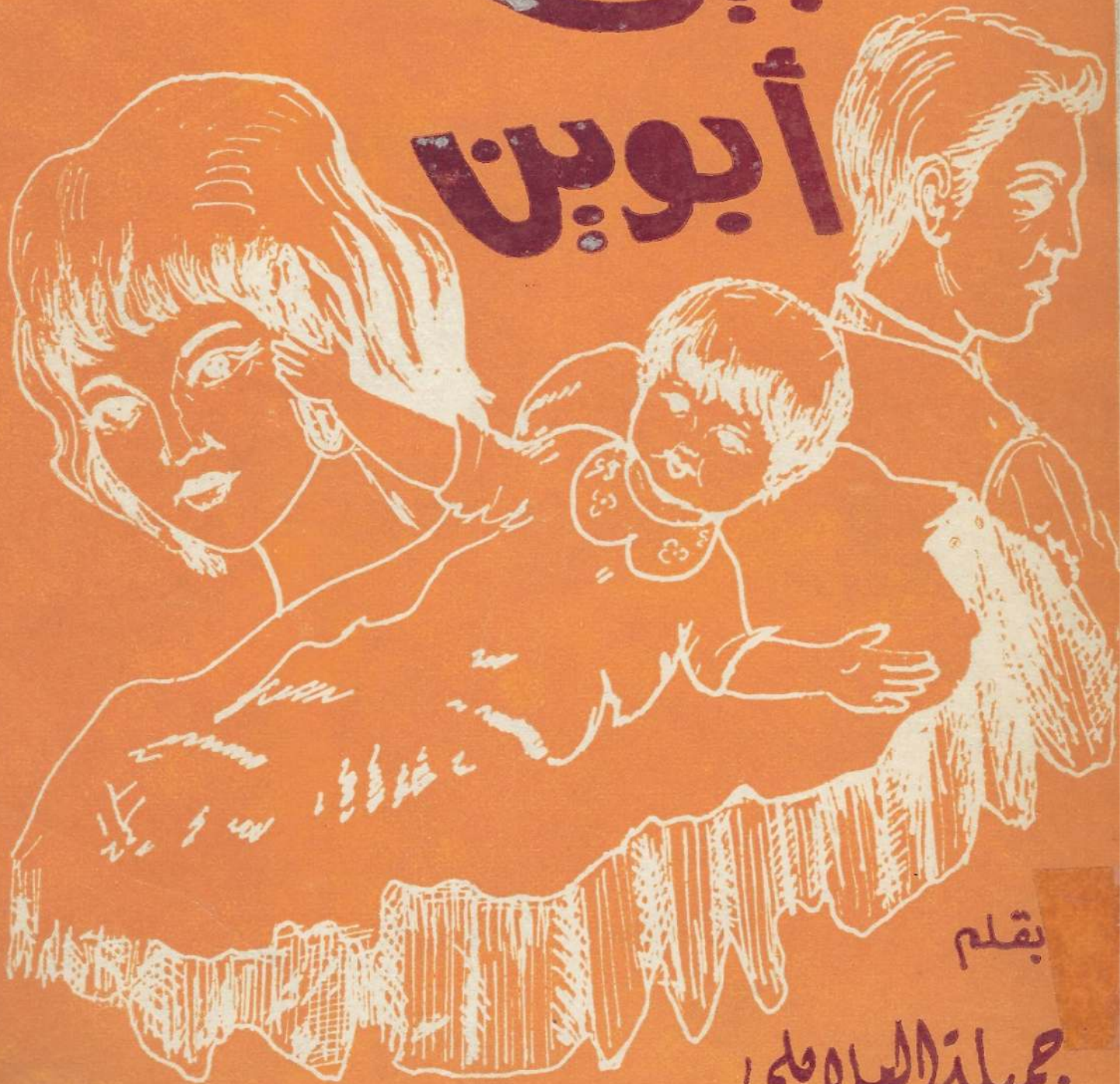


المجلس الأعلى للثقافة

قصة

بين أبوين



بقلم

حميدة السليمي

قِصَّة
بَيْن
أَبُو بِن

بقلم

محملة العلوم

المجلس الأعلى للثقافة

سماوات الرحمن الرحيم

مع الناس

سؤال طالما وجهته إلى كل زائر طاف بوادينا ، أيهما أحب إليك ؟
الإقامة في الحلاء حتى ولو كان قفراً كالصحراء ؟ أم تؤثر ضجيج المدينة
رغم ما فيها مما يثير السخط والعناء ؟ فيجيب البعض بأنه يؤثر الطبيعة لينعم بالهدوء
الشامل ليستعين به على التأمل في مآثر عظمة الخالق التي تنطبع على كل مشهد
من مشاهد الطبيعة حتى ولو كانت بكرة لم تلعب بأرضها أيدي العاملين
لتحولها إلى ميدان إنتاج للمكافحين أو مسارح لتسلية اللاهين . . . يكفي أن
تكون مرآة تعكس قدرة الخالق على خلق كل شيء من العدم . . . ومن التأمل
تستمد الروح زادها .

وبالعوض يضيق بالسكون ويفسره بالركود ولا تنتعش نفسه إلا بانتعاش
الحركة في المدينة مؤثراً صخبها وضجيجها كأن ذهنه لا يتقد إلا بوهج حرارة
أنفاس الناس المتزاحمة والبعض يوزع وقته بين السكون والحركة متخذاً من
الهدوء قوة يستعيد بها ما افتقده من نشاط وقوة ليستأنف عمله بنشاط أوفر
وفكر أغزر وأمل أكثر .

وبرغم هذا التناقض في المشاعر والأفكار . . . يخضع الجميع راضين
أو كارهين لقوة خفية غير مدركة تدفعهم للكفاح أو تقعد بهم دونهم مستسلمين
للكود والملل لضعف إيمانهم وتفسيرهم عقيدة التوكل تفسيراً خاطئاً لا ينتمي
إلى الحقيقة بصلة فعمل بلا توكل على الله لا يجدي وتوكل مع عمل لإثبات
قدرة الخالق التي استودعها المخلوق سمة من سمات الموت ...

والإنسان الحدير بانسانيته وإثبات طاقة إيمانه التي تكفل به الخير لنفسه
وللآخرين يتحتم أن يعمل وفق ناموس الحركة والسكون وبذلك يجمع بين
الكفاح في حركته والتأمل في سكونه ليعبر الحاجز الذي يحجز عنه النور
الإلهي فيرتفع بنفسه فوق الأوهام والأباطيل محطماً أصفاد التشاؤم والركود
والملل مستعيناً بأمل الإيمان بأنه قادر على تحقيق كل شيء مادام يقطع طريقه
وفق مرضاة الله وعلى نوره .

جولة

بعد الحاح زمتي زارتني أختي - من أبي - وهي تقيم في الإسكندرية . . .
وكما جاءت القاهرة لزيارتنا عند أخي الذي يقيم وسط ضجيج القاهرة قرب
ميدان التحرير وتأتي أن تزورني في عين شمس لأنها تراها كالريف وليس بها
مباهج ومعالم الإسكندرية أو مصر وكنت أذهب عند أخي . . . ولكن في هذه
المرة أقسمت أن تجيئي وإلا أحجمت عن زيارتها في الإسكندرية .

ولم يكف يستقر بها المقام عندي حتى دعني صديقة لحضور عيد ميلاد
إبنتها في بيتها بالهرم ولما كانت جاملتي في عيد ميلاد والدي فكان لزاماً علي
أن أرد جميلها وأقوم بالواجب واستطعت أن أغري أختي لكي ترافقني بدعوى
أن صديقتي مواءة بالمخافل وسوف يكون عيد ميلاد إبنتها حافلاً بالموسيقى
والغناء والرقص . . .

ووصلنا الهرم قبيل الغروب وقد بدأت الشمس تتأهب للاحتجاب وراء
المجهول وقد بدت كهروس أسبلت خماراً رقيقاً على وجهها لتزيده فتنة
وجمالا ولتغري الرائي على اشتهاه قبله من ثغرها فإذا استغرق في تأملها تحول
إحساسه إلى تمجيد وتسبيح للخالق الأعظم الذي أحاط الجمال القدسي بشعاع
يديه من القلب فيزداد إيمانه بالله ويقصيه عن المشاعر المبتذلة . . . وسجد قلبي
بين جنبي لله تعالى وأنا أتابع الشمس وهي تجر ذيل ثوبها الأرجواني بعد أن
طبعت على جبين الأفق قبلة الوداع لتوقظ في الإنسان مشاعر الذكريات فإذا
بالنفس تستطيب مراة الألم مترقة سطوع الأمل . . . وبدأ الضيق يرسم
على هلامح أختي لجو الحلاء رغم روعة الجو الشاعري الذي يحبو المار بالدفء
والحنان مستشعراً بحيوية خلاصة ولكي اكتسح الضجر الذي بدأ يتسلل إلى
نفس أختي قلت : ألا تشعرين بحس رقيق حاني يتسلل إلى نفسك كأنه
منحدر عجيب فيه سحر يدنينا إلى الاستمتاع بأروع ما أبدعته القدرة الإلهية

التي تتجلى عظمتها في الشروق آنا والغروب أحياناً وبديل أن تبادلني هذا الإحساس قالت . : إلى متى تألفين الصحراء والعزلة أخرجني إلى الحياة والناس في الأضواء ما هو أجمل وأمتع . : أن حياتك في عين شمس تبعث الأمل والضيق . : واليوم بديل أن تخرجني إلى القاهرة تجيئني إلى صحراء أخرى . . ما ذنبي أنا . . لن أكتب وإن أرسم . . ولم يكن رأيها جديداً على . فهي تضيق حقاً بالهدوء والخلاء وتوشك أنفاسها أن تختنق إذا قضت في بيتي يوماً كاملاً رغم أن حديقة البيت تغري على البقاء فيها أبداً وحاولت جهدي أن أروضها على ممارسة الحياة بلا ضوضاء أو مغريات المدينة لأثبت لها أن حيوية الإنسان تنبثق من نفسه لا من البيئة التي يعيش فيها راضياً أو كارهاً وفي مقدوره أن يكيف حياته وفق رغباته وميوله . . ولكن عبثاً لاعتقادها أن السكون يثير شعور الخوف من الموت والحياة عندها يجب أن تنبض بالحركة على أي صورة . . وعبثاً حاولت ونحن نخضع في الطريق أن أجذب مشاعرنا الثائرة فيما لا أعلم نحو جمال الشارع الذي تحتضنه الأشجار وتحميها مآتما الكثيفة من وهج الشمس نهراً وندي الصقيع ليلاً واضطرت أن أتابع جلال الطبيعة وروعها لأزود روعي بغذاء لا أجده بديلاً له في المدينة الصاخبة وتركتها تثرثر مستحيلة من هدوء الطريق وصمتي الذي بدا لها كثيباً غير آبهة بما تعكسه للطبيعة علينا من إنطباعات خلابة ودفعني إلى الماضي في طريقي كأنني أصبح لغير غاية وطاب لي أن أتوغل في الطرق المتشعبة لأرى ماذا فعلت الأيدي المعاملة بالأرض الجرداء التي حولتها إلى فردوس أرضي يباهي بقدرة صانع الحياة من العدم إلى البقاء . . وأصبح الحرم بحضارته القديمة وحركته الجديدة صورة رائعة لقدرة الإنسان وسرح خيالي فتصورت أن قدماء المصريين عادوا إلى الحياة إذا صح وآمنوا بتناسخ الأرواح وأن هذا العمران البادي تجديده لعمرانهم السالف .

وطال بنا المسير حتى توقفت أنحتي تلومني في غيظ متلفته حوالها عليها تجد سيارة لتعود بنا ولم تدر أنني خلدتها لأن منزل صديقتي بجوار المحطة

التي دلفنا إليها في أول الطريق وردت الطرف في حلق وسنخط واضح مشيرة في خوف إلى عجوز بدا على مقربة منا ولسروحي بعيداً لم أتبينه وقالت بصوت ينم عن هلعها ، أظن هذا من قطاع الطريق وفي سرعة أخفت سوارها الذهبي بطرف (كمها) ونزعت خاتمها وساعتها ووضعتهما في حقيبتها متأبطة إياها في حذر وضحكت لأرفه عنها قائلة . . إنه شيخ من الزاهدين . وكنا اقتربنا منه فأردفت أنظري إلى لحيته ووجهه ، لا أظن الشر يسكن في هذا الإنسان الذي ترسم آيات الإيمان على محياه واتجهت نحوه في اطمئنان قائلة . . إني عطشى وألقيت عليه التحية فرد السلام وقد شاع السرور على وجهه كأنه كان مترقباً مقدماً عزيز عليه وقدم إلى إناء من الفخار به ماء وهو يقول إنه نظيف يا بنتي وشربت وأبت أختي أن تشرب نافرة وأخذت مجلسي بجانبه غير عابثة بنظراتها التي تحذرنى وتوشك أن تقول . . هيا نسرع من هنا وكان معي لفافة بها بعض الحلوى كنت أحضرتها لأقدمها إلى أولاد الصديقة وكان الوقت أزف فعدلت عن الزيارة مؤثرة هذه الرياضة على وراءها اكتشافاً ذهنيّاً وقدمت لأختي من الحلوى ما يروقها وقدمت ما تبقى للعجوز وأنا أشاركه تناول قطعة وراح يلتمسها داعياً لي بالبركة ولما انتهى من تناول الحلوى استطعت في لباقة أن أهيب به إلى مكالمتنا لأهدى من روع أختي ولأحظى بما لا أعلم وبعد أن ابتلع لهائه ومرح ببصره طويلاً كأنه يستلهم الماضي من عبر السنين الطوال قال : هنا يا ابنتي موسوعة تاريخ الحياة التي أخرجت أعظم رجال الفكر والفلسفة والفن والدين والعلم والملك والأدب والطب . . وأشهد الله أنني عجبت لمنطق الرجل وقدرة ذاكرته وبقينا أنه أدرك مدى عجبى عندما نظرت إلى أختي نظرات تم عما بخاطري فاختطف فكري ببسمة عريضة بدا بها كطفل لم تكتمل أسنانه وقد شاع على وجهه انطلاقة الروح الصافي واستطرد . ليتني تعلمت يا ابنتي لو علموني لكنت اليوم أعظم عالم ولسان بيتي كعبة الزوار وإن كنت اكتسبت من الرجل الذي قمت على خدمته خبرة ومعرفة تفوق ما يكتسبه أبناء اليوم من الجامعات لقد كان السيد أجنبياً مولعاً بالبحث ودراسة آثار

القدماء وقد اتخذ مني الأخ والصديق والتلميذ لا الخادم كما كان مفروضاً أن أكون وغامت عيني العجوز بالدموع وانتفض انتفاضة الأسى المروع وهو يتمتم ليس الدين وحده يا ابنتي هو الذي يصل بين القلوب ويربط بين الأرواح . . هناك ما هو أقوى من الدين وخيل لأختي أن العجوز بدأ يهذى فقاطعته ، ما دينك ؟ فنظر إليها العجوز متفرساً ثم استطرد دون أن يجيب على سؤالها كأنه تكهن بما دار في خلدها وبصوت عميق اهتزت له مشاعري قال : الإيمان بالله ورسله يا ابنتي هو الذي يصل بين الإنسان والإنسان وليكن دين كل منهما أي دين وليكن جنس كل منهما أي جنس وهنا مرت بنا سيارة فاستوقفتها أختي وهي تقول . . سأذهب إلى أخي فهيا معي ونظرت إليها بمعنى . . انتظري بعض الوقت وركبت هي السيارة في عجلة فدنوت منها هامة . . أرجوك . . أن وراء هذا الرجل قصة فريثي ريثاً نسحقها فتأفقت قائلة في ضجر مالي وأنا والأدب والقصص والشعر . . ماذا جنيت أنت من هذا كله . . . غير ما تعانيه من آلام وهموم وخصوصاً بعد موت زوجك . . وأمرت السائق بالسير لكنه تلسكأ على أذهب بينما هي . . إنك مغامرة في قدرتك حماية نفسك وسألت العجوز . . أتراها زوج شقيقك قلت : بل أختي . . قال ولكنها تخالفك في كل شيء . . . قلت . . إن والدتها تركية وهي أختي من أبي وقد نشأت حبيسة بيتها بعد وفاة الوالد تحت سلطة والدتها التي حببتها ولم تسمح لها بإتمام دراستها لاعتقادها أن جاهها يعرضها مع الاختلاط إلى ما لا تحمد عقباه . . وزوجها قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها من رجل ثري فدللها لفرط جاهها وبذلك نما غرورها ولم تعد تهتم إلا بمظهرها لتكون ملكة جمال كما يعتقد الناس . . ولم تنجب من زوجها فتزوج خلصة تحت ضغط أسرته حرصاً على إنجاب وريث لثروته . . ولما علمت تركته وهددت بالانتحار إذا استبقاها على ذمته فاضطر شقيقها أخي الكبير وكان ذا هيبة وسلطان أن يؤثر عليه بلباقة دبلوماسية أن يطلقها على أمل أن يساعده ويعيدها إلى عصمته بعد حين . . وبذلك عاشت تكره الرجل لأن زوجها الذي كان يعيدها خانها وعاشت مرفهة منعمة تحظى بكل ما تصبو

إليه المرأة ولم تنهياً منذ الطفولة للتعليق بأى هواية فنية أو أدبية تشغل بها فراغها فالفراغ عندها موزع بين السينما والمسرح فى المساء والأندية فى الصباح وتركتنى أختى وهى تشير بيدها (باى باى) وأنا أنغمم بصوت حزين مع السلامة وهى تردد كلمات تبلغ مسمعى غير كلمة واحدة . . الفنون جنون . . وظل نظرى عالقاً بسيارتها حتى أخرجنى من صمتى قائلاً . . ليس كل الناس يبحثون عن الراحة بين صخب الجامع وأناس يبحثون عن المتاعب بين معالم الراحة وكلا الفريقين لا يدري مبعث ما يريد . أختك هذه تبحث عما يبذل أساها تحت أضواء تجذب نظرها عساها تجد ما يروقها ولكنها مع الأسف تبحث عما يكمل منقوصها دون أن تستشعر بالبصمات التى ترسم على محياها . . وأنت تبحثين عن كل شئ فى حين أنك لا تطمعين فى شئ وهذا البحث يفور بك فى أعماق أعماق الحياة وقد تشعرين بالتعب والكنك لا تتوقعين لأن إحساسك يدفعك إلى تلمس المجهول الذى ينبعث شعاعه من النور العلوى الذى يدنيك من حيث لا تدري إلى الله . . ويبدو أنك بلغت هذه المرتبة ولذلك تهون معاناتك ويحلو لك جهدك إذ فى سبيل الله تتمكسر صخور المتاعب بقوة الإيمان وقد يطول بحثك يا ابنتى كما طال بحث الأولين ولن تجدى ما يعوضك خيراً عما فقدته طوال هذه السنين غير ذلك الإحساس الذى يغمرك بالرضا والطمأنينة رغم ما تعانیه لأن الله يمدك بقوة الاحتمال وإيمانك بأن الله يجعل من العدم وجوداً ومن الألم أملاً ومن الحرمان متعة ومن المشقة سعادة ومن البذل عطاء هو الذى يفتح أمامك مغاليق الحياة الآمنة وسكت العجوز ليتنفس الصعداء ثم أردف بصوت خفيق كأنه يناجى نفسه كم تمنيت أن أجد من يسمعنى بوعى وهأنذا وجدتك فحمداً لله ثم لزم الصمت ناظراً إلى الأفق البعيد فغمرنى إحساس عميق طاربنى إلى آفاق نورانية فتحت أمامى أبراجاً تسمو بروعتها عن مفاتن الوجود ورحبت أتلتمس مواطن ما أتخيله وحقائق ما أتصوره على اهتدى إلى السر الذى أكسب صحراء الهرم ذلك السحر الخالد الذى يشد الإنسان ويدنيه من ملكوت الله فلا يلبث حتى

يستشعر بأنه ارتفع رويداً رويداً كأنه مادية البشر تحولت إلى شعاع علوى
ربط بين روحه الكامنة في كيانه البشرى وبين اليقين اللا مدرك الذى قربته
من الله فيدرك أن هذا الفضاء هو الطريق إلى الله . ونظرت عبر الصحراء وقد
لزم كل منا الصمت هو يفكر فيما لا أدريه وأنا أتأمل حسب قدرتي الحسية
وطاقتي الخيالية ورمقني العجوز خلسة ولعله راح يستقرئ بواطن انفعالاتي
الخفية ولكي أحوله عنى قلت من يرى الرمال الصفراء — تلك — لا يظن
أنه يمكن تحويلها إلى أرض خصبة خضراء فقال وهو ينظر إلى السماء . . .
الله على كل شئ قدير ثم انتصب متحاملاً على عصاه وهو يشير بعصاه صوب
حديقة كبيرة تلبو من بعيد قائلاً . . . لو عاش باحث الآثار حتى اليوم —
لما أثمرت هذه الصحراء كان مغرمًا بالحفريات يؤثر زاد فكره عن زاد
معدته فقد يحدث أن يأكل طيلة الـ ٢٤ ساعة وجبة واحدة وشرائع معدودة
بينما لا ينقطع عن البحث أبداً لا يمل ولا يتعب وإذا رجوته أن يستريح بعد
أن اغتسل وجهه بالعرق ابتسم وقال . هذا العرق ضريبة حتمية للحياة الكريمة
كان يتحش وهو يسير متوكئاً على عصاه في طريقه إلى قصر عظيم تحوطه
حديقة غناء وأنا أرافقه مسحورة به ثم توقفت أثر رجفة حسية ملكتني وتلفت
خلفي وحولى لأتبين أين أنا ! وكيف أعود لو شئت وبدا لى الفضاء شاسعاً
والطريق ممتداً وقليل من الناس يسرون عن قرب أو بعد ذهاباً وإياباً وانتابني
خوف داخلي فلحقت أسأله كيف أصل إلى الطريق العام . . فنظر
إلى مشفقاً قائلاً وهو يشير بعصاه . . سيري صوب هذا الشجر الممتد ولو أن
الحو يغرى على التأمل والبحث ما دمت من مريديه . . مع السلامة يا ابنتي
والله معك . . . لقد كان في نيتي أن أصحبك إلى القصر عند أحد أبنائي
لتناول كوب من الشاي . . أما وأنت راغبة في العودة فع السلامة . .
قلت . إن شاء الله أعود إليك قريباً فأنا جدم مشوقة لمتابعة هذه الرحلة الشيقة
وودعته شاكرة واخترقت الطريق الذى أشار إليه وبعد أن قطعت فيه شوطاً
وجدتني في مفترق عدة طرق وصعب على تعرف أى طريق أسلك فقاومت

المخاوف التي تجسمها رهبة الوحدة وتلفت حولى أبحث عن يرشدنى إلى الطريق المتجه للمحطة . . ولاح طيف امرأة تقترب منى فحركت الظمأنينة بين جنبى ولست أدرى أينما كان يتجه نحو الآخر فلما دنوت منها سألتها عن الطريق العام فقالت بلهجة بدوية حلوة مصحوبة بانتسامة ردت الظمأنينة إلى نفسى . . عودى إلى الطريق الذى جئت منه حتى المنعرج ثم اتجهى يمينا عند منحى هذا الطريق وسيرى حتى تصلى إلى مزرعة هناك وعندها يبدأ الطريق العام ثم أشرق وجهها بانتسامة صريحة وهى تقول لولا ارتباطى بعملى فى هذا المنزل (أشارت بيدها صوبه) لسرت معك حيث تريدن وتركتنى مسرعة لتعوض الوقت الذى توقفت خلاله وفهمت من تصرفها هذا مبلغ حرصها على تأدية عملها بأمانة عكس التعاملات فى المدينة فان العاملة فى البيت تتعمد الخروج لقضاء حاجة لكى تقضى أكثر وقتها متسكعة فى الشارع وكثيراً ما عرضت الطفل الذى تصحبه للخطر بسبب استهتارها .

وسرت حيث أشارت حتى بلغت المزرعة التى فاح منها أرج الليمون والبرتقال والنارنج ونهنى الشذى وشدنى إليها ولم أكد أقرب منها حتى لاح لى العجوز الذى تركته جالساً أمام بابها وكان جهد المسير هد قواى وأتعبنى فدنوت منه موقنة بأن الخوف لا يمنع المقدر والوقاية لا ترد أمراً قضى الله به وتقدمت منه لأحبيه ولم يكذب يرانى حتى ضحك ضحكة يدغر عنها صوته الأجش ورغم ما فى جرسه من خشونة فقد بدا كطفل ضاحك وقال وهو يقوم من مجلسه متحملاً على عصاه عن أذنك لحظة يا ابنتى ودخل الحديقة ثم عاد يحمل مقعداً خشبياً قدمه إلى ولم أتردد فى الجلوس لشدة حاجتى إلى الراحة وشغل عنى بعض الوقت بالتسبيح والاستغفار دون صوت حتى خيل لى أنه يستخير مسبحته لأمر ما ثم اتجه إلى قائلاً . . . ظننتك قطعت شوطاً فى الطريق لتعجلك ، قلت : كان ذلك فى نيتى ، ولكن الله أراد غير ما أردت . . فقد مضى الوقت وأنا تائهة فى الطريق فعاد يضحك بصوت منطلق وقال : هذه مشيئة الله ، من يدري لعل وراء ذلك مصلحة لك وملكى

شعور مبهم هز مشاعري وأحسست أن هناك علاقة بين هذا العجوز والخير المرتقب فابتسمت قائلة أرجو ذلك ولكنني مضطرة للعودة حالا فقد بدأ وشاح الليل الشفيف يحجب بياض النهار فكيف أعود ولا أثر للسيارات هنا وهنا خرج من الداخل شيخ يحمل إليه الشاي . . فلما وقع نظره على قال لم تخبرني أن معك ضيف وبدل أن يقدمه إليه قدمه إلى فاعتذرت شاكرة ولكنه بمعاونة العجوز صمم على تناولي إياه قائلاً ساحضر إلى جدى الشاي حالا وتركنا بعد أن ناولني إياه ثم عاد مسرعاً ليقدم الشاي لجدته قائلاً سأذهب إلى البلد لأشتري بعض اللوازم فقال العجوز ، احرص هذه السيدة ياولدى حتى تصل إلى الطريق العام وحاول أن تجد سيارة تقلها إلى المحطة آمنة أو إلى أى مكان تريد . . . كن خادماً لها وهز الشيخ رأسه مردداً بكل سرور ونظر إلى فى أدب مشيراً بيده مردفاً بصوت خفيض ينم عن أدب أصيل . . تفضلى ياسيدتى . . وسرت بجانبه تنتابني عدة انفعالات تتأرجح بين القلق والطمأنينة وامتلأت رأسى بهواجس جمّة لخلو الطريق من المارة والسكون الشامل الرهيب وتصورت لو انتزع مرافقى رقبتى من جسمى فلن يرانا أو يسمع استغاثتى أى أحد وعندما نظر الرجل إلى معصمى ارتعدت فرائضى فقد كان السوار الماسى الذى بيدي يغرى على قتلى لو تسلط عليه شيطانه وبإصبعى خاتماً ماسياً ثميناً وفى يدي الأخرى ساعة ذهبية محلاة بالماس وفى محفظتى مبلغ من المال لا يستهان به . . وخيل إلى أنه يكفى أن يأمرنى بتقديم كل ذلك إليه راضية وإلا . . . ويستطيع أن يتركنى بعد الاستيلاء عليها ولا يمكننى اللحاق به وعمدت إلى مقاومة مخاوفى بالتحدث إليه لأتبين دخيلة نفسه من نبرة صوته ونظراته فسألته . . . أظن الشيخ والدك ؟ قال جدى قلت كم بلغ من العمر ، قال مائة وأربعون عاماً أو يزيد قلت : يبدو أن الطبيعة هنا تساعد على طول العمر : قال : العمل وحده هو الذى يطيل العمر : ثم نظر إلى متفرساً فأحسست بالهلع يغمرنى وخيل إلى أنه يقدر الثروة التى ستؤول إليه وهل تستحق اقتراف الجريمة ولكى أرد نظرتة عنى قلت وما صناعة جدك ؟ قال : كان والدى بستانيا لحديقة رجل أجنبي بجانب خدمته الخاصة ولما جند الرجل فى الحرب العالمية ترك المزرعة بما فيها من قصر

وحديقة تحت حراسة جدى وأوصى له بها إذا استشهد أثناء الحرب ولما استشهد أصبح من حق جدى أن يستولى على تركته بحكم الوصية ولم يظهر له أى وريث فى مصر أو خارجها ليطعن فى الوصية واستغل جدى المزرعة لينتفع بها وينفع المحتاجين ممن يعوزهم العمل فى سبيل العيش وفى خلال تلك الفترة اتجه الناس شطر هذه الصحراء كل يحاول أن يقتنى سكناً بعد أن ضاقت بهم القاهرة ومن لجأوا إلى هذه المنطقة رجل تعرف على جدى ليستعين به فى تحديد قطعة الأرض التى اختارها بجوارنا وقد بدأ شهماً طيباً ولم يلبث بعد أن استقر به المقام حتى توشجت بين جدى وبينه صلة وثيقة بحكم تعاليم الدين الذى يقضى بتوطيد العلاقة بين الجيران وكان من الطبيعى أن يفتح جدى صدره إليه ويفضى له بكل أسرارهِ وكيف آل القصر والمزرعة إلينا ولم تمض بعض شهور حتى داهمنا رجال الشرطة تنفيذاً لأمر النيابة بدعوى أننا نقيم فى قصر الباشا الذى ورثه حفيده بعد وفاة والده ابن الباشا الذى كان غائباً فى الخارج ولم يتمكن من وضع يده على القصر والمزرعة فى التو وحاول جدى أن يدافع عن نفسه وصحة الملكية بحكم قانون الوصية ووضع اليد طوال السنين التى مضت ولم نجد بين أوراق الأجنبى ما يثبت أن القصر والمزرعة كانت للباشا الذى ذكر بل منحت له من حاكم مصر مكافأة على مجهوده الذى بذله فى العثور على بعض الآثار ووقف القانون بجانب الحفيد الذى يجيد أساليب النصب والاحتيال . . . وأخيراً بعد أن فشلت جميع المحاولات التى قام بها جدى ارتضى أن يعمل حارساً للقصر والحديقة دون مقابل مالى لقاء الإقامة فى الحجرة التى خصصت للخفير وكانت من قبل يستضيف فيها جدى مواشى الغرباء الذين يلجئون إليه إذا حان المساء فقاطعته لأهون عليه . . عوضكم الله خيراً فعلق قائلاً . . فعلاً لقد عوض الله أبى خيراً فقد رأى سلالة أحفاده وأنا منهم وكلنا بخير والحمد لله فقلت . . وهل تعملون جميعاً فى الزراعة . . قال : اختار كل واحد طريقه الذى هياه الله له . . قلت ولكنك تعمل مزارعاً طبعاً فابتسم الرجل ثم قال : وكيف عرفت ؟

قلت : يبدو عليك : فقال أظن من جلبابى الفضفاض وعمامة رأسى قلت وأنا أنظر إلى وجهه الذى اكتسى بروعة الوقار ولحيته القصيرة التى تخفى شعيراتها البيضاء شعيرات سوداء لم تزل تثبت حيوية الشباب : نقاء الطبيعة يبدو عليك ؟ فنظر إلى بعينين باسميتين وهو يقول . . . إذن أنت الأخرى تعملى مزارعة فأشراق وجهك يثبت أنك من أبناء الطبيعة المقربين ثم ضحك بصوت طليق كأنه ابن العشرين وأردف أنا الآن أزاول زراعة مزرعة خاصة لى اشتريتها من هذه المزرعة بعد أن لحأ صاحبها المحتال إلى تقسيمها لبيعها كى يصرف الثمن على ملذاته ولقد كنت قبلا كبير مهندسى الزراعة فى إحدى الأقاليم فلما بلغت سن المعاش حولت نشاطى إلى العمل الشعبى فقاطعتى وقد غمرتنى الدهشة مع أننى ظننت أنك مجرد فقاطعتنى . . فلاح . . ثم عقب فى أسف هذا شأن شباب الجيل يغرمهم المظهر وفى جد وحرصانة أردف أنى أعبد أن أتكلم بلهجة أبناء القرى لأصل إلى الأعماق الغائرة فهزرت رأسى معجبة به قائلة أنت فيلسوف أيضاً وهنا لحت الأتوبيس فأيقنت أننا بلغنا الطريق العام ولم يكن بد من مصافحته شاكرة وتركته وبودى لو امتد بنا الطريق وتنحى عني فى أدب وهو يبدى استعداداه لأى خدمة . . . ولم أكد أستقر فى الأتوبيس حتى رحت أقارن بين هذا الرجل وبين رجل من رجال المدينة المتقاعدين ، ومر بذهنى صور الشيوخ الذين يتمسكون بأذيال الصبا ليغازلوا الفتيات والنساء لإيقاعهن بشتى أساليب الخداع والتغريب للزرى .

عدت إلى بيتى ولم يبرح خيالى طيف المعمر ورحت أروى ما جرى إلى كل من أراه لأثبت أن الإيمان لم يزل يسيطر على أناس يعيشون دون أن يشيروا إلى حياتهم على أن المظهر الذى أذهلنى وظل عالقا بذهنى احتفاظ المعمر بحياة على الصورة التى رأيتها فقد كان فارغ القوام لم ينحن ظهره شأن معمرى المدن يشوب بشرته احمرار النشاط والحيوية التى لم تنضب بعد ولم يزل يتحقق من رؤية الأشياء فى وضوح دون عناء أو الاستعانة

بمنظار وتأثر بحديثي وإعجابي به زميل أصر على أن يراه ليتحقق من صدق الذي رويته بجانب رغبته في تعرف أسباب احتفاظه بصحته ليبدل برأى جديد في الصحيفة التي يعمل فيها .

وكان لابد أن أرافقه ولما بلغت المعمر تعمدت أن أنتحل عذراً يبرر مقدمي فقلت له .. لقد ضاع وقتي هنا سدى يوم جئت ولم أتمكن من مشاهدة الهرم ولقد بكرت اليوم لمشاهدة الهرم وأنا مدينة لك لتيسير الراحة لي وتكليف حفيدك العزيز لحراستي وقدمت إليه الحلوى التي أحضرتها خصيصاً له قائلة لقد ظل الشاي الذي اسقيتني اياه عالقاً برأسي فابتسم منتعشا وهو يأخذ الحلوى مني قائلاً : كم أنت كريمة ياسيدتي ثم قدم لنا أريكة خشبية مردفاً استريحاً ريثما أهيب لكما الشاي العربي وتركنا لحظة ثم عاد يتبعه حفيده شابة تحمل الشاي .. فراعني جمالها الطبيعي الساحر وعاق نظري بها وكأنها جذبتني وقالت وهي تقدم الشاي أهلاً وسهلاً تشرفنا ثم خاطبت جدها سأذهب لكي أهيب لك الغذاء فهز رأسه بمعنى ... اذهبي ورمقتنا بنظرة ساحرة وتمنيت لو استبقيتها لأتحدث إليها ولكنها لم تترك لي الفرصة وهرعت إلى الداخل وراح المعمر يسبح بصوت خفيض كأنه تعمد ألا يشغلنا عن تناول الشاي ولكنني قطعت تسليحه لأهيب به إلى مكالمتنا قائلة ... إن شاء الله تكون بخير؟ قال كل شيء على ما يرام مادامنا نسمع ونرى ونمشي على أقدامنا ونأكل بأيدينا والله الحمد على ما تفضل به علينا حتى يسترد وديعته ، فقلت : وقد سرت الطمأنينة من نفسه إلى نفسي ، هذا أقصى ما يتمناه الإنسان فابتسم ابتسامة كشفت عما تبقى من أسنانه التي بدت كأنها ترسم كلمة الله تعبيراً عما يجيش به قلبه المؤمن مردفاً ، هذا أقصى ما يتمناه امثالنا الزاهدين الذين عملوا في الدنيا بما يرضي الله في سبيل لقائه بإيمان وفير واتجه لزميلي وهو يقول أما شباب اليوم فأضواء المدنية الزائفة تغري على التعلق بآمال واهية فقاطعه زميلي.. كان ذلك قبل حرب رمضان التي أعادت للشباب ثقته في نفسه ورفعته.

للتعلق بكرامته وشرفه ولم أشأ أن يسترسلا في حديث ملاء الأسماع
قولا والإبصار عملا فعمدت إلى استدراجه لاعرف قصته وهل تراه لم
يذل يحتفظ بقوة الذاكرة كما يحتفظ بحيويته تلك؟؟ فقلت : ألم تغادر
هذه المنطقة ؟ فلاح البشر على وجهه وهو يقول : اوه ... كثيراً ..
كثيراً .. وآخر مرة يوم ذهبت لأدلى بصوتي لانتخاب الرئيس المؤمن رئيساً
للجمهورية فقاطعه زميلي دهشاً ؟ وكيف عرفت مع أنك تعيش في شبه
عزلة فقال المعمر إنى أعيش بفضل أولادى مع الأحداث ويتحتم أن
أقوم بواجبي الوطنى مادمت حيا ولو تطلب انتخاب الرئيس المشى على
قدمى ما تبقى من عمرى لفعلت فهزنى شعوره الصادق وقاطعته بارك الله
فيك ، قال : إن أمثالى لا يحملون من الثروة غير الإيمان بالله وحب الوطن
والناس أجمعين وقدمت الرئيس الحب صرفاً وأدعوا الله أن يرعاه ويحفظه من
كل سوء فقاطعته : لقد دفع ضريبة كرامة العروبة وعزتها كفاحاً في صمت
ومعاناة في هدوء واحتمالا لكل ما يصعب على النفس البشرية احتماله في
غير ملل أو تبرم ليرضى الله وضميره على ان تتوقف عجلة شقاء الانسانية لكم
قاسينا وتعذبنا وبفضل سياسة الرئيس الحكيمة السديدة تحررنا واستعاد
العرب عزتهم وكرامتهم ومجدهم وهنا رفع المعمر رأسه ويديه إلى السماء
يدعو الله له بطول العمر مع الصحة والتوفيق وانا وزميلي نردد آمين آمين
وراقى وعيه فقلت له امد الله في عمرك لتنعيم معنا بتحرير ما تبقى من الأراضي
المحتلة وفلسطين ، فابتسم قائلاً ، اوه يابنى حسبي الشوط الطويل الذى
قطعته : عرفت فيه الشر وكرهته ، وتذوقت حلاوة الخير فاحببته ثم
انتفض في تحمس ظاهر وهو يقول : أرجو الله مخلصاً أن يوجه الناس
جميعاً إلى السداد ويدفع عنهم وسوسة الشيطان التى تحبب اليهم الباطل
وتغريهم على التعليق بكل مرذول .. وسكت لحظة ليتنفس ثم أعقب على
الملحدين أن يعرفوا ما الله فاعل بأمرته إذا جاهدوا باسمه وحسبهم مصداقاً
لذلك النصر الذى أحرزه المجاهدون يوم عبروا مرددين الله أكبر

وقاطعه زمبلى وهو ينظر إليه نظرة إكبار : حبذا لو كان فى كل مدينة أو قرية رائداً رضىا على طرازك فبان التواضع مرتسماً فى عيني المعمار وهو يقول : كيف أكون رائداً وأنا مازلت مريداً فقاطعته إذا كنت أنت المريد فمن نكون نحن ؟ فرفع بصره إلى النخيل ثم غصه لينظر إلى الرمال ثم قال ، لقد تفتح ذهني ونبض قلبي منذ بدأت أتأمل النخيل الشامخ الذى تناوئه الرياح والأعاصير ويغمره المطر ويكسوه وهج الشمس - أحداث الحياة وزلازلها وعواصفها لم تستطع أن ترحزحه من مكانه وهذه الرمال التى مرت على كشبانها ألوف آلات التدمير عبر السنين لم تتلاش وتحطمت فوقها مئات الطائرات المحترقة فلم تتحول معها إلى دخان ومشت عليها ملايين ملايين الأقدام منذ بدء الخليقة فلم تنفى تحت نار الشمس المحرقة وبرودة الصقيع القاتل وكأنها قوة أقوى من أى قوة !! أقوى من الذرة لأنها فى مجموعها عليه كمين لقوى الذرة بقدر ما تحمله من ذرات ولا يخفى عليكما ما أخرجته الاختراعات من ، ذرات الرمال أن تأمل الطويل فى الطبيعة التى عشت فى ربوعها ودرجت بين أحضانها على مختلف أنواعها وألوانها جعلتنى أستشعر دائماً بصفى دائماً الرائد .. وانا المريد ألتقى منها العلم والمعرفة وكل ما يعوز الإنسان من قوة تعينه على تحمل ارزاء الحياة ومصائبها فى غير تبرم أو يأس أو تشاؤم .. مؤمناً بأن الليل يعقبه الفجر الذى يبشر بنهار مشرق ولا تعينى الحياة بمغرياتها لأننى أعيش خادماً لهذه الأشجار تعطينى من ثمار أضعاف أضعاف ما أعطيها من جهد دون أن تشعرنى بمنة العطاء وتحسينى كهربة هذه الرمال من أمراض صعب حتى الآن على الطب قديمه وحديثه علاجها فمثلاً الروماتيزم لم أصب به رغم تقدم سنى فى حين أن أمثال أحفاد أحفادى الذين يعيشون فى الحضر يصابون به ولا علاج له .. رغم أنهم يلبسون أغلى الجلود ليحافظون على أقدامهم وأغلى ثياب ليحافظوا على أجسامهم فى البرد .. أما أنا فأقدمى تفترش الرمال وقد انام عليها دون

فراش .. أوه يا ابنتي الحديث في هذا الشأن يطول ... قد تندثر العوالم التي
يبنها الإنسان بأفة من آفات شيطانه لأنه فلق جشع يريد كل شيء ولا يعمل
جاداً في سبيل تحقيق هذا الذي يريده يقضى حياته بين الحركة والركود
ثم يفنى وكأنه لم يظهر على سطح هذا الوجود إلا إذا ترك وراءه عملاً
مجيئاً خالداً لا يكفي لاسعاده بل يتحتم ان يشمل إسعاد الآخرين ليحقق
رسالة الرسول عليه السلام وكان زميلي مسيحياً فعلق عليه الرسل جميعاً
تدعو للخير والتعاون والحب فعاد المعمر يقول: الإيمان بالله والرسل لا يكفي
يا ولدي لتحقيق الخير للجميع بل يتحتم العمل .. العمل المستمر ليتصل
العبد العامل بالله الملهم الخالق فيتزود المخلوق عن طريق هذه الصلة بزاد
العلم الأصيل والمعرفة الأكيدة لا يلبث حتى يجد نفسه مرتبطاً بعجلة الكفاح
للشريف في سبيل حياة كريمة وليؤدى رسالته كاملة غير منقوصة ولتكن
على أى صورة وفق استعداده وطاقته فنظف العمارة لا يقل عمله قيمة
عن المهندس الذي شيدها المهم العمل من أجل المجموع .

وسكت لحظة ليتنفس الصعداء بينما قال زميلي لم أكن أتصور
أنك على قدر كبير من النضج الفكرى كأنا تعلمت في أكبر الجامعات
فضحك المعمر بغير صوت معقياً الطبيعة التي علمتني الأم الكبرى
لأكبر الجامعات علمني النخيل أن عظمتي من عظمة الله فرفعت
رأسي أتيه بإنسانيتي وعلمتني الرمال قيمتي فأحسست بمذلتى وخضوعى
لله وعرفت مكانى ومصيرى . . . ذرة ستضاف إلى هذه الذرات وستطوؤها
النعال بعد حين فلم أتزيا بمسوح الكبرياء والغرور ؟ . . . آه يا ولدي ليت
الإنسان يعرف قيمة نفسه بالنسبة لهذا الكون اللانهائى وقيمة هذا الكون
بالنسبة لله . . . المهم يعرف أنه لا يمتاز عن ذرة من هذه الذرات التي
لا تدركها الأبصار من بين مجموعة هذه الذرة مهما تعمق الإنسان في تحليلها
وجاهد لإدراك كمها فلن يصل إلى معرفة دقائق تكوينها . . شأنه شأن الباحث
الموفق لتعرف كنه بصيص من ضوء الأشعة الشمسية لاندري كم مر من عمر

البشرية على وجه التحقيق وكل ما كشف عنه البحث في علم الفلك مجرد نظريات وفق تكهنات إذ لا يمكن لأى كائن أن يتلمس الشمس ويرصدها ويسر غورها ، ألا يصح أن يكون مجموع الذرات الرملية الموجودة على سطح البسيطة هو مجموع المخلوقات التى اندثرت منذ خلق الله العالم وقد يصح أيضاً أن أرواح هذه الذرات تطل علينا من عل ساخرة من الأقدام التى تطوؤها دون مبالاة . . وسكت ليسبح الله مكبراً ثم استطرد معذرة لقد أثقلت عليكما ، هذه ثرثرة معمر يحلو له الكلام قبل أن يودع الدنيا ولزم السكون مستأنفاً تسبيحه بغير صوت ولم يسعنى إلا أن أقول له . . أنت فيلسوف مؤمن فليتنا نستطيع أن نتعلم من الحياة بقدر ما تعلمت . . فابتسم ابتسامة المطمئن إلى نهايته قائلاً : أنصحك يا ابنتى ألا تتعلمى من أحد . . تعلمى من كتاب الله المسطور فى قرآنه والمرسوم على صفحات الطبيعة الخلابة الساحرة تعلمى من القرآن والطبيعة العلم بكل مشتقاته بعد أن تفتحى قلبك وتحكمى عقلك أنا أخاطبك بلسان الإنسان ولكنى فى الواقع أنقل إليك بعض السطور مسطور كتاب الله إن لله كتباً مقروءة أنزلت على الرسل لهداية الإنسان وتقويمه وإذا صعب عليك استيعاب آيات هذه الكتب السماوية تأمل صور الطبيعة المحسمة والمنوعة إن مشاهد لوحات الطبيعة تغرى على التأمل بقدر ما يتيح الاستيعاب وبذلك يتوفر لك من الإدراك والوعى ما يعينك على تفهم آيات الله . . . لقد عشت طويلاً أطلع بتأمل سطور كتاب الله الذى ترسم حروفه مشاهد الطبيعة التى تعبر بوضوح عن قدرة الخالق الأعظم... عشت طويلاً مع الشجر والشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والرياض والطيور والحيوانات والحشرات ولا أكتمك أنها كانت رحلة شاقة طفت خلالها عوالم هذه المخلوقات حتى استطعت بعد طول تأمل وتفكير وإحساس أن أفهم لغاها وأدرك ما وراء صمتها بقدر ما وعى عقلى وأحس قلبي — فاستعنى بقلبك وعقلك دون غيرك وثق بأن لديك من طاقة الفهم والإدراك ما يعينك على تفهم كل شئ واستيعابه فان تطور العصر أتاح لكم تفهم

ما كنا نعجز عن تفهمه إلا بعد طول عناء أما اليوم فالطريق أمامكم معبداً ولم يكديسكت ليتنفس حتى قال زميلي : والآن كيف تقضى وقتك ؟ قال بصوت هادئ . إذا عشت مع نفسي شغلني الله عنها وإذا عشت مع الناس شغلتنى شواغلهم وأحداشهم قلت : إذن أنت تعيش بفكرك معنا وتلم بما يدور حولنا أن أحداث الوطن تشد كل مواطن إلى وطنه وعروبته فشاغلي ما يشغل كل مواطن حر فقاطعته . . ولكنك ؟ فلم يدعني أكل كلامي وقال عجوز ضعيف عاجز عن العمل . . صحيح هذا ولكنني قوى الإيمان والفكر ولقد عرف الرئيس كيف يحطم الحواجز التي كانت تحول بين تآلف أرواح الدول العربية وبالتالي تآلفت جميع الشعوب الداعية للحرية والسلام فقلت . . كأنه ساحر قال . . . يا عبيطة . . ثم تدارك وأعقب . . معذرة يا ابنتي ظننت أنني أخطب حفيدة لي . . إنها مثلك تخرجت من الجامعة فضحكت ليكن . . تكلم فاستطرد . . قولي أنه مؤمن وكفى . . لقد انتصرنا في رمضان بفضل الإيمان وعرف الرئيس كيف يوحد بين الدول العربية بفضل الإيمان وكيف يخاطب الجماهير بلغة الإيمان وكيف يتفاهم مع الشعوب بروح الإيمان وسكت ليرقب معنا الطائرات التي حلقت فجأة فوق رءوسنا وقبل أن يتكلم قال زميلي أرايت عبقرية العلم الحديث فابتسم المعمر في استخفاف قائلاً : وهل العلم يكفي لحماية الإنسان يا ولدي ؟ كم من علماء ضلوا وأساءوا إلى البشرية بتأثير اختراع لم تزل تعاني البشرية منه ما تعاني من محن جسام ، لقد قطعت البشرية مرحلة طويلة في طريق العلم وهي لم تزل تتخبط في دياجير الإفك وتوشك أن تتحطم معالمها إن لم يتحول العلم من الدراسات المادية الطاحنة إلى الدراسات الروحية الخالقة ستغدوا البشرية بعد حين أشبه هذه الصحراء . . . ذرات مكدسة فوق ذرات وإذا لم تنبه البشرية إلى ضرورة التخلص من سلطة المادة الطاغية والتهاك حولها فستهار ويأويلها إذا استمرت على هذا الحال يحارب بعضها بعضاً من أجل المادة هم يحاولون استغلال المادة في تدعيم القوى الروحية العظيمة الكامنة

فى الإنسان والكون كله ولكنهم يحاولون ابتزاز الأموال من أجل دفع المدنية الباطلة إلى الأمام لقد كنا فى مضى نعيش قانعين بالقليل من الغذاء والكساء لأن طاقتنا الروحية وليدة إيماننا القوى بالله أقوى من مطامعنا المادية التى تدفعنا إلى حروب طاحنة تتطلب منا غذاء أكثر وكساء أوفر لتعيننا على مقاومة نكبات الحروب أشد ما أحزن على تداعى القيم الروحية فى هذا المجتمع فقاطعته كان ذلك قبلاً أما اليوم فقد اتجه الرئيس بالشعب اتجاهاً عملياً وأصبح العمل المثمر وحده هو قياس قيمة الفرد بجانب تحالف القوى الإسلامية بفضل بعض الملوك والرؤساء لإيقاف النشاط والتطاحن من أجل المادة والمطامع وتلقيح المجتمع بمصل الروح الراقى فقاطعنى . . قد يصح هذا لو تظهرت الشعوب تلقائياً من دنس المدنية التى سرت سموها فى الشرايين باسم التقدم والرقى . . فأنا أفهم أن المرأة تشارك الرجل فى العمل خارج البيت لزيادة الدخل والإنتاج ولكنى لا أستسيغ مطلقاً أن تشرب الخمر أو تدخن السجارة وتراقص رجلاً غريباً فى الحفلات باسم المدنية إلى آخر هذه الموبقات وأخوف ما أخافه أن تسرى هذه المدنية فى الأمم الإسلامية الأفريقية التى لم تزل تعيش على الفطرة فقاطعه زميلى : اطمئن لقد تنهت الدول العربية والأفريقية إلى الخطر الذى يحيق بها وبدأت تتأى بمحض إرادتها عن الزائف من المدينيات الفاسدة بعد أن قاومت المستعمر حتى صرعه وتستطيع أن تطمئن أيضاً إلى أن الروحانية بدأت تزحف رويداً رويداً فى الشعوب العربية وهى توشك أن تأخذ مكان الصدارة قال المعمر . . هذا لا يمنعكم من السعى جاهدين لتنمية المادة أيضاً كى توفرُوا أسباب الحياة الطبيعية للجميع وعقب الزميل ولن تغفل المادة حقها فهى التى تساعد على بناء مجتمع قادر على صد العدوان . . . فقبض المعمر على يده بيد حانية وهو يقول : اعترف أن سياسة الرئيس تدعو للقوة المادية بتعزيز القوة الروحية وتزويدها بالإيمان الصرف ليفتح أمام الشعب آفاق المعرفة والتجديد كى تصبح للشعب قوة هائلة خلاقة تبعث الوعى من مكنه محفزة العقول للخلق والابتكار مع تزويد القلوب بدماء

المثل العليا وسكت ليرقب الصحيفة التي وقعت من يدي وقد ظهرت صورة الملك خالد والرؤساء بجانب صورة الرئيس فنظر إلى الصور وهو يقول . . . هذه تبشير إعادة مجد العرب الذي سلب منه وتعزيز قوته المعنوية والروحية وإعادة أمجاد الإسلام العتيدة وشئت أن أنهي الحديث فقلت : المهم أن تتأخى الشعوب على اختلاف سياستها وأديانها وجنسياتها وتتآزر وتتكالب وتترابط ضد المستعمر وتابعيه وعقب زميلي . المهم وحده العاطفة الإنسانية ووحدة الأهداف السامية التي ترتفع بالعروبة إلى أسمى مراتب السمو وتوطد دعائم الأمن والحرية والسلام وسكت عندما ارتفع صوت المعمر بالدعاء للملوك ورؤساء وقادة العرب والاسلام المصلحين ولزمت الصمت عندما لمحنا سيدة تدنومنا تسير في اعتزاز واعتدال كأنها ملكة متوجة فلما اقتربت من المعمر وضعت أمامه طعام الثريد وهي تقول سوف اعد لك الشاي ريثما تأكل فنظر إليها نظرة حب وحنان وهو يقول .. أعدى طعاماً لضيوفنا فانتصبنا شاكرين له كرمه مبتعدين عنه ليتناول طعامه في حرية واستدار نحو الحفيدة التي ناهزت الخمسين كما قالت عندما سألتها زميلي عن عمرها ولكنها تبدو في سن الثلاثين وسألها أنتخبين جدك أكثر أم أبوك ؟ فابتسمت ابتسامة ما رأيت أجمل منها وقالت إنه جد أبي وكلنا نحبه أكثر من جدنا وأبينا نلجأ إليه إذا ضاقت الدنيا بنا فنجد عنده طمأنينة القلب وراحة النفس وكلنا نعيش تحت ظلال بركته ثم استأذنت لتعد له الشاي راضية في صدق وحرارة أن نرافقها حيث تقيم على مقربة من هذا المكان لتتناول غذاءنا واضطرت أن تنسحب بعد إصرارنا على الرفض شاكرين لها اريحتها ولاحظ زميلي أن المعمر انتهى من تناول طعامه فهرع إليه ليقول له سنظل طوال العمر نذكر هذا الحديث الممتع فابتسم المعمر وهو يقول علك غير شباب اليوم الذين يسخرون من الشيوخ أو على الأصح لا يفهمون لغة أبناء أمس البعيد إذ يظنون أنهم أوفرأوعياً وأغور علماً فقطاعته ، هؤلاء هم السذج الأغبياء أما الأغلبية الواعية من شباب الجيل

يدركون تماماً أن المحرب الحبير أكثر علماً وأنضج عقلاً وأوفر خبرة وأصدق مقياساً للامور وهو بلا شك كنز يجب أن يستقى منه الشباب خلاصة المعرفة وعصارة الخبرة وعقب المعمر . المهم أن يدرك الشباب أن نجاحه في الحياة يتوقف على الصبر والعزم واليقين والثقة بالنفس وحب الخير للجميع وليس من الضروري أن يكون وفير المال بل يكفي أن يكون ذا بصيرة نفاذة ويحتمل الحرمان والآلام في سبيل تحقيق غاية وأحسست بأن المعمر في حاجة إلى الراحة فهممت بمصافحته مودعة وقبل أن ننصرف لمحت عجوزاً يقترب منه فتلكأت لأعرف من يكون فلما دنا منه قبل يده متسائلاً كيف حالك يا أبي فمر المعمر بيده على رأسه العارية كأنه يباركه قائلاً : حمداً لله كيف حال أولادك ... كلنا بخير مادمت أنت بخير وهنا أدركت من إشراق وجه العجوز الحيوية البادية على محياه واعتدال قامته وقوة صوته ان ترابط هذه الأسرة هو مبعث الصحة وطول العمر إنه لا متاعب نفسية ولا انفعالات عصبية تثير أمراض البدن وانتهز زميلي فرصة مقدم العجوز فسأله عن مقر رجل وجيه يقطن في هذه المنطقة لكي يقابله لأمر هام . . . وأبدى العجوز استعداداً لمرافقته بعد أن قدم كل منا نفسه إليه وصحبه في التو بعد أن أخبره أن ابنه وكيل أعمال هذا الوجيه وغادرني الزميل بعد أن اتفقنا على أن انتظره ريثما يعود وقبل أن يبرح المكان طلب المعمر من ابنه أن يقدمني لابنة أخته التي تقيم مع جدها في غرفة الحراسة لترعاه لكي ترافقني لمشاهدة الحدث ريثما يعود الزميل

جولة أخرى

لشد ما أسعدنى أن تتاح لى فرصة لمشاهدة تلك الحديقة الشاسعة مستمتعة
بنقلى من زهور ناضرة إلى ورود عاطرة إلى أبصال ذات أرج مخدر ساحر
وأخرى ذات لون جذاب باهر إلى ألوان من الياسمين المدهشة ولقد عرفت
من خلال حديث مرافقتى أن مستأجر هذه الحديقة أستاذا جامعياً خصص
وقت فراغه لاستغلال هوايته لفلاحة البساتين وله دراية وافيه وذوق سليم
مع أنه كما سمعت من سياق حديث جرى بينه وبين زائريه أنه تخصص فى
العلوم الرياضية ولم يقف اهتمامه بهذه الحديقة وحسب بل راح يلتقى محاضرات
فى زراعة البساتين على أبناء هذه المنطقة مستعيناً بزملائه الاختصاصيين ليتسع
نطاق التعمير فى هذه الصحراء بجانب استغلال إنتاجها وفقاً للتخطيط الذى
يرسمه المشرفون وأنستنى هذه الجولة الممتعة الوقت كما نسيت مرافقتى
قدر الطعام على الموقد واضطرت أن تستأذن بعض لحظات ولكننى شكرتها
وأقنعها بأنه فى مقدورى أن اعود من حيث جئت إلى المعمر فركنتى على
أمل أن تلحق بى لتطمئن على . ولم أكد أبلغ المعمر حتى لمحت شاباً يقود
عربة فاخرة فلما رآنى اتجه نحو المعمر ليسأله عن قاسم—ليجمع له بعض الزهور
والورود وكان يخاطب المعمر دون أن يبرح نظره وجهى وادرك المعمر
ذلك فقال له بصوت جاف أنت تعلم أن قاسم فى المدرسة الآن ولن يحضر
إلا بعد الظهر وبلهجة استعلاء قال الشاب : أه لقد نسيت—والثفت إلى
بكلية مردفاً فى استنكار لقد أصبح التعليم كما قال المرحوم طه حسين كالماء
والماء للجميع لافرق بين الخدم والسادة فقاطعته فى احتقار... قل الدكتور
عميد الأدب العربى طه حسين وان كان ذكر اسمه وحده يكفى للدلالة على
عظمته لكن لا يصح لمثلك أن يذكر اسمه بهذه اللهجة... ومن مآثره الخلية
هذا التشريع الثورى الحياة للجميع والسيادة للإصلاح فرمقنى بنظرة فاحصة
بينما قال المعمر صدقت يا ابنتى ثم خاطب الشاب هل نجحت فى الامتحان يابك؟

فارتاع الشاب ونظر إليه في استخفاف قائلاً: أنت تعلم أنني اتسلى، ولست في حاجة إلى الشهادة فلم ترقى ميوعته واستهتاره البادى في زيه ولهجته فالقيت التحية على المعمر وحده متحولة عنه لأخذ طريقى إلى حديقة الأستاذ ريثما يحضر زميلى وفي جراه اعترضنى الشاب قائلاً : العربية تحت أمرك فنظرت إليه شذرا قائلة لا تضيق وقتك لم يبق على الامتحان غير أيام قلائل فقال فى صلف وكبرياء الشهادة لمن يعوزهم ثمن القوت والكساء فألقيت عليه نظرة احتقار وأنا أقول كان ذلك قبلا أما اليوم فقد انمحنى عصر الثراء بالوراثة وتحولت عنه انا أرد نظراته الشرهة بنظرات احتقارى مردفة : غدا سيفنى المال الذى جمعه والدك مادمت عاجز عن استثماره وهنا تحامل المعمر على عصاه واقترب منا وهو يقول معها الحق ثم ربت على كتفه فى رفق مردفا ... أه ياسيدى لو عرفت مدى تفهم هذه الفتاه للحياة إنها أوفر منك علماً مع أنها اصغر منك سنّاً فشاع الغضب على وجه الشاب وقال ؛ أنت تعرف أن ثروتي تزيد على مطالبى لو عشت عمرى كله ويزيد ثم غير مجرى الحديث قائلاً على فكرة . . . كنت وعدتني أن تعبرني قصة أطلعها فأين هي ؟ فقال المعمر ... أخشى أن تهملها كما تهمل دروسك وهو أعز ما لدى في الحياة إنها ابني البكر الذى يحمل تاريخ حياتي فقاطعته. أرجو أن تعبرني إياها وأنا أعدك أن أعيدها إليك بعد أسبوع على الأكثر ونظر إلى المعمر نظرة ثم عن القبول وأنا أردف ، أهى قصة قديمة أو حديثه وبقلم من ؟ فارتعشت شفتاه عندما هم بالكلام وبدأت الدموع في عينيه كومضات من النور الخاطف وشعرت بانتفاضة جوانحه وبدأ لى كأنه أصيب بالحمى فى التو راح وجهه يعكس ما يختلج فى أعماقه فزغنى أمره واشفقت عليه ولكى أهدهد انفعاله قلت يبدو انك متأثر بهذه القصة فقال بصوت مرتعش النبرات ماذا أقول لك يا ابنتى إنها قصه إنسان معمر ، قلت لاشك أنها رائعة تشتمل على أحداث هائلة فليتك تحدثني عن بعض أحداثها ولا أظن ذلك يضيرك فغدا يهدى ذكرى أفرأحها

شجن آلامها فيحلو لك الحديث : قال : لا أستطيع والذي أستطيعه أن أقدمها إليك بقلم رسام زارني هنا منذ خمسين عاماً وكنت نزحت إلى هذه المنطقة منذ شبابي لأبتعد عما يشير شجني تاركاً خلفي أحب الناس إلى قلبي جئت من القاهرة إلى الهرم مشياً على الأقدام وهنا غامت عيناه بالدموع فتركتي وغاب بعض الوقت وعاد ليقدّم إلى القصة تلفها قطعة قماش نظيفة كأنه لفها بها في التو وقدمها إلى وحاول الشاب أن يختطفها فلم أمكته فقال ليواري فشله عندي في السيارة مجموعة قصص انتقى منها ما شئت هدية مني فلم التفت نحوه وهنا اقبل زميلي فهللت فرحة لاشعر الشاب باهتمامي به قائلة لقد تأخرت يا عاصم واغتاظ الشاب وتنحى عن طريقي وهو يخاطب المعمر في حنق واضح لم أكن أعرب أبداً أن الحديقة باتت استراحة للمغربين وأسرع إلى سيارته وهو يدمدم بالفاظ بذينة في حين قال المعمر ... لا تهتمى إنه شاب طائش مستهتر يحسب الشباب على طرازه فأبدت عدم اكتراثي وودعته شاكرة على أن ألقاه كما وعدت بعد أسبوع لأعبد إليه قصته •

مع القصة

يلسان المعمر كتب صاحبه فى مستهل القصة :

سرت على طريق النيل دون أن أحدد وجهة مصرى عندما بارحت القاهرة فى أمسية معتمة متعثراً لاضطراب عقلى مستمداً العون من الله تعالى على مشقة المسير وكلما أحسست بالتعب جلست على قارعة الطريق لأستريح بعض الوقت ولكى أستعيد ما افتقدته من قوة ومضيت حاملاً معى بعض الهواجس والأوهام تاركاً للنهار المقبل ما يراودنى من آمال وأحلام وأقبل ليل اليوم الثانى وطوانى فى بردى التعب المضنى وكنت بلغت طريقاً تشير علامة المرور بعدم السماح لمروور السيارات : وتوقفت سيارة عند إشارة وكان العطش أوشك أن يزهق روحى فدنوت من راكبها متوسلاً أن يسمح لى بالركوب خلف السيارة حتى أبلغ أول من يقابلنا لأروى عطشى الشديد ودون أن يسألنى من أكون أو يتردد فى قبول رجائى رحب بركوبى وأجاسنى بجواره مع أن مظهرى وما بدا على ملابسى من سمات تشير الشك والارتياب وعمد إلى ملاطفتى ومحادثتى بعد استئناف المسير ولم ألبث حتى أنست إليه وفتحت له صدرى بعد أن صارحنى بأنه يلمح آثار آلامى المبرحة التى أجترها فى صمت مرتسمة على وجهى وتمتزع بنيران صوتى المتقطع الأنفاس ، وقصصت عليه قصتى كلها دون أن أحذف منها أى حادثة وبدل أن ينفر منى أو يتخلص بلباقة كما توقعت تمسك بى ودعانى إلى العمل عنده على أى صورة أرضاها ... وإن كان يفضل أن أعاونه مع معاونيه فى عماله أثناء للكشف على الآثار ... ولما صارحته بأن ما عانيت طوال هذه السنين هذه قواى وأضعف جسمى قال : إذن فى مقدورك أن تكون مشرفاً على إدارة بيتى ووكيلاً لشئونى الخاصة فىنى أتوسم فيك ذكاءاً خارقاً وكان لابد أن أقبل هذا العرض الذى اعتبرته منحة إلهية أسداها إلى هذا الرجل الكريم مؤكداً له بأننى سوف أكون عند حسن ظنه بى إن شاء الله ...

وكان هذا الرجل هو الإيطالي الذي كان يملك هذا القصر ومزرعته
تغمده الله برحمته الواسعة .

قرأت هذه النبذة في الطريق إلى بيتي ناسية وجود زميلي بجواري
في الأتوبيس فنهني نسيت أن أسألك من هذا الشاب الذي كان واقفاً . .
فقلت من أبناء الرأسمالية الحاكمة قال : يبدو كذلك فعلاً قلت لقد قدمت
إليه حفيدة المعمر الورود وهي تقول لقد تعب البستاني في اقتطافها
ألا يستحق هبة فأجابها في أنفة . . . هذا عمله ويتقاضى عليه أجره وغمرها
بعينه مردفاً لكن أنت التي تستحق الهبة ومد يده في جيبه ولكنها تحولت عنه
في أنفة وهي تقول .. وفر عليك ولم يشأ الزميل أن يترسل في هذا الحديث
فقطعه قائلاً : لقد ضيعت على اليوم دون جدوى فقلت في غير اكتراث
أنت الذي جئت لتأكد من صدق مارويته لك قال : في الواقع اصطنعت
هذا السبب لكنني جئت لمقابلة « الباشا » على أمل أن أحظى بتحقيق صحفي
هام وقد غادر حلوان قبل وصولي إليه بدقائق ليسافر إلى الخارج : قلت
كان المفروض أن تتصل به تليفونياً ، قال : لقد أردت أن أفاجئه لأنه يهرب
من الصحفيين ، قلت : عله يخشى افتضاح سر ما ؟ قال : لقد كان بوهيمياً
ثم أصبح صوفياً : قلت وأى عجيب في هذا كل تطرف في أمر ينقلب إلى
ضده دائماً فدع الرجل لله وأبحث لك عن مغنم آخر مالنا وشئون الناس
الداخلية . دع الملك للمالك قال : يبدو أنك تأثرت بالمعمر ونظرت إليه
بمعنى أسكت لنسمع تعليقات الركاب على الأحداث السياسية وإعجابهم
البالغ بعزيمة الرئيس المؤمن وإصراره على التمسك بتحرير الأرض المحتلة
وحقوق فلسطين المشروعة ولم أكد أبلغ بيتي حتى هيات نفسي لقراءة
قصة المعمر ولم أكد أدخل إليها حتى وجدتني أعيش مع أبطالها بوجداني
وخواطري متجولة معهم في كل مكان عاشوا فيه أو طافوا به حتى عرفت
بقدر ما أتاحته لي القصة خفايا الصدور وبواطن الأمور .

بداية حياة من نهاية حياة

لم يكن يتوقع — ناير — الذى بلغ من العمر ستين عاماً أن تموت زوجته فجأة دون أن تمرض وهى فى ريعان حيويتها وقبل أن تبلغ الخمسين من عمرها ولم يمر على زواجها أكثر من عشرين عاماً كانا مثال الزوجين السعيدين تاركة خلفها سبعة من البنين والبنات أكبرهما مسره فى سن الرابعة عشر وعكف الوالد رغم تقدم سنه إذ كان على خلق جعله مستقيماً حريصاً على رعاية حصته وتأدية فرائض الدين على الوجه الأكمل وقد ساعده ذلك على عدم التعرض لأى مرض فى شبابه وشيخوخته وكان يبدو رغم تقدم سنه كأنه فى سن الأربعين بحيويته ونضارته على أن ثروته الطائلة بجانب معاشه دفعت النساء الراغبات فى الزواج منهن العذارى والعانسات والأرامل التقرب منه بشتى الوسائل المغرية لجذب نظره إليهن وفى مقدمتهن نساء الحى الذى يقطن فيه . وكان من بين سكان العمارة التى يملكها ويقطن فيها فتاة تقدم بها السن ولكنها تحتفظ بشبابها وحيويتها لعنايتها الفائقة بصحتها وبالرغم من فقر أسرتها المدقع فإنها تظهر دائماً بمظهر الفتاة التى تنتمى إلى أسرة غنية وتعلن دائماً بأن مصدر المال الذى تشتري به ملابسها الفاخرة وأدوات زينتها العالية من إيراد أوقاف طائلة آلت إلى أسرتها بعد رفع الحجر من على أصحابها ولكى تضع نفسها فى إطار هذا الثراء استساعت أن توطد العلاقة بينها وبين سيدة تركية تعيش بمفردها فى شقة بالعمارة تقضى معها طول النهار لتقوم على خدمتها ولاتزور أسرتها التى تقطن فى غرفتين فى أعلا العمارة إلا بعد أن ينام سكان العمارة وإذا رآها أى أحد تظاهرت بأنها تمديد المساعدة لهذه الأسرة التى تتكون من الأم والأب وأبناء من الذكور هاجروا إلى ليبيا للعمل هناك ولم يجد والدها أى غضاضة فى إقامة ابنته عند السيدة التركية لتقوم بتوفير أسباب الحياة والمعيشة له ولوالدتها .

انتهزت — نازك — وقد خلعت على نفسها هذا الاسم بعد أن كان اسمها خدوجة فرصة موت زوجة الرجل الذى يقطن مقابل شقة السيدة التركية حتى تقربت إلى كبرى أولاده — مسرة — وعمدت إلى ملازمتها لمواساتها والترفيه عنها ومساعدتها فى رعاية أخواتها الصغار بدعوى أنها كانت صديقة للمرحومه والدتها وكان من الطبيعى أن تتعلق — مسرة بها وكذا أخواتها ولاحظ الوالد مدى اهتمام — نازك — بأولاده فبدأ بدوره يهتم بها ويقدم لها الحلوى والهدايا كلما أحضر لأولاده شيئا جديدا ولم تمض بعض شهور حتى تسلفت إلى قلبه واستقرت به إلى حد شعر أنها لازمة له ولأولاده ولم تلبث حتى استطاعت بدهائها أن تدفع ابنته إلى مطالبتة بالزواج منها لوفرة حنانها وحبها للأولاد ووجد الوالد هذا المطلب يتفق مع رغبته التى راودته كثيرا وكان يخشى أن يقدم على تحقيقها فيغضب ابنته وأولاده . . . وأخيرا بعد إلحاح ابنته ولعله تعمد أن يترك الابنة تلج عليه لكيلا يشعرها بأنه تعمد أن يتزوج بامرأة بديلة لأمرها من تلقاء نفسه تزوجها ولم يمض على زواجه بعض شهور حتى مرض أحد أولاده بالحمى ثم سرت العدوى إلى الجميع عدا — مسرة — التى كانت ترافق عمها لتقضى الصيف فى الإسكندرية معها وقضت الحمى على الأولاد جميعها وانتقلوا إلى رحمة الله فى أسبوع واحد ، وأصيب الوالد بصدمة هائلة ولكنه قاوم لترضية زوجته التى حاولت أن تخفف من تأثير الصدمة عليه بما تظهره من حب وحنان مؤكدة له بأنها كانت تمنع إنجاب الأولاد عن عمد ولو شاء لانجبت له وأقسمت له بأنها أجهضت أكثر من مرة دون أن تشعره . . . ومضى الصيف وعادت — مسرة — فوجدت البيت خاليا من ملائكة الأرض الصغار كما كان الوالد يسميهم ولم تجد غير والدها وزوجته واصطدمت بكارثة زلزلتها وراحت تعاني أقصى آلام الحزن بقدر المصيبة الفادحة وبدأت كراهية زوجة الأب تتسرب إلى نفسها إذ خيل إليها أنها أهملت رعاية أخواتها أثناء غيابها ومظهرها الذى ينم عن عدم الحزن مدعية أنه يتحتم مراعاة الوالد

وعدم إظهار الحزن على المفقودين . . . وراحت تقارن بين جارة فقدت صغيراً واحداً وقد مضى العام وهى لم تزال تبكيه واتضح لها لأول مرة الفارق بين عواطف الأم وعواطف زوجة الأب خصوصاً من كانت على طرازها لاتهم إلا بنفسها كما بدأت تلحظ مدى اهتمام والدها بزوجه وإيثارها عليها واستسلامه إليها استسلاماً مطلقاً شجع الزوجة على استغلال هذا الحب لاكتساح عواطف الأبوة ولم تمض بعض أعوام حتى باتت حياة الابنة جحيماً لا يطاق إذ لا تجد حولها غير ماثير الدموع والشجن ويملاً قلبها بالأسى والألم لا يرف على خاطرها حلماً من أحلام الصبا الزاهر المعطر بأرج الربيع الموشى بالأمل الباسم . . . إنها تخطو نحو الربيع غير شاعرة بنضرة زهوره وعطر وروده ولا تتحسس غير الشوك ولا ترى في سماء حياتها غير الضباب الذى حجب عنها كل ما يدفع الأمل الباسم إلى نفسها ، نكد لا ينقطع يدر الدموع من عينيها صباح مساء حتى كرهت حياتها وراحت تدعو الله بأن تلمحق بأمها لتستريح مما تعانیه ويزيد من حزنها وآلامها أن الزوجة لاتوالها أى اهتمام بل تبدو دائماً فرحة طروب تولى نفسها وزينتها اهتماماً بالغاً وتفكر في مصدر هذا فيقف تفكيرها القاصر عند حب الواند لها وإعجابه بكل ما تبديه ولم يعد لها حيلة غير الخضوع لمشيئة الله الذى حرّمها من أمها وأخواتها كما حرّمها من حب والدها وحنانه وإيثار زوجته عليها وتستسلم لحزنها وآلامها منطوية على نفسها عزوفة عن كل ما يبعث الأمل الحلو المشرق في نفسها وباتت سجيئة البيت كأنها خادم يتحتم أن تقوم بعمل ماتأمرها الزوجة به عكس الزوجة التى تفرح فى البيت كعصفور لا ينقطع عن الغناء تخرج كلما شاءت وتقابل فى البيت من تشاء دون أن تشرك مسرة فى الخروج أو اللقاء وتساؤل نفسها ، ما الذى غير زوجة أبيها وحول حبها إليها قبل أن تتزوج والدها إلى كرهه وغيره سافرة تم عن حقد دفن كأنها — ضرّتها وإذا حاول الوالد أحياناً أن يعطف عليها أو يحبوها بالحنان خلصة فإن

محاولة تلك كانت تزيدها حزنا وإيلاما لأنه إذا عطف عليها لحظة يتجاهلها كلما كانت زوجته بجواره أو على مقربة منه هو الذي كان لا يغفل عنها لحظة قبل زواجه وإذا حدث وانتهز فرصة لإنهماك زوجته في عمل ما بعيد عنه قربها إليه مبدئيا إعجابه بنضوج جسمها مظهرها ابتهاجه لأنها أصبحت وردة ناضرة يسر العين مرآها وهي تذكره بأمرها في صباحها فإذا لمح زوجته تقترب منها تغافل عنا بالقراءة ، كان ذلك يحزن في نفسها لمجاهرتة بحب زوجته أمامها وإخفاء حبها أمام زوجته وقد يكون له العذر لأن زوجته لا تطيق تصوره لزوجه الراحلة مجسمة في ابنتها خصوصا بعد أن سمعته مرة دون أن يشعر وهو يقول لابنته . . إنها تذكره بأمرها بصوتها ومشيتها وحركاتها فكأن الأم مازالت تعيش بين يديه حاضرة لديه في أول عهدهما بالزواج . . لم يدر الزوج المسكين بأن تصريحه هذا يوم جاهر به ابنته بحسن نية نبيه الغيرة والحقد والأنانية في قلب زوجته ودفعها إلى التفكير في ضرورة التخلص من الابنة — التي تثير ذكرى أمها كلما رآها والدها ورغم أنه حرص على ألا يثير ذلك لكن الزوجة الماكرة كانت تطالع مشاعره الخفية كلما وقع نظره على ابنته أو تراءى إلى سمعه صوتها عن قرب أو بعد .

صراع بين عاطفتين

خرجت الزوجه لقضاء لوازم لها ونسيت كسابق عهدها أن تسمع لمسرة بزيارة عمتها إذ كانت تحرص دائماً ألا تترك البنت مع الوالد أثناء خروجها فاحياناً تصحبها لتحمل لها ما تشتريه كأنها الخادم ثم تتركها عند إحدى معارفها ريثما تعود من جولتها ليكلاً تعرف تصرفاتها وشعر الزوج بخلو البيت منها فتنفس الصعداء إذ كان برغم تعلقه بها وخضوعه إليها غير راض عن معاملتها لابنته ومنعاً للنزاع كان يتجاهل ابنته أمامها لكيلا يثير غيرتها التي تسبب له متاعب تزلزل أعصابه التي بدأ يشعر بضعفها .

وانتهزت الابنة أيضاً فرصة تغيب الزوجة فاقتبلت على والدها تبته حبا الأديد وحنانها المكبوت وتفتحت قلب الوالد عن حبه العميق فطوقها بذراعه يقبلها قبلات الأبوة الحانية وكأنه رآها بعد طول غياب وأسند رأسه على صدرها الحاني الصغير مستعيداً ذكرى الماضي الجميل يوم كان يسند رأسه على صدر أمها أثر إجهاد شديد وغاب بحواسه مع الماضي حتى نهته ابنته قائلة حدثني عن أمي يا أبي كيف عرفتها وهل كنت تحبها ذلك الحب الذي يصوره الحب المتفاني في أقاصيص الحب ؟ ورفع الوالد رأسه فهاه الابنة الدموع التي غمرت وجهه فجففها بيدها البضة الرقيقة وطفرت دموعها وقد انتفضت مشاعرها شفقة عليه وبنبرات صوت متهرج قال : كأنني أرى أملك الآن رحمها الله لأول مرة . كان ذلك في حديقة عامة تريض مع خادمتها وكنت ناهزت الأربعين غير راغب في الزواج حرصاً على راحة إخوتي حيث كنت أعولهم بعد وفاة والدي متخذاً من القراءة والرياضة سلوى لي وغلبه الأسى مع انهمار دموعه فاحتضنته ابنته في حنان قائلة : إنك تزيد من آلامي فهون عليك رحمة بي ليتها عاشت

ليت الله أبقاها لي من أجل . . . فغمغم بشفتين مرتعتين ومن أجل أيضاً
يا ابنتي ثم تنفس الصعداء مردفاً بصوت تخنقه العبرات . كم أنا سيء
الحظ يا ابنتي اليس المال كل شيء في الحياة . . . بل كثيراً ما يكون
سبب الشقاء . . . لولا ثرائي لما حامت النساء حولي بعد وفاة أمك كما
يهوم الفراش حول النور . . . وأرادت إبنته أن ترفه عنه فقالت
إذ شعرت باللوعة تكتم أنفاسه . . . لم أكن أعرف أنك شاعر يا ابني فقال
واللوعة تغلف نبرته . . . كان ذلك يوم كانت ملهمتي معي فطوقته
بذراعيها وهي تقبله قائلة . . . إنك تعترف بأنني شبيهة بأبي ألا يكفي
ذلك لإلهامك قال : إذا لم يكن بيننا ذلك الحاجز الذي يحول بيني وبينك
. . . قالت في مرارة . . . ولم لا تحطم هذا الحاجز وأنت قادر . . .
قال بصوت خفيض متكسر كأنه يخاطب نفسه . . . هناك قوة أقوى
منى . . . إن قوة الطبيعة يا ابنتي أقوى من الإنسان . . . غداً عندما
يكتمل نضجك تعرفين ما تجهلينه اليوم وتدركين بوئسى وعذابي ولا حيلة
لي غير الخضوع والتسليم فتهدت بحركة قائلة مثلي تماماً فقال وقاك الله شر
السوء فتكلفت بسمة لتهون عليه وقالت هون عليك يا أبني بتصوير مشاعرك
شعراً . . . سيكون صادقاً ورائعاً لو فعلت . . . ولو من أجل . . .
قال والغصة تبتلع أواخر كلماته : لقد أخذت أمك معها الإخام والأمل
المزدهر الحلو والإشراق الدائم والحب الصافي النقي المظهر وتهد طويلاً
ليرفه عما يعاينيه فقبلته ابنته قائلة :

ألا تسمعي شعر إلهام أبي ، فسرح بذهنه ليستعيد شاعرية ماضيه ثم ابتسم
كأنه رأى طيف أمها مجسماً أمامه وانتفض وبصوت ترتجف نبراته قال :
قلت يوم رأيته لأول مرة .

هيفاء ماست تشني كالغصن حركه النسيم
إن أقبلت لاحت بوجه ضاحك السن الوسيم

في رقة من حسنها تنسيك جنات النعيم
وبمقلة لـ صوبت للصخر أصبح كالشمس
وبصوتها نغم به سحر من الله الكريم
وبرغم ذلك تظنها بدر تواريه الغيوم

كان يطوقها بذراعيه وهو يردد الشعر ولا يدري بأن زوجته عادت من الخارج وتسللت في حذر لترى ماذا تفعل الابنة في غيابها حيث تنبت بعد مغادرة البيت إلى أنها تركتها ولذلك عادت مسرعة دون أن تنهى جولتها كالعتاد وعندما سمعت حديثه مع ابنته كأن صاعقة نزلت عليها فأخذت أنفاسها وراحت تنظر إليهما كما تنظر اللبوة إلى فريستها ولم تلبث حتى استجمعت حنقها وغيظها وانقضت عليه في انفعال ثائر وغيره جنونية تسب وتلعن الأيام التي جمعت شبابها بكهل مثله . . . وريع الزوج كأنه اقترف إثماً شنيعاً واختفت الابنة من أمامها في ذعر تاركة إياها تصب عليها حام غضبها لانتهاز فرصة تغيبها واصطناع الحب لأبيها وهي تمنى أن يموت حالاً لترثه ولم تهدأ إلا بعد أن استرضاهما الزوج بما عودها ان يسترضيها به وهو مبلغ كبير لشراء لوازم لها . . . واصطنعت التسامح على شريطة ألا يعود لمثل هذا التصرف الذي تعتبره شائناً ولا يابق به لتهمة إياه بمغازلة ابنته وهذا شأن من أصيب بحس من الشذوذ . . . على أن ترضيتها لم تشفيها عن غيرها من الابنة متهمة زوجها بالخيل مفسرة كل نظرة تقع منه على ابنته أو ابتسامة تفسيراً لا ينتمى إلى الفضيلة بصلاة كأنه أصيب بالشذوذ وعيل صبر الزوج وثارت كرامته وفاض احتمال له فاعتزم أن يطلقها وأدركت الزوجة بدهائها أنه بدأ يتجنبها ويأبى كلما حدث بينهما . . . مشادة إنه لم يعد يحتمل دكتاتوريتها وفسرت تصرفاته معها بتأثير ابنته عليه وقد يطلقها تحت تأثير أخته التي لا تترتاح إليها وهو حريص على مرضاة أخته دائماً ووجدت نفسها تواجه مؤامرة يتحتم أن تتغلب عليها في الخفاء والدهاء وراحت تحوطه برعاية فائقة مع أسفها الشديد عما بدر منها بسبب غيرها عليه لفرط حبها

له بجانب حبها لابنته وحرصها على سعادتها مسممة تفكيره بالشك في ابنته بأسلوب لا يدعو للشك فيما نقول . . فتقول له أحياناً . . ابن الحيران يغازل ابنتك ومعه الحق لأنها حلوة وهي بريئة وأخشى أن تصدقه . . . ومرة أخرى تقول . . . لقد تعقب ابنتك في الطريق شاب حتى باب العمارة ولو أنها لم تلتفت إليه لكن الحيران بدأوا يتفوهون بما هي بريئة منه معقبة . . البنت كبرت ودأباً جمال البنت يعرضها للإشاعات ربنا يرزقها بابن الحلال . . وإمعاناً في اقترافها تتكلف حب ابنته والخوف عليها وعلى سمعته ولم يحاول الأب أن يراقب ابنته ليتأكد من صحة أقوال زوجته إذ كثرة خروج ابنته برر صحة أقوال الزوجة ولا يدري أن الزوجة هي التي تدفعها للخروج دائماً . . . ولما وجدت الزوجة أن هذه السياسة غير مجدية إذ لا يمكن للوالد أن يطرد ابنته لتعيش مع عمته كما كانت تأمل . . . سلكت طريقاً آخر للتخلص من الإبنه لأن والدها رغم سلاسة خلقه وخضوعه لها يخشى مغبة كلام الناس إذا تخلى عن ابنته وأخيراً وجدت أنه لا مناص من التخلص منها إلا بزواجها واختمرت هذه الفكرة في ذهنها ولم يعد يشغلها غير تنفيذها بأي وسيلة مهما كلفها الأمر ومساعدتها على تنفيذ ذلك قريب فقير كان يحضر لها الطيور والزبد والحب من الريف ولم تشأ أن يظهر أمام زوجها بمظهر الفقير المعدم فاشتريت له زياً يليق بالرجل الريفى الثرى وكانت تنقده ثمن ما يحضره سرّاً وتشعر زوجها بأن كل ما يحضره هدية منه دون مقابل مما اضطر الزوج إلى تكريمه واستضافته كلما حضر وبعد أن تأكدت من توثيق العلاقة بين الزوج والقريب أبدت رغبتها لزواجها أنها تستطيع أن تقنع قريبها بالزواج من مسرة . . رغم إعراضه عن زواج بنات المدن وتكاليف الأسر الكبيرة عليه ليتزوج فتاه من أى أسرة عريقة ودون تردد وافق الوالد واصطنعت دور الوسيط بين الزوج والرجل في الوقت التي كانت تتفق سرّاً مع الرجل على تنفيذ الخطة التي رسمتها واشترت على حسابها الخاص شبكة تليق بمقام

الوالد من الأموال التي كانت تسحبها منه لشراء لوازمها الخاصة وإمعاناً في تحقيق رغبتها أسرت إلى زوجها إلا يخبر ابنته إلا يوم عقد القران خشية أن تكون على علاقة مع الشاب الذي يوصلها كلما خرجت إلى المنزل كما يقول الجيران فيفسد عليها هذا الزواج ويستجيب الوالد لرغبتها ظناً منه أن في ذلك سعادة ابنته ولم تدر الزوجة أن الخادم ترمى إلى مسمعها الحديث الذي جرى بينها وبين قريبها وعرفت من سياق الحديث كل ما جرى بين الزوجة والقريب لتنفيذ هذا الزواج لكي تتخلص من الابنة وما يعود عليه من مال وفير بسبب هذا الزواج وكانت تحب — مسرة — وتعطف عليها لسوء معاملة الزوجة لها فنقلت إليها الحديث راجية ألا تخبر أى أحد بذلك وعليها أن تحتاط . . . وكتمت مسرة الأمر ريثما تحين الفرصة للتصرف بما يقتضى صيانة نفسها من مؤامرة الزوجة الوضيعة :

على حافة الصراع

فاجأ الوالد ابنته صبيحة يوم تنم أسارير وجهه عن اغتباط لاحد له
وسرور يمتزج بلهجته وهو يطلب منها الخروج مع زوجته لانتقاء ثوبٍ
بجاهز يليق بعقد قرانها مساء اليوم وتؤخذ مسرة — للمباغته إذ لم تكن
تتصور أن المؤامرة تتم بهذه السرعة وتتجاهل الأمر متسائلة عما يكون
العريس فيخبرها والدها وهو من شدة الفرح يوشك أن يرفعها بيديه من
أعلى الأرض وتلحق به الزوجة مشاركة إياه الفرح ممتدحة العريس في
امبالغة واضحة مؤكدة أنه زوج المستقبل السعيد . . . وترفض مسرة
هذا الزواج في إصرار إذ لا تريد أن تتزوج . . . وتنظر الزوجة لزوجها
بمعنى . . . لا بد أن يكون هناك علاقة بينها وبين الشاب كما يقولون . .
ويضطر الوالد أن يغير لهجته من اللين إلى العنف وتقترح الزوجة
لتخفف من حدة الوالد ترضية لمسرة أن تريحها من الخروج وهي تقوم
بإختيار الثوب المناسب لها وتتصرف دون أن تترك لمسرة فرصة لبدء
أرائها وتحلو مسرة إلى نفسها شاعرة بأنها مسوقة للمشقة وهذا العريس
هو جلادها ولم يسمعها إلا أن تبكي في حرقه ومر بخيالها طيف أنها التي
كانت ترمى بين أحضانها لتجد منها الحماية إذا شعرت بأذى ورفعت
أوجعها إلى الله ملتزمة منه حمايتها من نكايه زوج أبيها ونظرت من النافذة
تدعو الله العون فلاح لها الأفق حزينا كئيبا كأنه يشاظرها الآلام وهفت
عليها نسمات علوية تحسست فيها روح أمها تحنو عليها واستشعرت الطمأنينة
ولم تلبث حتى انتفض الأفق عن ومضات التمتع ثم اختفت قبل أن يردد
إليها طرفها فريعت وعاوردها الحزن والالتياح .

وعادت الزوجة من الخارج تحمل إليها رداء العرس متظاهرة بالفرح
فلما واجهتها مسرة بالأعراض والممانعة اضطرت أن ترفع غشاء الرياء

قائلة لها في عنف هل جننت أن العريس مطمع فتيات أكثر منك جمالا
أو أوفر ثراء احمدي ربك فلولاي لما تقدم إليك وفي غير مبالاة خرجت
مسرة عن صمتها قائلة زوجيه بفتاة ممن يرغب فيهِ ، أما أنا فلا أريده ،
أوعادت الزوجه لاصطناع الملاطفة إذ وجدت أن الشدة لا تجدى ، قائلة
في خبث . . . يا حبيبتي إنها فرصة العمر أدعو الله ألا تغفلت من ايدينا انت
افتاة طيبة عفة لا تعرف حب السوقه غدا تحبينه وتعرفين أى صنيع جميل
فعلته من أجلك وهذه مشيئة الله ورغبة والدك فحذار أن ترفضى والا
اتهمك الناس بما يتنافى مع شرفك وشرف والدك فكونى عند حسن ظنه
إوطننا بك وهدأت الفتاة ملياً لتشعرها بأنها تأثرت بحديثها وقالت بصوت
اخفيض متكسر حزين أعرف أنه يجب ان أطيع والدى ، لكن هذا مستقبلى
أو مصيرى فيجب أن أشترك فيه على الأقل وأرادت أن تتمثل بها
فى الرياء فطوقتها بذراعيها قائلة بنبرة حزينة وقد غمرت الدموع
أوجعها . . . أرجوك ، أعفنى من هذا الزواج ، كوفى صاحبة الفضل
على فى رده دون أن يغضب أبى منى ولك من التأثير عليه ما يكفل لك هذا
الحق وتكلفت الزوجة التأثير بها فقالت بصوت رقيق ناعم سأحاول أن
أقنع والدك فان نجحت المحاولة كان بها . . . لأن هذه رغبته وإن لم تنجح
فلا بد من طاعته وتركها وهى تقول على مسمع منها لتشعرها بالعطف
عليها الخير فيما يريده الله . . . ويشمل البيت سكون رهيب إذ تخلو به
الزوجة بزوجه دون أن تشعر الابنة لتسر إليه بما افضت به مسرة من
أحدث محاولة أن تكيفه بالاسلوب الذى يثير تصميم الوالد على الزواج ،
بينما خلت مسرة بنفسها تشاورها هواجس شتى مستعيدة بذكرياتها
أكل ما كتبه الكتاب وأذيع فى المدياع والشاشة من آراء تحتم ضرورة تعليم
المرأة آسفة على خضوعها لمشيئة والدها الذى حتم عليها عدم إتمام دراستها
بدعوى أنها ليست فى حاجة إلى المزيد من المال الذى تحصل عليه من
مرتب الوظيفة ويجب ألا تتعدى حدود عملها كأنثى وربة بيت ورغم

أنها تغلبت على هذا الحرمان بالاطلاع على الكتب والمجلات التي تتمكن من شرائها بمصروفها الخاص الذي يمنحها إياها والدها خلسة مستعينة بصديقة كانت زميلة لها في التعليم الابتدائي وهي الآن طالبة جامعية ولكن الصداقة بينهما أخذت تنمو مع الزمن في صدق وصفاء أتاح لمسرة فرصة الاستعانة بها لفهم ما يصعب عليها تفهمه حتى غدت بفضل تلك الصديقة مع اطلاعها الوفير ذات تفكير خصب مع إدراك واعى ومعرفة تامة لمفاهيم المجتمع الاشتراكي الحديث وتطور العصر .

وحان وقت عقد القران وفشلت محاولاتها للتأثير على والدها وزوجته واضطر الوالد أن يعاملها دون رحمة متهما إياها بقلة الأدب والفجور وفجأة حمل البرق برقية إلى الوالد يخطر به العريس بأنه مضطر لتأجيل عقد القران لوفاة والدته فجأة . . . وتألم الوالد والزوجة . . . وحمدت مسرة ربها الذي وقف بجانبها في آخر لحظة موقنة بأن الله لن يتخلى عنها . . . وخلت بنفسها وقصد انمحي من ذهنها أخيلة الآمال الحسان التي تطوف بذهن كل عذراء في سن المراهقة وخبا نور الأمل الذي كانت تتطلع إليه في كنف زوج حبيب طالما مرّ بأفق أحلامها يلوح لها بعصاه السحرية لترى معه ما وراء عوالم الحب التي لم تحظ برؤياها في عالم الأسرة التي تعيش فيها . . . ولطالما عاشت مع هذا الحلم الجميل وطافت معه آفاقاً لم تخطر ببالها من قبل وتنسمت معه عبير الحب الغامر يضمها القدر الباسم في برد السعادة المنشودة يغمرها الحنان الدافئ فتنسى معه ما مر من أيام التكبد والشقاء ولم تعد تذكر بجوار زوجها الحبيب غير حاضرها ، بما فيه من متعة وهناء ، كانت تحلم بذلك وتتصور وقوعه في أي لحظة أما وقد تلاشى الحلم بما فيه من أمانى مرتقبة أمامها غير الخضوع لمشيئة الله الذي لا راد لقضائه على أن الله وحده قادر على أن ينجيها من الكمين الذي أعدته لها الزوجة لتقضى عليها وصعب عليها أن تتزوج برجل كانت تنأى عنه دون أن تشعر بأنه شريك الزوجة في المؤامرة . . . إن رؤياه كانت تثير الاشتمزاز في نفسها وتنفر منه إذا حاول أن

يتقرب إليها وهو في نظرها أقل من الحيوان قيمة : : : إنها تألف
كلها الذي اتخذته من دون أهل البيت أليفاً ، تبثه آلامها وتسمعه أناتها
وتكاشفه خفايا وجدانها البكر الحزين وتطلعه على دموعها المسكوبة
التي تنزل على وجهه أحياناً عندما يدنو منها ويرفع وجهه إلى وجهها كأنه
يسألها بغير صوت ، ماذا بك ؟ وينظر إليها وقد التمتعت عيناه ببريق لو
بدا في عيني إنسان لقليل أنه أصدق محب عرفه التاريخ فإذا مرضت وامتنعت
عن الطعام لزم الركود عند مؤخر مضجعها تحت قدميها ممتنعاً بدوره عن
الطعام لا يفارق نظره وجهها ليل نهار كأنه يتابع صحتها إن تحسنت أو
لم تنزل في حالة إعياء ، أليس هذا الوفاء وتلك الأمانة خلاصة ما يتمناه
الإنسان ويرجوه ممن يرتبط به أو يهواه ، لقد تعلمت من الكلب الصبر
وتمنت لو يتعلم السارق منه الأمانة فلطالما أهملت زوجة أبيها إطعامه أثناء
خروجها فلا يحاول أن يسرق الخبز الموجود على مقربة منه أو يبادلها
الإيذاء إذا اعتدت عليه وضربته عندما يحضر قريبها الريفي وينبح منها أهل
البيت في وقت لا تريد أن تنبه أحد لمقدمه . . إنها تريد أن ترتبط بإنسان
له صفات الكلب ويمر بخاطرهما ذكرى المشادة التي قامت بينها وبين زوجة
أبيها بسبب هذا الكلب فقد لاحظت الزوجة أن - مسرة - تولى الكلب
اهتماماً فتعنى بطعامه واستحمامه في الوقت الذي تهمل فيه ما تكلفها به من
مهام البيت وقد كانت تعمد مسرة أحياناً عدم القيام بكل ما تكلفها به
لأنها تنكر عليها الجهد الذي تبذله وتشعر الوالد دائماً بأنها بمعاونة الخادم
وحدها تقوم بكل شؤون البيت غير معتمدة على ابنته الكسول وبلغت
كراهية الزوجة للكلب إلى حد دفعها إلى تكليف الخادم سرراً برميهِ بعيداً
عن المنزل . . . واستجاب الخادم وثرکه في مكان ما ولكنه عاد ولاذ
بمسرة كأنه يستنجد بها واشتد غيظ الزوجة كأن بين الكلب ومسرة صلة
يجب أن تقسم فأوعزت للخادم أن يذهب به إلى مكان نائي وهددتها بالطرد
إن عاد ونفذت الخادم رغبته على مضض وشعرت مسرة بخلو البيت منه

أو على الأصح بالفراخ الذي كان يملأه بالنسبة إليها فسألت عنه فقالت الزوجة ربما خرج إلى الشارع واصطادته غربة الكلاب وحمدت الله على الخلاص منه ولم تدر بعد ساعات أن الكلب قد عاد وغافل الزوجة كأنه الص يتسلل خفية واختفى تحت سرير مسرة دون أن يبدي حركة أو يرفع صوتاً كأنه يريد أن يعيش بجوار مسرة وحسب وشعرت الزوجة بحركة غيرألوفة في غرفة مسرة ... أثناء مرورها من أمامها وكان يتناول الطعام الذي قدمته إليه مسرة خلصة وظنت أن عشيقاً لمسرة تسلل خلسة في الليل فدخلت بدعوى البحث عن رباط رأسها الحريري إذ قد تكون الخادم خبأته في هذه الغرفة ولم يكده نظرها يقع على الكلب حتى صعدت فكأن عقرباً لدغها وقامت مشادة بين مسرة وبينها إذ اتهمتها بأنها تعالدها وهددت بترك المنزل إذا بقي الكلب بحجة أنه نجس وبلعق في الأطباق واستندت إلى أحاديث ترامت إليها ومنها أن الملائكة لا تحل بمكان يحل فيه الكلب ورغم إيمان الزوج وتأدية الصلاة في أوقاتها فقد خالف زوجته لأول مرة لأنه كان هو أيضاً يحب الكلب ويأنس إليه إذا تجنبت زوجته كما أنه عزيز عليه لأن صديقاً عزيزاً استودعه إياه عندما ذهب لميادته في آخر أيام حياته فأهداه إياه وأوصاه به خيراً وكان هذا الرجل مولعاً بالكلاب يعيش لها لاعتقاده أنها أوفى من الإنسان وبلغ من حبه لها أن أوقف ثروته على العناية بها قانعاً توثس بها وحشته مضرباً عن الزواج وقد سأله أحد المدعويين في حفل أقامه بقصره العظيم في كوبري القبة لماذا لم تتزوج ولا يتقصاك أي شيء سوى أطفال يملأون القصر بهجة وأنساً . . . فأجاب أن أنثى الكلب تلد تحت إشراف الطبيب وأظل بجوارها أرحامها ولا أحتمل أنينها فإبالي لو كانت زوجتي هي التي تلد . . . ومرض الرجل مرضاً خطيراً نضر منه الأصدقاء ولم يجد حوله غير الكلاب وخادمه العجوز الخاص ولما اشتد به المرض استدعى لفيفاً من الأطباء ليعرف آخر ما وصل إليه الطب وجمعوا رأيهم على ضرورة سفره إلى الخارج وقبل انصرافهم اختلى بهم قريب له وهو قريب له وهو وريثه ليعرف

آخر رأى . . . فقيل له الأعمار بيد الله فقد يعيش بالمرض أعواماً طويلاً وعلى أثر انصراف الأطباء استدعى القريب بعض رفاق له وتحدث إليهم خلسة بعيداً عن المريض والخادم وفي منتصف الليل بعد أن نام الخادم الخاص للمريض وانصرف الطاهي والبستاني حاول القريب ورفاقه اقتحام غرفة المريض ولكن قبل اقتحامها انقض كل كلب على ساق رجل وألقاه على الأرض كأن الكلاب كانت عليمه بما سيحدث فتوالت دون أن تنبج ريثما تقضى على الحناء . . . وتعالى أصوات الرجال مستغيثة وهرع الخادم ليخبر السيد بأن لصوصاً كانوا يحاولون إقتحام غرفته وعبثاً حاول الرجال التخلص من أنياب الكلاب إلا بعد مجيء بوليس النجدة وخاف المريض أن تتعرض الكلاب للأذى فانتفض كالملسوع وقام يجرى ليخلص الرجال من الكلام في الوقت الذي حضر فيه بوليس النجدة وذهل القريب كيف تحرك المريض بعد أن مضى عشرة أعوام مشلولاً واشتد ذهول من حوله عندما تكلم بعد أن فقد النطق طوال هذه السنين . . .

نادى الكلاب كل باسمه فهرعوا إليه يعانقونه بأيديهم ويتلمسون يديه ورجليه كأنهم يقبلونه على طريقتهم يهزون ذبولهم ويرفعون أصواتهم بنغم الزغاريد وثبت من التحقيق أن الحناء أجرهم القريب لا غتيالها .

ولما عاده الطبيب لينصحه بضرورة السفر إلى الخارج لعلاجيه وقف مشدوهاً عندما استقبله واقفاً مرحباً . . . وحدثت المعجزة . . . بأمر الله وتناقل الأطباء هذا الحديث وقرر الطبيب النفساني أن المريض كان يعيش تحت سيطرة اليأس والقنوط فلما اصطدم بالخوف على الكلاب تحركت الأعصاب الميتة وجرى فيها شريان الحياة إن كثيراً ما تكون الأمراض وليدة الوهم حبيسة المحال الوهمي ، وازدادت عاطفة الرجل نحو الكلاب إلى حد أوصى لها بنصف تركته بعد مماته لتظل في مأمن بعيداً عن التشرذم في الطرقات ومنعاً من المجاعة القتالة وعلم وريثه بهذه الوصية من حديث الخادم الساذج

الذى يثرثر دون أن يعمد إلى الإساءة لسيده فغافل القريب السيد والخدام ووضع السم في طعام الكلاب خلصة وفي الصباح دخل الخدام ليقدم الطعام كعادته للكلاب في الحجرة التي خصصت لهم ولشد ما هاله أن يراها جثثاً هامدة وصرخ الخادم وهو يعدو كأنجنون لينقل النبأ إلى سيده الذى استمع إليه ولم يتكلم فقد أخرسته الصدمة وأصيب نصفه الأيسر بالشلل وسرعان ما طلب محاميه فلما جاءه كلفه باجراء اللازم سريعاً لتسجيل تركته باسم جمعية الرفق بالحيوان غير مبلغ خصصه لرعاية الكلب الذى نجا من الموت حيث كان الكلب مختبئاً تحت سريره في هذه الليلة دون أن يدري وكأن الله أراد له الحياة فلما علم والد مسرة بعودة المرض إلى صديقه ذهب لعيادته وخاف المريض أن يموت فجأة فأوصاه أن يأخذ الكلب بعد وفاته وبعد أيام قلائل فوجيء والد مسرة بخادم الصديق يحمل إليه الكلب مع رسالة أوصى فيها بمبلغ شهرى من إيراده لرعاية الكلب وأبى والد مسرة أن يكون أقل عطفاً على الحيوان من صديقه فتنازل عن المبلغ لجمعية الرفق بالحيوان باسم صديقه الراحل ورغم معرفة الزوجة بما جرى فان الرحمة لم تتغلب على كراهيتها للكلاب .

مسرة بين أمواج الدوامة

كلفت الزوجة الخادم بإخراج ملابس خروجه من صيوانها لكي تستبدل ملابسها في غرفة أخرى لكيلا يراها زوجها وهي تريد أن تخرج وتعود قبل أن يغادر فراشه وبينما كانت الخادم تبحث في الصيوان عن الملابس التي أشارت إليها الزوجة وقعت ورقة على الأرض .

وغادرت الزوجة البيت دون أن تشعر بها مسرة أيضاً ودق جرس التليفون فاضطرت - مسرة - أن تجيب لخلو الردهة إلا أنها وكان لا بد أن توقف والدها ليخاطب محاميه في هذا الوقت دخلت الخادم لتضع ملابس الزوجة على المشجب ووقع نظرها على الورقة التي دفعها الهواء إلى القرب من سرير الزوج فتناولتها الخادم وقدمتها إليه قائلة : هذه الورقة وقعت منك يا سيدى .. فأخذها وناولها لمسرة قائلاً : اقرئها يا ابنتى فقد تكون هامة... فلما قرأتها امتقع وجهها واضطربت وقالت في تلعث لا... إنها ليست خاصة بك... لقد وقعت من كتاب كنت أطلع فيه حيث أدون كماداتي أهم النقاط التي تروقني أثناء القراءة فضحك الوالد وعقب لشدة ما أندم الآن على عدم دراستك يا ابنتى... لو أتممتها لأرحمت نفسك وأرحمتي مما تعانيه اليوم فقاطعت لهون عليه... هذا نصيبي والخير فيما يريد الله... فربت على خدها في حنان قائلاً : سوف تكوني أمّاً مثالية وزوجة صالحة بإذن الله... وأدنى وجهها بيديه ليقبلها فذعر قائلاً... إن جبينك كالثلج وسحب يدها مردفاً وكذلك يديك... أشعرين بتوعلك... قالت وهي تغالب انفعالها الداخلى :... أبداً... أبداً قال بحنان اذهبي إلى فراشك وسأدعو الطبيب ليراك ، فقاومت ما تشعر به قائلة : أنا بخير فاطمئن وتكلفتم بسمه مردفة... من شدة الحر تناولت بعض قطع الثلج ومسحت وجهي ويدي فاسترد الوالد هدوءه وقال : لقد أزعجتني... حمداً لله قالت بصوت تم نبراته عن ألم

دفين .. أتجننى يا أبى ... قال كل الحب يا حبيبتى وهل لى فى الحياة
سواك .. قالت ... إذن لما اذا تزوجنى وتحرمنى من رؤياك كل يوم بل
كل ساعة وأنت عزائى الوحيد فى الحياة : قال بليهجة الحنان الصر ف من
فرط حبى أريد أن أزوجهك اليوم قبل الغد ليطمئن قلبى على مصيرك وهنا
صمت إذ سمع وقع أقدام زوجته بينما خرجت مسرة من الباب الموصل لدورة
المياه لكيلا تراهوا اختفت ودخلت الزوجة بملابس البيت وكأنها لم تغادره
وكانت مسرة أخبرت والدها أنها تستحم عندما سأل عنها وراحت الزوجة
تهدهده وتناغيه كأنه طفل صغير لكي يصحو وكان عهد إلى التناوم قبل
أن تلدنو منه .

وخلت — مسرة — بنفسها لتطالع الورقة فى إمعان ثم خبأتها فى صدرها
موقنة بأنها مقبلة على مأساة كبرى وكادت تفقد مقاومة سر إخفاء الورقة
شاعرة بانها يوشك أن يفقدها صوابها وصح عزمها على الانتحار ثم
اعتزمت أن تترك لو والدها رسالة قبل أن تنتحر لتفضى إليه بما وراء زواجها .
وكانت تعلم من قبل كما أخبرتها الخادم أن الزوج الذى تقدم إليها قريب
الزوجة من أجل ثروة والدها ولكن هذه الورقة كشفت سراً أفضح من هذا
المأرب وكتبت الرسالة وفكرت فيمن نأتمنه على توصيلها لأبيها
وأخير لم تجد من تطمئن إليه غير صديقتها رفيقة طفولتها واستدعتها عن طريق
خادمتها . سرأ وبعد أن أطلعها على الرسالة وصارحتها بما انتوت عليه راجية
منها أن تسلم لو والدها الرسالة بعد انتحارها لكي تخلص من حياتها وما تعالیه
من زوجة أبيها وما سوف ينجم من زواجها الذى يصر والدها عليه ولزمت
الصديقة الصمت ريثما تخرج كل ما فى جعبتها فلما سكنت لتجفف دموعها
المنهارة قالت الصديقة بصوت العقل الناضج الرزين : إن الانتحار لا يخلصك
من حياتك على صررة كريمة شريفة كما تتوقعين . بل بالعكس سوف يربطك
بالحياة على صورة بشعة مخزية تتنافى مع كرامتك وشرفك وسمعة والدك

وشرفه وسيكون وسيلة ناجحة لترويج الإشاعات التي تخلقها زوجة أبيك
لتبرئ نفسها بأى وسيلة وقد تقضى هذه الفضيحة على والدك فيموت فى
الحال وهذه أمنيته لتعطى بثروته كما يتطاول شرر الفضيحة إلى جميع أفراد
أسرتك فى كل بلد ولن يحاول أى إنسان حتى الذين يعطفون عليك الآن
ويتلمسون لك المماذير إذا وقفت من زوجة أبيك موقفاً عدائياً سوف يدافعون
عنها ويبدون فى نظارهم أنها كانت على حق وبعد أن تحدثنا طويلاً فى هذا الشأن
وأحجمت مسرة عن تنفيذ الانتحار نصحتها الصديقة بأن تلجأ إلى عمها
وتصارحها بالأمر ويقيناً ستقف العمة بجانبها وتدبر الأمر بحكمة
وتعقب لقد أخطأ والدك فى الزواج بامرأة لم تزل تعيش فى غمرة أحاسيس
الشباب المقهور وما هى النتيجة لتلك المأساة المروعة وتقاطعها مسرة لقد
أدركت من هذه التجربة الماثلة أمام عيني والتي أعيش فى دنياها أن الرجل
إذا تقدم به السن يكون كالطفل البريء يقع تحت التأثير النسوى دون مقاومة
وخصوصاً إذا كان الشيطان تقمص قلبها ولا تعرف الله ولكى تضع الصديقة
حداً لهذا الحديث الذى لم يعد يجدى قاطعتها أنت الملوثة والحانية على نفسك
وعلى أبيك فلولاك لما تزوجها وهنا تنهدت مسرة — فى تحسر وندم معقبة —
حقاً . . لقد عرفت كيف تجذبني ولجھلى بأساليب النفاق والحب المصطنع
صدقها وأحببتها وأثرت على والدى وعادت الصديقة تقول . . على كل حال . .
الزواج قسمة ونصيب وعادت مسرة تقول : إذن على رأيك سأذهب إلى
عمتى لتصرف وعقبت الصديقة . وأعتقد أنها ستعالج الموقف فهى سيدة
محنكة عاقلة . . هيا اذهبي فوراً وانتحلى أى عذر لوالدك يبرر ذهابك إليها
وأبى والدها أن تخرج إلا بمرافقة زوجته وكانت الزوجة على موعد تليفونى
فى هذه الساعة فاعتذرت بدعوى أنها منحرفة وأشعرت مسرة بأنها تتكلف
ذلك لتترك لها حرية الخروج وعندما تصل مسرة إلى عمها وتحلو بها تفضى
إليها بما كتتمته عنها طوال مدة زواج والدها خشية أن تلوم والدها فيزداد
حنقاً وغضباً . . ولطغت العمة من حدة آلامها بخنائها الوفير موهمة إياها

بأنه يتحتم على أبيها أن يعامل زوجته بالرفق واللين لكيلا يزيد من غيرتها محاولة إذابة ما عاق بذهنها من أوهام مؤكدة لها أنه لا يمكن مطلقاً أن يحب والدها زوجة أكثر منها لكنه مضطر أن يتظاهر بذلك تحت تأثير قوة طبيعية ترغمه على الخضوع لزوجته وهذه القوة تشتد وتطغى عند بعض الرجال وتضعف وتخور عند البعض وقد تعادل وتزن عند البعض وما يحدث عند الرجال يحدث عند النساء فأحياناً تترك الأرملة أو الزوجة أولادها وهم في أشد الحاجة إلى رعايتها وحنانها من أجل رجل تتعلق به وتتزوج به وقد يكون دونها سناً وحسباً وجاهاً . . . وتبتسم العممة في وقاره مردفة . . . هذا بحث طويل عميق يا ابنتي غداً بعد أن تتزوجى وينضج عقلك وتكتسب تلك القوة عندك تدركين كل شيء وهنا تجد — مسرة أنه لا مناص من مصارحة العممة بما كتب في الرسالة وتصعق العممة ولكنها تماسك نفسها وتغالب انفعالها وتهديء من روع مسرة — بعد أن توصيها بتجاهل هذه الرسالة وتترك لها الأمر وسوف تتصرف تصرفاً يحفظ لأخيها شرفه ولها كرامتها وسعادتها المقبلة . . . وتمازجت العممة وكلفت الخادم أن تتصل بشقيقها ليحضر إليها حالاً لأنها مريضة جداً وإذا سألها عن مسرة تخبره بأن عممتها سبق أن كلفتها في التليفون بشراء بعض الأشياء لها أثناء مجيئها وعلى أثر مكالمة الخادم ريع الأخ لشدة تعلقه بأخته وعرض على زوجته مرافقته فرفضت متعللة بالانحراف إذ كانت في الواقع تكره العممة كما تكره زيارة المرضى خوفاً من العدوى وذهب الأخ وحده فوجد أخته طريحة في الفراش كأنها في النزاع الأخير وهاله مرآها على هذه الصورة واتجه نحو التليفون ليطلب الطبيب ولكن أخته أشارت إليه بالأفعال وبصوت خفيض متقطع الأنفاس قالت : أدنو مني إذ عندي ما أقوله لك . . . وبصوت أكثر خفوتاً بحيث لا يسمعه إلاه قالت : البارحة زارتنى صديقة لى وأخبرتني أن زوجتك على علاقة مع زوج أختها وأنها اكتشفت ذلك عندما زارت الأخت وهي صديقتها فجأة وفوجئت برؤية زوجتك مع زوج الأخت ورغم أنها اصطنعت المحبىء في التو لتسأل عن

الأخت . . فان الخادم لحقت بالصديقة في الشارع وأخبرتها أن ربة البيت غادرت منذ أسابيع على أثر شجار مع زوجها وزوجتك تعلم بذلك وهي تتردد على الزوج يومياً وتقضى معه بعض ساعات أثناء تغيب الخادم الذي يرسلها لقضاء بعض المهام عن عمد في هذه الفترة . . ويحاول الزوج أن يدافع عن زوجته مؤكداً أن صديقتها ولا شك أنها تكيد لزوجته لأمر ما وإزاء إصراره على تكذيب ذلك تخرج الرسالة التي قدمتها إليها مسرة قائلة له : إن المكوجي عثر على هذه الرسالة وقد سلمها إلى عند مجيء إليك منذ أيام على أمل أن أسلمها لزوجتك إذ كانت في جيب المعطف الخاص بها . . وقد ناولني إياها وأنا أطرق بابك وهنا تدخل مسرة كأنها جاءت في التو وكان الوالد قرأها وأوشك أن يفقد صوابه لولا أنه تكلف الهدوء وهو يسألها أين كانت فتقول له إن عمها كانت كلفتها بشراء قماش لرداء النوم ويصدق الوالد عندما يجد معها فعلاً قطعة قماش جديدة أخذتها من صيوان العمة حسب توجيهها وتصطنع العمة إبعاد - مسرة - عنهما ريثما ينتهي حديثها فتكلفها بعمل شاي لوالدها لأن عمل الخادم لا يعجبه وتستأنف العمة حديثها بعد خروج - مسرة - من الغرفة قائلة : لا تخبر ابنتك بهذه الكارثة وعليك أن تعالج الموقف بحكمة ولباقة وترفض الرجل الذي تقدم لابنتك مادامت تريد أن تزوجها ليخلو لها الجو من ناحية ولكي تستغل زوج ابنتك الأبله لاستغلال ثروتك من أجل عشيقها . . . ويصعب على الأخ مقاومة انفعاله فيغيب في مهب الصدمة ولا يتنبه إلا على صوت ابنته وهي تقدم إليه الشاي وفي هذا الوقت تطلبه زوجته في التليفون لتطمئن على الأخت ولكي تتعجل زوجها وإن كانت في الواقع تريد أن تعرف إذا كان بقاؤه سيطول لتتصرف كما يخلو لها فتخبرها مسرة - حسب تعليمات والدها - إن حالتها تحسنت بعد أن أعطها الطبيب حقنة ردت إليها وعيها ويخامر الزوجة الشك وتراودها الظنون وتحسب أن مسرة ذهبت إلى عمها لتؤثر على والدها كي يرفض الزوج فتسرع إليه ، ويفاجأ الزوج بها وعندما تسمع

أخته صوتها تنصح الأخ أن يلتزم التجاهل خشية الفضيحة وتقبل — نازك —
على الأخت متكلفة التأثير والهلل لانحرافها وعندما تسألها كيف حالك الآن ؟
تقول الأخت كنت على وشك الموت والحمد لله لقد خففت حمنة الطبيب
ما بي ويشملهم جميعاً سكون رهيب كل يفكر فيما يشغله وتضييق الزوجة
بهذا الجوال الخائق فتقول لزوجها لقد كان ميعاد تناول دواء المساء هل أذهب
واحضره إليك إذا كان في نيتك المبيت هنا فيقف الزوج كأن عقرباً لدغته
قائلاً . . . لا . . . لم تعد أختي في حاجة إلى وتعقب الأخت دع مسرة
بجواري . . . وينصرف الزوج والله وحده يعلم ما في نفسه وترك ذراعه للزوجة
التي تأبطته وبوده أن ينزعه ويقذفها بعيداً في عرض الشارع ولكنه غاب في
دنياه من هواجس يعلوها ضباب من خواطر السوء وضل تفكيره ولم يعد يدري
أيكاشفها بجرمتها أو يترث حتى يضبطها وكان بطبيعته حكيماً رزيناً فقاوم
إنفعاله على أمل أن يزور أخته مرة أخرى ليتشاورا فيما يجب أن يفعله فقد
هديه بحكمتها إلى الصواب وفي اليوم التالي احتج لزوجته بأنه على موعد
مع محاميه لإنهاء مشاكل خلو الرجل دون مقاضاة واحتراماً للقوانين
الاشتراكية ويذهب لأخته وبعد أن يخلو إليها يستأنفا الحديث الذي انقطع
عند مجيء زوجته وتنصحها الأخت أن يفتح صيوانها أثناء غيابها كأنه
يفتش عن أوراق افتقدها قد تكون وجدتتها واحتفظت بها ريثما يطلبها
ثم يخبرها بأنه عثر على هذه الرسالة ويقف حيالها موقف الزوج الحريص
على شرفه في هذا الوقت تكون الخادم تسالت خفية لتسرق السمع كي
تنقله إلى زوجته التي كلفتها بنقل كل ما يدور من أحاديث من مسرة والعمة
والزوج وأخته كلما جاءها مقابل مكافأة مالية مغرية وأعطتها مبلغاً يشجع على
هذا التصرف المشين واستطاعت الخادم أن تنقل إليها ماجرى . . . وتبحث
نازك على الرسالة في الصيوان فلا تجدها فتدرك ما غاب عنها وتوقن أن
مسرة وعمتها تأمرتا عليها بعد أن سرقت مسرة الرسالة واعتزمت أن ترد
اللطمة بالطمحة أشد منها وقعاً فازمت فراشها متمازضة قبل أن يعود فلما دخل

عليها اصطنع الهدوء وهو يسألها عما بها بصوت مزعج كاد يرده عنها بعيداً
إبادرته قائلة بصوت أجادت تنغمه بالأسى واللوعة .. لم أشأ أن أترك بيتك
لغير رجعة لكيلا تهمني بأنني أخذت كل شيء معي .. لكن خذ كل
ما منحتني إياه وتخلع الحللى من يدها وأصابعها وأذنيها ومعصمها وترميها في
وجهه ثم تحضر ما تحتفظ به في صيوانها وتضعه أيضاً بين يديه قائلة ..
إلا أريد أى شيء حسبي أن أخرج بكرامتي وشرفي قبل أن تلوثها ابنتك في
الوحد ما ذنبي أنا .. هل هذا جزاء من انتشلت شرفك وسمعتك من الوحد
أوذهل الزوج وارتبك ولم يدر ماذا يقول وظل صامتاً واجماً وهي تبكى في
نشيح وقاوم الزوج انفعاله واقترب منها متسائلاً ماذا حدث ؟ قالت وهي
تصطنع مقاومة صدمة زلزلت جنباتها .! .! لقد استغفلتني ابنتك كانت
تستكتبني رسائل لصديقة لها لأن إصبعها كان مجروحاً وأخيراً علمت أن هذه
الرسائل كانت ترسلها لعشيقتها .. تصور بنت تبلغ بها الوقاحة إلى هذا الحد ..
وزاغ بصر الزوج وبصوت يوشك أن يذوب في حلقة قال : لم أفهم ماذا
تعنى انتظري لحظة وقام بتنفيذ الخطة التي اتفق عليها مع أخته وعرض
عليها الرسالة متسائلاً .. أخيراً اكتشفت خيانتك — !! فقالت بصوت
مرتعش النبرات .. يا لبراعة ابنتك في الإيقاع بيني وبينك لقد وضعت هذه الرسالة
في دولابي إمعاناً في النكاية في الوقت الذي أكدت لي فيه أنك خرجت اليوم
اللتفق مع محاميك على حرمانى من تركتك بعد وفاتك على أن تكون التركة
كاملها لها وحدها .. واصطنعت الزوجة الضحك في هستيريا وهي تقول ..
أو لم أقل لك من قبل أن ابنتك استغفلتني وتحاول أن تفرق بيننا ليخلو لها الحو
لمع عشيقها ولن أدفع عن نفسي وسوف أثبت لك الدليل واتصلت بالتليفون
المخاطبة فتاة قائلة : احضرى حالا لأن مسرة تريدك لأمر هام إركى تاكسى
على حسابها ثم تكلفت الترفق قائلة استرح قليلاً واهداً ثم أمرت الخادم بعمل
الشاي له وجلس الزوج وقد أخفى وجهه بين يديه وغاب عن نفسه بينما
إغافلته وأخذت التليفون في غرفة أخرى وخاطبت الفتاة في حذر بحيث

لا يسمعها أحد ولم تمض لحظات حتى حضرت الفتاة وتعمدت ألا تقابلها بدون زوجها وتبادرها بمجرد دخولها عليها .. لقد خرجت مسرة لشراء دواء الوالدها معذرة . ثم تخاطب الفتاة بلهجة جادة .. مسرة تقول .. إنك أنت التي توسطت بينها وبين الشاب الذي يحبها فتقول الفتاة أبداً هي التي تعرفه أوتقابلة دون علمي .. صحيح كلفتني أكثر من مرة أن أسلمه الرسائل التي أكتبها إليه وهنا يقاطعها الوالد وما صلتك أنت بها لم أرك هنا أبداً

أقتصر الزوجة قائلة كانت تحضر في غيابك وأخبرتني مسرة أنها كانت تلميذة معها في المدرسة الابتدائية وعاد الوالد يقول .. وهل تعرفين الشاب فتضطرب الفتاة وتنظر للزوجة لتستنجدها فتقول الزوجة لقد سمعتها مرة تقول لك .. سيقف على ناصية الشارع وفي جيب الجاكت منديل أحمر ويده جريدة يلوح بها كأنه يطرد الذباب فتقول الفتاة .. صحيح هذا ما كان يحدث .. وتقول الزوجة . لقد قالت لك عند ما حضرت لأول مرة أنني أزوجة أبيها لكن أنا عمته وقد كذبت عليك .. ولقد طلق والدها زوجته فهل علمت .. فتقول الفتاة لم تخبرني بعد ولكنها قالت لي مرة إنها ستعمل المستحيل لكي يطلق والدها زوجته فأين هي الآن لكي أهنئها وأشرب الشربات التي وعدتني فيصفر وجه الوالد ويرتجف قائلاً .. إنها عند عمته وتقول الزوجة عمته الكبيرة أما أنا فعمته الصغيرة وتضحك ساخرة يظهر كانت تريدك لتسلمك رسالة جديدة وهنا يصرخ الوالد .. كفى .. كفى .. أخرجي وحذار أن تتصلي بها بعد اليوم إنك أكبر منها سنأ وبلاغ للنيابة بأنك تخضيتها على الرزيلة يزج بك إلى السجن . . وتصعق البنت وتوشك أن تقول شيئاً وقد بدا عليها الخوف والهلع لكن الزوجة تسرع وتفسح لها الطريق قائلة وهي تفتح لها الباب .. لا ذنب لها الذنب ذنب ابنتك الفاجرة ثم تنفجر كالبركان وقد تطايرت كلماتها كاللهب وهي تقول : أسمعت ؟ هل صدقت أن ابنتك لها علاقة بشاب آخر ومن أجل ذلك تريد أن تفرق بيننا ليخلو لها الجو ولا تدري المجرمة أنني أعمل في سبيل الخير لها، ويطرق الرجل وقد تداعت

قواه وراح في غيبوبة فكرية لا يدري مداها .. أيهما أصدق ؟. الأخت ؟ أم الزوجة ؟ والكل منهما قرائن تثبت صحة الحريّة وتضطنع الزوجة البكاء بحرقه لا تلبث حتى تؤثر فيه فيتمسك بنفسه ويستر بعض وعيه ويترفق بها مقبلاً عليها قائلاً : أنت امرأة ذكية فكيف غاب عنك أن الرسائل لشاب فقالت ، كانت الرسائل تدور حول الشرف وتحديد ميعاد لمكالمتها في التليفون فإذا قلت لها لماذا لا تكلمك في أى وقت تقول قد أكون مشغولة في أعمال البيت ومن حسن حظها أنى لا أسمع محادثة المتكلم ولم يخطر ببال قط أنها فاجرة إلى هذا الحد فقاطعتها ولكن الرسالة تشير إلى أن الجو سيخلو بعد زواج العقرب والآخر على وشك الرحيل لغير رجعة ألم تسألها من هي العقرب ومن هو الآخر وإلى أين يرحل ؟ قالت سألتها فأجابتنى صديقه لصديقتها توقع دائماً بينهما أما الآخر فهو شقيق صديقها الذى يهاجر إلى الخارج لغير رجعة وقد حاول أن يغازلها ولكنها صدمته في عنف فابتعد مضطراً ولم يسع الزوج إلا أن يهز رأسه في حيرة وأطرق ملياً مفكراً ما عساه يفعل بينما قالت وهي تبكى في افتعال حار .. أرايت مدى كراهيتها لى ومحاولتها التفرقة بيننا ولولا هذه الفتاة التى كشفت لى ما كانت تخفيه ابنتك لظلمت عمياء حتى النهاية .. فعاد يقول : وكيف عرفت هذه الفتاة مع أنها لم تتصل بك شخصياً . . فقالت .. اتصلت بها يوماً وكانت بالخارج فركت لى رقم تليفونها لكى تخاطبها وطبعاً لم أشك فعاد يقول وكيف عرفت أن هذه الفتاة وسيطتها قالت . المسألة لا تحتاج إلى فراسة فقد رأيتها مرة عند خروجها وقد وقعت منها الرسالة على الأرض فالتقطتها وهي مضطربة وخرجت مسرعة دون أن تحيى خشية أن أرى الرسالة ولكى تقطع عليه حبل التحقيق قالت منتفضة في ثورة قائلة لن أمكث معك بعد اليوم ، سأخرج حالا يكفى أننى احتملت جرائمها طوال هذه السنين ، لقد كانت تسرق نقودى من صيوانى وأنا أتهم الخادم وأخرج كل خادم بسبب ذلك وهي السارقة لتشتري لعشيقها الهدايا ، وذهبت إلى غرفتها لتجمع ملابسها

أبينما ارتمنى على المقعد متهاككا لا يدري ماذا يقول واستأنفت حديثها ولا شك
أنها كانت تسرقك وانت لا تدري ، ولعلك تهمنى أيضاً إذا اتضح لك
ذلك ووقع الزوج في دوامة هواجس مختلفة عدا اتهام ابنته بالسرقة
وأخرجته من سروحه قائلة وهب أن لى عشيقاً ، لماذا أكتب إليه ، وفي
مقدورى أن أخاطبه تليفونياً في أى وقت شاء وأنا حرة وأستطيع أن أقابله
في الخارج كلما شئت فلا داعى لمراسلته البته ، وشعر الزوج أن دفاعها
هذا وجيها وانه لا يوجد حقاً ما يبرر مراسلته وفي وسعها أن تتصرف كما
تشاء .. وانتبه على صوت وقوعها على الأرض فخيّل إليه أنها أصيبت
بالإغماء فهرع إليها وحملها بمعاونة الخادم إلى فراشها وراح ينهبها بالرفق
مع المنبهات حتى استفاقت وشعرت أن مشاعره تنبت فطوقته بذراعيها
قائلة : كل شيء أحتمله إلا شكك في واضطر أن يلاطفها خشية أن يعاودها
الإغماء واسترضاهما راجياً منها أن تغفر لابنته هفوتها لصغر سنّها وقصور
تفكيرها وضآلة خبرتها بالحياة وسوف يعمل جاهداً على حل هذه المشكلة
وانتهزت الفرصة وطلبت منه أن يزوجه فوراً إذ لا سبيل إلى صيانة
شرفه وشرفها إلا بزواجهما واتفقا على ألا يشير هذا الأمر أمامها كأنه لم
يحدث وأن يحسنا معاملتها لكي تقبل الزواج وهنا استعاد الزوج موقف
ابنته وإصرارها على رفض الرجل الذى قدمته وحمد الله على أن الموقف
مر دون حرج وخشى أن تقف البنت موقفاً لا يشرفه إذا اضطر إلى إرغامها
وهنا سرحت الزوجة ملياً ثم قالت وقد تبادر إلى ذهنها فكرة جديدة . . .
على كل حال الراغبون في الانتساب اليك على مستوى يشرفك وسوف
أختار لها ما يوافقها ويعجبها فاطمئن . . ولا تفتاحها في الزواج الآن واتفقت
معه على تنفيذ ما تشير إليه . . .

محاولة جديدة

بعد أيام ترمى إلى مسامع —مسرة— أصوات الزغاريد وكانت عادت في التوبياء على دعوة والدها بعد أن قضت هذه الفترة عند عمها وعندما فتحت نافذة غرفتها لمحت أقواس الفرح ومصابيح الزينة معلقة أمام البيت وتنبهت على ذراعى والدها يطوقها من الخلف قائلاً . . اعتقد مفاجأة اليوم تثبت لك مدى حبي لك يا حبيبتي وتلدق به عمها حاملة لها جلاباب العرس قائلة . . هذا هديتي إليك لم أشأ أن ترتدى لباس العرس السابق فقد تشاءمين منه وتنظر إليها —مسرة— بعينين دامعتين مرتمية على صدرها باكية قائلة : حتى أنت ياعمى توافقين على أن أتزوج هكذا . . فتهدهدها في حنو أكيد قائلة : إن والدك يحبك وهو لا يرجو في دنياه غير سعادتك وقد وفق إلى عريس آخر يليق بالانتساب إليه وجدير بإسعادك ويحضر المدعوون وتتأهب —مسرة— لا رتداء ملابس العرس بمعاونة صديقتهما ولم تظهر زوجة الأب للإشراف على إعداد المائدة وترتفع الزغاريد معلنة مقدم المأذون وترتجف —مسرة— ويساورها شعور مبهم مخيف غير مريح ويدخل الوالد ليصحبها لمقابلة المأذون لأجراء اللازم وتتوقف قبل أن تتحرك لتسأله من هو العريس ؟ ويقبلها والدها في حنان قائلاً سترى حالاً يا حبيبتي إنه رجل عظيم وجيه ألا تثقين في أبيك ؟ قالت والدموع تغمر وجهها . كل الثقة ولكننا حتى الآن نختلف في وجهة النظر فقاطعتها عمها . . لا . . لا يا مسرة لست أنت التي تقضى من أبيك هذا الموقف لو لم أقتنع بصلاحيه العريس لما ارتضيته لك ويقبلها والدها قائلاً . . اطمئني يا حبيبتي ستكوني أسعد زوجة في الدنيا ولا تجد مناصاً من الخضوع لمشيئته مقاومة إحساسها المبهم الحزين . . ورافقت الوالد في بطاء وتعثر وسألها المأذون أتوافق على الزواج من حلمى عبد الرحمن مشيراً بيده إلى العريس الجالس أمامه

ووقع نظرها عليه وبصوت فيه رعشة الملدوغ صرخت لا.. لا أريد أن أتزوج وراحت تعدر مجتازة المدعوين . . وتوقف المأذون ونظر إلى الوالد مرتباً فاصطنع الوالد الهدوء وتمالك أعصابه قائلاً . . إنها مريضة تنتابها نوبة عصبية تفقد معها الوعي أحياناً ومن حسن الحظ أن العريس يعلم ذلك وقد قرر الطبيب أن الزواج علاجها الوحيد . . ولحقت بها صديقتها وهي تجرى في الأزقة كأن وحشاً يطاردها حتى إذا أمنت مكاناً تقف فيه لتسترد أنفاسها سألتها الصديقة . . ماذا أصابك ، . . ماذا يقول الناس عنك إنهم يتهايمسون وزوجة والدك تقول هذا ثاني عريس . . الأول عرفت لماذا رفضتيه وما السبب في رفضك هذا ؟ . . فقالت - مسرة واللوعة تنغم صوتها منذ شهور كنت خرجت برفقتها ولعلها نسيت ذلك .. وفي الطريق كانت عربة واقفة كأن سائقها على موعد معها لأنها اقتربت منه معتذرة على تأخيرها بعض دقائق ثم قالت لي إنه ابن خالتها وأنها ذاهبة معه لتبنى شقيقته بعقد قرانها الذي تم في ليبيا وحضرت البارحة مع زوجها ليمضيا شهر العسل وقد استأجر الزوج شقة مفروشة لا تعرف كيف تذهب إليها وحدها وعرضت على حرية الاختيار . . الذهاب معا أو تمضية الوقت عندك ريثما تقوم بالواجب ثم تمر على لنعود سوياً إلى المنزل وقد فضلت طبعاً الذهاب إليك ولعلك تذكرين يوم جئتكم ولم أجدك بالمنزل وانتظرتك ريثما تعودى من الكلية. لأنها كلفتني ألا أبزح منزلك وألا أخبر والدي لأنه على خلاف مع زوج خالتها وترضية لها وخوفاً منها نفدت رغبتها ولو كنت ارتديت لباساً يليق بزيارة عروس لأول مرة لرافقتها كما أشارت بذلك في سياق حديثها وحدث بعد أسبوع تحدث إليها هذا الرجل وقد نقلت إلى الخادم ما جرى بينهما من حديث فهمت منه أنه عشيقها ولولا خوفاً على أبي من تأثير الصدمة لصارحته وهنا لحقت والدها وعمتها يقتربان منها وقبل أن تتخلص منهما كان الوالد قبض على يدها وبصوت الغضب

قال . . . أى جنون أصابك تقذفين بي وبك إلى الحميم كيف أرفع رأسى بعد ذلك أمام الناس .

وفى هدوء ورصانة قالت بلهجة متقطعة الأنفاس .. أى أنت لا تعرف أى شىء يتعلق بهذا الزوج وأوثر أن تقتلنى لأستريح بدل أن أقول لك أى شىء يقضى على وعابك ... فما يعيبك يعينى وقاطعتها عمتها رحمة بأخيها ولوضع حد لهذه الهزلة كما تظن .. يا ابنتى تعالى واستعبدى من الشيطان لتثبت للناس أنها نوبة اعترضتك وزالت .. وكان ابن عمتها لحق بهم فجذبها رغما عنها وهو يقول .. دعوها لقد عادت إلى رشدها وهرع اليهم بعض المدعوين وقالت إحداهن وكانت صديقة لزوجته أبيها هل هذا جزاء من أحسنت إليك باختيار هذا الزوج فتضعيها فى هذا الموقف الحرج وفى سخرية لاذعة تقول - مسرة - وكانت سايرتهم حتى بلغوا الجمع وكان المأذون لم يزل واقفا لا يدرى مصير الموقف أنا أعرف أن زوجة أبى حريصة على سعادتى نخلو قلبها من الغيرة والحقد والأنانية إنها تعاملنى بأسلوب الكراهية ، بل تمنحنى من قطرات حنانها ما يعطر عواطفى بشذى الحب الأصيل ويتصرفاتها النبيلة الشريفة جعلت بيتنا جنة أرضية بعيدة عما يثير الأسى والهم والنكد ولها الفضل فى كراهيتى للغش والدهاء واحتقارى للباطل والرذيلة ، لذا لا أريد أن أتزوج هذا الرجل كارهة لكىلا أكون وصمة على جبينه مدى الحياة كما فعلت امرأة أخرى تزوجت برجل ثرى لتصرف من ماله على عشيقها وهنا نفد صبر والدها فلكرها فى كتفها قائلا .. ما لنا وسير الناس يا ابنتى وعلقت زوجته من يسمعها يظنها مجنونة تهذى ! فنظرت إليها - مسرة - نظرة نفذت إلى أعماقها لأنها تعرف مغزاها ودون أن تتحرك من مكانها قالت بلهجة ساخرة كم من حقائق لا يبوح بها غير المجانين ؟ كم من زوجات يكرهن الريح التى تحمل أنفاس أزواجهن ، لا أريد أن أكون مثلهن ، وضاق الوالد بها فقال بلهجة اليأس الموتور .. لست أدري ماذا أصابك ؟ وأردفت

العمة أى حاسد أثر فيك وقاطعهم المأذون . . كأن العرس تحول إلى ندوة وهم بالانصراف . . وهو يقول . . حتى تنتهى الندوة ادعوني فاستمهلها الوالد قائلاً . . لحظة أخرى يا أستاذ . . ستفيق إلى صوابها فقاطعتها مسرة مخاطبة المأذون لا تضيع وقتك يا أستاذ لن أتزوج وهذا قرارى وأنا بكامل عقلى وإرادتى فقال المأذون وما السبب ؟ ترفقى بوالدك الكهل وعقبت الزوجة إنها تضع عنق والدها تحت حبل المشنقة دون أن تستحى فاتجهت مسرة نحو المأذون قائلة فى هدوء واتزان أرفض الزواج منه لأنه أسير امرأة جعلت منه قنطرة تعبر عليها لتصل إلى مغنم له النصف ولها النصف وهز المأذون رأسه وهو يتمتم ، لم أفهم ما تعنيه يا بنتى ؟ قالت ولن تفهم ياسيدى إنها حلقة مفقودة أنا وحدى التى اكتشفتها !! وتهامس المدعوون وارتفع صوت بعضهم قائلاً أتريدن محاسبته على ماضيه ، لو كانت جميع البنات على طرازك لما تزوجن ؛ وانتفض العريس ثائراً قائلاً . . هذا افتراء إنها مجنونة حقاً وتقدمت الزوجة لتلطف من ثررته بلمهجة هامسة . . إنها تشرك لتنفيذ مأربها . . فنظرت إليه مسرة فى احتقار قائلة ليتك تثور ياسيدى فى الثورة تنبيه للضمير الحى وإيقاظ للكرامة وهنا قاطعتها الزوجة . . كفى . . هذا فوق الاحتمال . . وعلق العريس ما على المحنون من حرج وتهامس المدعوون ولماذا تتزوجها إذن وقال بعضهم . . هناك حلقة مفقودة فعلاً كما أشارت العروس والتفتت إليهم الزوجة قائلة . . إنها نوبة مفتعلة لتعيش حرة . . فاتجهت نحوها مسرة قائلة . . ليتنا كلنا أحرار . . . وفق تشريع الحرية . . لو كان . . لما كان فينا خادع ومخدوع — لخير لى أن أعيش حرة أباهى بشرفى وفضيلتى فى كنف حريتى المقدسة بدل أن أتزوج برجل لا يحمل من الرجولة غير اسمها وهنا انتفض العريس واهتزت جوانحه ووقع رأسه على حافة المقعد فذعرت الزوجة وصرخت دكتور . . دكتور . . وهرب المأذون منصرفاً وهو يقول يبدو أن العرس سيتحول إلى مأتم وأسرع طبيب كان من المدعوين ونبهه حتى استفاق بينما وقف الوالد واجماً يوشك أن يفقد

توازنه بدوره واختلطت أصوات المدعوين بين السخط والدهشة واللوم والشفقة وجذبت صديقتها بعيداً وهي تقول هاهنا لقد أسأت إلى أبيك يامسرة من حيث لا تدري بينما لزمت مسرة الصمت باكية بغير صوت . . والتف البعض حول الوالد يهدثون روعه ويخففون وقع الصدمة بأساليب مختلفة حتى استفاق من وجوهه وتنبه إلى ضرورة الاعتذار للحاضرين بينما ذهبت العمة وبعض الأقارب إلى مسرة في غرفتها يتوسلون إليها أن تنقذ والدها من شلل بانث بواده مؤكدين لها أنهم على استعداد للوقوف بجانبها وتخليصها من زوجها إذا ثبت بعد الزواج أنه غير كفء لها بينما حاول البعض إقناع الوالد بتأجيل الزواج ريثما يقنع ابنته باللين خشية أن تنتحر أسوة بالفتيات الطائشات وحاول البعض نصيحة الزوجة بمنع الزواج لكيلا تكون موضع شبهة تسيء إلى نفسها وصارح آخرون الزوج بأن هذا الزواج قد يسبب له كارثة لا يتوقعها وليس وراءه ما يحققه الزواج من سعادة روحية أو مادية مادامت الزوجة كارهة إلى هذا الحد الفظيع ، وتأثر كل منهم بما قيل وتركوا الأمر للوالد الذي أجل عقد القران ربما يعالج ابنته من النوبة التي تعاودها من حين إلى حين وانصرفوا جميعاً ... يشغل بال كل إنسان خواطر تختلف باختلاف تفكيره وأحاسيسه .

حب موشى بالأمل

لم تشغل الزوجة نفسها بعد أن هدأت العاصفة بغير التفكير الحاد في التخلص من مسرة بعد أن فشلت في المحاولتين ومع عزمها على أن تغير أسلوبها ووسيلتها لتنجح في تحقيق أمنيتها وحمدت الله على أنها استطاعت أن تزيل من نفس زوجها آثار الشك والريبة وبدءاتها استطاعت أن تبعد العريس الرينى الأول بعد أن أقنعت به بأن زوجها افتضح أمره عن طريق قريب له اتصل بالوالد دون علمها ونحت الثانى موهمة إياه بأن الوالد استطاع أن يعرف حقيقة العلاقة بينهما وقد ترتب على ذلك طلاقها وسوف تغادر البيت والمدينة بعد أن تحصل على حقوقها منه وفى هذا الوقت صارحت زوجها بأن الخطيب بعد الذى حدث اتصل تليفونياً أسفا لعدم الزواج من ابنته لاضطراره إلى السفر إلى الخارج وقد تطول إقامته وأيدت هذا الزعم بحديث ملفق أقنع الوالد مبدية أسفها الشديد لضياح هذه الفرصة فقد كان رجلاً ممتازاً ... ولم تمض أيام حتى صارحت زوجها بأن رجلاً ممتازاً تقدم لخطبة ابنته عن طريق زوج صديقة لها والمصلحة تقضى بعدم مصارحة - مسرة - الآن وبأسلوب دهاها المقنع أفهمته أن كراهية ابنته لها تحول بين قبول أى زوج يتقدم من ناحيتها لذلك يتحتم أن يصطنع الشجار معها على مسمع من ابنته وينتهى الشجار بالخصام وترك الزوجة للمنزل لتقضى بعض أيام عند أختها.. ورسمت معه الخطة الواجب تنفيذها لنجاح هذا الزواج لأن العريس لن يعوض إذا رحل .. ونفذت الخطة المتفق عليها وعندما همت بمغادرة البيت على أثر المشاجرة التى حدثت بينها وبين زوجها لم يحاول الزوج أن يستبقها أو يسترضيها كما كان يفعل من قبل ولم تجد - مسرة - ما يبرر خروج الزوجة لغير رجعة كما تقول وخصوصاً بعد أن كفرت عن خطاياها بإقامة الصلاة فى أوقاتها أمامها وأمام والدها حريصة على الاهتمام بمأكليها

وملبسها والوقوف بجانبها كلما أنها والدها لأمر ما يتعلق بشئون البيت بل بالغت في إظهار حنانها بتأدية ما كانت تقوم به من أعمال البيت بدعوى الحرص على صحتها وجمالها وتفتح قلب مسرة إليها وغفرت لها ما تقدم من ذنوبها وأيقنت أنها أحبها فعلا بدليل أنها تابت إلى الله ورغم إلحاح مسرة بعدم خروجها صممت على الخروج وتركت المنزل موهمة—مسرة—بأنها لن تعد ولا بد من الطلاق وفي اليوم التالي طلبت — مسرة — من والدها أن يرافقها ليسترضى زوجته فرفض في إصرار كما رفض أن تذهب وحدها لتعيدها وأقنع ابنته بأنه ضاق بسيطرتها ولا بد أن تمكث عند أسرتها لكي تعرف أنه يستطيع أن يستغنى عنها وهو واثق من أنه قادر على فراقها للأبد وحسبه ابنته ومر يومان وفجأه يطرق الباب زائر غريب وجيه المنظر وسيم الطلعة فارغ القوام بيده مسبحة رغم أنه في ريعان الشباب وفتحت مسرة الباب وبلهجة مهذبة يحدوها الوقار سأل عن اسم والدها إذا كان موجوداً يريد مقابلته واستأذنت والدها فأذن له وبعد مقابلته ينصرف على أمل أن يحضر بعد أسبوع ليعرف رأى الوالد وفي خلال هذه الفترة يتحرى الوالد عن نجل عزت باشا الرجل العصامي المعروف ويعلم أن ابنه الوحيد في أوروبا وهو يحضر من آن لآن إلى مصرفيطمئن الوالد إلى المعلومات التي ذكرها الرجل الذي تقدم إليه وهو ابن عزت باشا ويصارع ابنته بما جرى ويسألها رأيها في الرجل الذي حضر لمقابلته مرتين ولم يشأ أن يخبرهما برغبته في الزواج منها إلا بعد التأكد من صلاحيته وهنا اعترضت ابنته قائلة ولكنهم يقولون إن الشاب الذي يقضى فترة في أوروبا يتأثر بعادات الغرب ولا يقيم وزناً لتقاليد الشرق والاسلام فينبى الوالد هذا الزعم مؤكداً أن تأثير البيئة الأصيلة تحمي الشاب من أضاليل الحياة الملوثة بجرائم المدنية الفاسدة . . وإذا فرض وتأثر الشاب تحت سيطرة مغريات الحياة الباطلة قبل زواجه فسوف ينسى هذا الاستهتار بعد الزواج لاصالة الشرف والكرامة الكامنان في نفسه منذ طفولته

وخير للفناء أن تتزوج بشاب ارتاد الملامى ثم يعتصم عزوفاً في عفة
واباء مستردا يقينه . أما الشاب الحام — فإن لم تكن زوجته كفيلة بتهيئة
جميع الأجواء له لكيلا يتطلع إلى حياة الحرية التي يحياها الآخرون.. فسوف
تجد مشقة قد تنتهى بالفشل وهنا تقاطعه ابنته كأنك تجيز للشباب أن
يجرب متع الحياة قبل الزواج حتى الفاسدة .

قال : لا أعنى هذا ولكننى أريد أن يفهم الشاب ، حقيقة الحياة ما نقص
وما اكتمل أن الحياة دائرة لا تتوقف عن الحركة فعليه أن يدور معها منذ
يتفتح حسه ويتنبه عقله حتى نهاية عمره . فالمرهق يمر بانفعالات يعصمه
من نزواتها تربيته السليمة وتأثير والديه المباشر وهو بإرادته المنبثقة من
تأثير البيئة عليه يستطيع أن يتجه نحو الخير مرتفعاً عن تهاويل ومغريات
الشر . . ووالد الخطيب الذى تقدم لك من الطراز الخير الكريم ولاشك
أن ابنه استقى منه الخير والشهامة وما قضاء فترة من حياته في أوروبا
إلا دراسة لتفهم ما يصعب عليه تفهمه في بيئتنا الشرقية التي تمنح بقدر
ولإنجاز بعض أعمال والده في الخارج وأنا أرى أنه رجل كفيل بإسعادك وعلى
كل حال فأنت حرة ولك الأمر إذ لا أريد أن أكرر ما حدث في الماضى . .
إوجاء الخطيب في الميعاد الذى سبق أن حددده الوالد وقدم إليه ابنته ولم
يكذ يستقر به المقام حتى راح يتحدث إليهما في لباقة وظرف إذ كان بطبيعته
محدثاً لبقاً يجيد انتقاء الحديث الذى يوائم محدثه فتحدث عن المجاهدين
المكافحين وأولياء الله الصالحين ليرضى عقلية الوالد التقى الورع ثم تحدث
عن النساء مصوراً ما يعجبه في المرأة من ميزات في مقدمتها الشرف والحياء
ساخطاً على المرأة الطائشة المستهترة التي تسير المدنية دون أن تتمسك بالجمعة
والحصانة التي يجب أن تلتزم بهما المرأة العربية وتحدث طويلاً في الشأن
ليثبت في سياق حديثه أنه معجب — بمسرة — لفرط أدبها وحشمتها إذ
رآها مرة مع والدتها في السينما منذ أسابيع فقطاطعه الوالد . . أن والدتها
متوفية والتي كانت معها زوجتى الثانية فقال الخطيب ظننتها والدتها لأننى

إلا حظت أنها تؤثرها على نفسها أثناء جلوسهما في السينما . . وسألها الوالد : . .
أهل ذهبت مع نازك إلى السينما حقاً . . فقالت أجل . . يوم عيد ميلادى
أرادت أن تحتفل به وهذه أول مرة منذ تزوجت ثم اقتضبت الحديث
الكثير لتشعر الخطيب بأنها استرضتها بعد أن أساءت إليها ووردف
الخطيب عندما لزمته الصمت : لا أنكر اننى خبرت أنواع النساء عن
أحمد لأتعرف على خفايا نفوسهن وطوايا قلوبهن دون أن أمس شرفهن
أبسوء . . كنت مجرد قارىء لصحائفهن لكى أختار شريكة حياتى عن اقتناع
أوسكت لحظة وهو يمر بأصبعه على مسيحته كأنه ولى من أولياء الله ثم استأنف
حديثه لكل إنسان فى الحياة قادح ومادح وقد يقول عنى القادح أن لى فى
أعوالم النساء جولات لم تكلفنى غير براعة اللف والدوران شغوف بالمغامرات
النسوية أصرف المال فى سخاء على ملذاتى أسابق أبناء الذوات فى قنص
العذارى البريئات ويقول مادحى ، أننى شاب مغامر فى سبيل تعرف
الحقيقة التى تتطلب البذل والتضحية لأعرف كنهها طاهر النفس عفا الضمير
أعطى ولا آخذ تهوانى كل امرأة تلتقى بى لاعتدائى برجولتى وكرامتى
أولياقتى فى الحديث وكياستى فى المعاملة ثم ينظر إليها فى رقة مردفاً . . هأنذا
أكما يصورنى القادح والمادح فإذا حدث وربط الله بيننا ورأيت فى أحد
الوجهين فلا أحسبك إندمى على الاختيار الوجه الذى رأيته لأننى عرضته
أعليك قبل أن أضع يدي فى يد أهلك . . . وأطرقت - مسرة - فى حيرة
بالغة إذ لم تدرك بالضبط ماذا تقول وأدرك ما يجول بخاطرهما فاستطرد ،
كان فى مقدورى أن أقول لك أننى زاهد فى كل ما يتعلق بمظاهر الحياة
الباطلة لأن قلبى عالق بالله إلى حد لا يطرف جفنى إلا لتسبيحه ولا تتحرك
شفتى إلا لتكبيره ولكنى آثرت أن أتحدث إليك بصراحة على مسمع
من السيد الوالد إذ قل أن توجد فتاة عصرية وخصوصاً فى مستقبل العمر
مثلك تفهم ما أعنيه قد أكون زاهداً وقد أكون لاهياً ، وقد أكون شريراً . .
المهم توطئ النفس على احتمالى على أى صورة وهنا يقاطعه الوالد . إن

صراحتك يا ولدى تنبىء عن معدنك الأصيل وخلقتك القويم وأنا وأبنتى
تقدر بلا ريب سمو النفس في زمن قل فيه اعتناق المثل ونحن نعتز بثروة
الخلق أكثر من اعتزازنا بثروة المال، وعلق الخطيب، هذا رأيك يا عماد
ولكننى أحب أن أسمع رأى الآنسة ... فأطرقت ولم تتكلم فقال الوالد
ثق بأن ابنتى صريحة ولو لم تفهم ما تعنيه وتقتنع بك لما جالستنا واستمعت
إليك .. فقال الخطيب .. إذن اعتبر سكوتها فقاطعه الوالد .. طبعاً بمنعها
الحياء من إبداء رأيها .. وأنا أعلم بدخيلة نفسها فعلى بركة الله يا ولدى وكان
الوالد أدرك من لمحاتها ونظراتها ارتياحها إلى الخطيب، وانصرف الخطيب
بعد أن تركتهما مسرة ليتحدثا على انفراد فيما يتعلق بالتزامات الزواج ...
وعلى أثر انصرافه قبل الوالد ابنته مبدئياً اطمئنانه الصادق لهذا الزواج متفائلاً
بمستقبلها السعيد ... ولم تنم مسرة من شدة الفرح موقنة أن هذا الزوج ما
كانت تحلم به .. ولم يكد الصبح يشرق مع إشراق أملها المنشود حتى ارتدت
ملابسها راجية والدها أن يرافقها لتعيد زواجه وتكلف الوالد الممانعة وبعد
إلحاحها وافق .. واصطنعت الزوجة سرورها وارتياحها وأشعرتها أنها
ستعود إلى البيت من أجلها لكي تهيب لها معدات الزواج مؤكدة لها أنها
رغم ابتهاجها لزواجها فهي جد حزينة لخلاو البيت منها وكانت ورثته الناضرة
ولم تمض أيام حتى عقد قران مسرة في حفل بهيج يلائم مركز والدها وابن
الباشا ولم يحضر من أسرة العريس — فايد — أى أحد بدعوى أن عمته توفيت
منذ أيام قلائل ومن تقاليد الأسرة ألا تقيم أفراحاً في خلال عام كامل ولم
يشأ أن يؤجل الزواج بعد أن ارتبط مع والدها وفي صبيحة اليوم التالى اتصل
الخطيب تليفونيا بوالد مسرة رجاء مقابله لأمر هام ورحب به الوالد
فلما جاءه لا حظ الوالد أنه كئيب الوجه على غير عادته يبدو عليه الحزن
كأنه فجع في عزيز وسأله الوالد .. ماذا حدث فقال بلهجة تنم على
الأسف الشديد .. جئتك قبل أن تذهب إلى البنك لصرف الشيك الذى
قدمته البارحة مهراً .. لقد أصيب الوالد بشلل مساء البارحة في الوقت الذى

كنت أحتفل هنا بعقد قراني إذ صلت الأمر بإيداع ثروة أبي تحت الحراسة لآتهامه زوراً في تهريب بضائع من الخارج وإيقاف صرف أمواله الموضوعة في البنك ... وترفق الوالد به قائلاً .. المهم ... عالج والدك حالا ثم تذكر ما قاله قبل عقد القران بأن الباشا بخارج الجمهورية في أوروبا .. فغالب - فايد - اضطرابه قائلاً .. لقد اتصل به مدير أعماله تلفونياً فجاء في التودون أن أدري .. إذ كنت هنا ولم يعرف أحد مكاني لكي يتصل بي لأنني لم أشأ أن أخبر أي أحد لكيلا أكلفك مصاريف طائلة لترضية الجميع ولم يشأ الوالد أن يشعره بأثر الصدمة فتظاهر بعدم الاكتراث وقدم له الشيك قائلاً : هون على والدك وكن شجاعاً واقنعه بأسلوب الشاب المسائر للنهضة المباركة بأن العدالة لن تخلد ومادام بريئاً فسوف يسترد ثروته وماله والدولة حريصة على حماية صاحب المصنع من ضغائن العمال وحقدهم وحسد هم مادام متمسكا بشريعة الله وقانون الدولة فاحذو حذوه وهيء نفسك لمواجهة الحياة دون الاعتماد على والدك واسلك طريق العمل الحاد معتمداً على قوة شبابك وذكائك ولن أفسخ ياولدى هذا الزواج لكيلا أتهم بأنني ارتضيك طمعاً في ثروة والدك وأنا الآن سعيد لأنني زوجت ابنتي من شاب سوف يسلك مسلك أبيه المستقيم فيبنى مستقبله معتمداً على كفاحه ولكي تتأكد من صدق عواطفى وإيمانى بقدرتك على بناء مستقبلك بما يتفق مع نهضتنا المباركة فسوف أعد لكما مسكناً بأثاثه ورياشه على حسابى وهو مساهمة منى باسم ابنتى لتدعيم حياتكما وحسبك أن تركز تفكيرك فيما يجب أن تعمله وفق استعدادك ودراستك وتجاربك التى اكتسبتها من الخارج ولم تمض أسابيع حتى استقر الزوجان بمنزلهما الذى أعده لهما والد مسرة .. وبدأت مسرة تستشعر بالسعادة النفسية بجانب زوجها راضية عن دنياها التى حققت لها أحلامها بجوار زوج تقي ورع يؤدى الصلاة فى أوقاتها ... مسحورة الفؤاد بنشوة هذا الزواج الذى جاءها على غير ارتقاب وأقبلت على زوجها ترعاه وتمنحه من الحب والحنان أكثر مما يطمع.

ومضى الشهر الأول من زواجها وهي هائلة راضية لا يفارقها الزوج إلا ساعات معدودات في مساء كل يوم لعبادة الله ولما طلبت منه أن تزور والده اعتذر بدعوى أنه لا يستطيع مصارحته بزواجه إلا بعد إتمام عام الحداد على أخته واقتنعت بذلك واستغلت وقتها في تنظيم بيتها ليكفل الراحة والطمأنينة له ولم يكدينصرم الشهر الأول حتى شعرت بتغيير أحوال زوجها فقد أهمل الصلاة مع أنها كانت تؤديها على مرأى منه لتذكره بها إن كانت الشواغل أنسته إياها ولم يعد يفكر في مستقبله مستحيماً بتفكيرها كما كان يفعل خلال الشهر الأول وبدأ يمد يده إلى مالها الخاص الذي وفرته في حصاله كانت لديها قبل زواجها بعد أن كان يشعرها بالتعفف وبعد أن كان يخرج في الصباح ويعود في الظهر ويقضى طوال الوقت بجانبها بدعوى أنه لا يطيق فراقها مدة طويله غير نظام حياته فينام طول النهار ويسهر الليل كله خارج البيت ثم يعود عند الفجر مخموراً .. فلما أخذت عليه هذا التغير أفهمها أنه يعمل إلى ذلك لينسى مأساة والده وما آل إليه من حرمان وبدأت هواجس سوداء تتسلل إلى ذهنها على أنها أخفت ما يراود ذهنها من خواطر السوء وظلت حريصة على القيام بواجبها نحوه راجية الله في صلاتها أن يرفع عن قلبه تلك الغشاوة التي تحجب عنه النور الإلهي خشية أن يضل الطريق المستقيم ولم يكتف بتحويل نفسه بل اتجه إليها ينتقد حشمتها وتمسكها بالتقاليد العربية مبدياً رغبته في أن تخلع آزار الحشمة الذي يتنافى مع شبابها وجمالها مؤثراً الزى الذي يكشف عن صدرها وذراعها لتظهر معه في الحفلات بمظهر يابق به ولما عارضته بشدة أقنعها بأنه المسئول عنها أمام الله وأمام الناس وهو مالكها يتصرف فيها كما يشاء يظهر جمالها أو يخفيه وما عليها إلا الطاعة والتسليم وبدأ الخلاف يدب بينهما بسبب ذلك ولم تشأ أن تخبر والدها إذ أنه أصيب بوعكة بسبب اكتشاف أمر الزواج ثم عوفي منها لاتجاهه إلى الله أخيراً وذلك على أثر ذهابه إلى والدنايد-الباشا-دون علم فايد لكيلا يجرح كبرياهه ...
ليعرض عليه الوقوف بجانبه وتخفيف الصدمة كنسب له تقديراً لكفاحه

وعصاميته فلما ذهب لمقابلته .. وتقدم للحارس وكان رجلاً عجوزاً ضعيف النظر ظنه نسيب الباشا الذى استدعاه تليفونيا منذ لحظات وكان نبه عليه أن يدخله مباشرة دون إذن ... فسمح له بالدخول فوراً وكان الخادم حديث العهد بخدمة الباشا لسفر خادمه القديم إلى الصعيد بمناسبة زواج ابنته هناك ودهش الباشا لدخول رجل غريب عليه دون استئذان وظنه من المخبرات أو المباحث جاء لإجراء عمل خاص بالحراسة فقال بصوت يُم عن الاضطراب والألم المر .. أهنك إجراءات أخرى .. لقد انتهى كل شيء .. فقال والد مسرة .. أعلم أنه انتهى كل شيء وقد جئت لأكون بجانبك وأضع نفسى تحت أمرك فى خدمتك فقد عافانى الله بغير دواء دنيوى .. بدواء الله عوفيت فاتجه لله تتعافى وحسبك أن تأكل ما يقدمه الله لك حللاً وترتدى ما تخلعه على نفسك من زى نسجته أيدى وطنك باسم الله وشعر الباشا براحة نفسية لم يشعر بمثلهما من قبل أمام أى رجل جاءه ليؤدى واجباً كلف به فابتسم ابتسامة الرضا والطمأنينة قائلاً بلهجة ثم عن الاطمئنان إليه . لأول مرة يتحدث إليه مسئول بهذه اللهجة الداعية للإيمان فقال الوالد .. لأننا بدأنا نستنشق عبير الإيمان فى عهد الرئيس المؤمن لا يخطو خطوة إلا بتوجيه من إيمان روحه ويقين قلبه وهذا الإيمان وحده كفيل بنصرنا إن شاء الله .. قال الباشا هل هل يمكن أن أتشرف بمعرفة اسمك ومهنتك وسوف تجدنى طوع أمرك قال الوالد . . اسمى جاسر عبد العزيز والد مسرة — نسيبك . فنظر إليه الباشا دهشاً مردداً .. نسيبي .. نسيبي .. والد مسرة ... من مسرة هذه؟ فابتسم الوالد قائلاً فى هدوء ... إنها مفاجاه لك أيها الأخ العزيز .. إن ابنك فايد تزوج ابنتى ... أثناء إقامتك فى أوربا حيث فوجئ بوفاة شقيقتك وحمها الله بعد أن أعددت مراسم عقد الزواج واحتراماً لتقاليد الأسرة أقمتنا العرس دون أن نعلن ذلك وفى الوقت الذى تأهب فيه لإرسال رسالة إليك فى أوربا ليخبرك بزواجه فوجئ بمقدمك فجأة بمناسبة ما حدث لسيادتك وكانت صدمة له ولكننى وقفت بجانبه وأعدت إليه شيك المهر

قبل أن يصرف وأعددت له مسكناً بأثاثه ورياشه ليسعد بجوار ابنتي وعلى كل حال فهي ابنة وحيدة وكل ما لدى مآله لها فريع الباشا وقال .. إنها قصة غريبة .. يبدو أن شخصاً انتحل شخصية ابني إن ابني الوحيد تركته في أوروبا ليتمم بعض المهام الذي يتحتم إنجازها وهو متزوج من ابنة يسرى بك نسبي الذي دعوته قبل مقدمك اليوم .. لا كلفه بتأدية بعض المهام لابنته التي تنضم مع ابني في سويسرا .. وصعق الوالد وارتعدت مفاصاته وهو يردد فايد ليس ابنتك وانتحل شخصيتك قال الباشا .. وابني اسمه فايد أيضاً .. تشابه في الأسماء فقط قال الرجل ولكن بطاقته ذكر فيها اسمه واسم والده عزت الشبراوي وغير متزوج .. فاستجمع الباشا قواه وقال في حدة .. وكيف تزوج ابنتك برجل لا تتأكد من صحته نسبه على الأقل قال الوالد بأنفاس مضطربة .. مجرد ذكر اسمك كان يكفي لقبوله .. وعندما سألت بعض معارف عنه .. قالوا لي أن للباشا ولداً واحداً مستقيم وورث عن والده الكفاح والشهامة .. وأظن هذا يكفي لضمان أن زوج ابنتي منه ... فقال الباشا .. إذن يتحتم أن تبلغ النيابة فوراً خشية أن يحال بوسيلة أخرى فيستولي على تركة ابنتك وهي ورثتك كما تقول .. وأنا ووقف الوالد وهو لا يمالك قواه يحركه شيء في جهده وصافح الباشا معتذراً عن إقلاقه ولم يجد ما يقوله غير .. الله معنا .. ثم طلب منه في رجاء عدم تبليغ النيابة وعاد إلى بيته منهوك القوى مشتت الفكر لا يدرى ما هو صانع به .. أخبر ابنته وصعب عاينه أن يصدمها فاعتزم أن يترنث ريثما يتدبر الأمر وكان لابد أن يصارح زوجته فهي التي قدمته بدعوى أنه ابن الباشا .. واستطاعت بدهائها أن تبرئ نفسها فقالت لقد قدمه إلى زوج صديقتي بأنه ابن الباشا والدة في الخارج لمهام تتعلق بعمله ولا شك أنه تعرف على زوجها وعيها باعتبارها ابن الباشا ومظهره

كما رأيت يؤكد ذلك فلا حرج عليهما إذن وبدأ الوالد وزوجته يفكران في وسيلة يخلص ابنته منه دون أن يتعرضا للفضيحة . في هذا الوقت .. بدأ — فايد — يقيم الحفلات في منزله على حساب مسرة التي يستولى على النقود خلسة من حصالتها محاولاً أن يرغم مسرة على مراقبة الرجال بملابس عارية مرغماً إياها الاستجابة لكل من يراقصها على أى صورة وهى ترفض في إباء وإصرار مهددة بتبليغ والدها إن أصر على أن يقذفها بين أحضان الرجال كأنها متاعاً مشاعاً لاهياً عنها بعبثها ومجونه مع رفاق السوء ونساء الليالي الحمراء وهى صامئة تحترق في بطنها شاعرة بأن عفتها تنتحب في بطنها وحصانها الأصلية تثور في غير ضجيج وتخلو بنفسها لتصلى كى تدعو الله أن يخلصها من ذلك الفاجر الذى يقترف الآثم جهاراً ويتوب عليه فإذا ناداها وهى تصلى لتقضى له حاجة أسرع إليها وركلها بقدمه لتخرج من صلاتها وكانت تتأس بأنه يتصرف هذا وهو مخمور ولكنه بات لا يستحي من الله ويسب الدين ويلعنه كلما تمسكت بتعاليمه وأبت أن تخضع لمشيئته الآثم وباتت تصلى خفية لكيلا يخرجها من الصلاة عن عمد ما الذى يرغمها على اقرار هذا الآثم .. إنها مسلمة عريقة فكيف تستطيع هذه الإباحية ويورقها الألم الممض أو تصورها لولا تمسكها بدينها وعفتها لكانت ضحية من ضحايا زواج العصر وتفكر في تركه مهما كلفها الأمر من تضحيات ولكن قول أوالدها لم يزل يرن في مسمعها يوم الزفاف قفى يابنتى بجانب زوجك فى السراء والضراء فليست مهمتك قضاء حاجته واشباع رغبته وحسب ولكن مهمتك تدبير شئونه وتوفير ماله والسيهر على راحته وتزويد إيمانه وتقوية روحه ليصبر على مكاره الحياة ويحتمل مشاقها دون ملل أو حداثها عن أمها وما بذلته في سبيل تدبيرها فلولاها لصرف كل ما ملكت يدها فقد تزوجها وهو لا يملك غير مرتبه وميراث ضئيل إلا يكفى لسداد مطالب أسرة تصرف في عام واحد واتصلت بها صديقتها تليفونيا تسألها

عن أحوالها فلم تشأ أن تخبرها وأشعرتها أنها بخير وعلى أحسن حال ..
فقالت الصديقة .. لقد ظننت أنك متعبة لأننى رأيت زوجة أبيك مع
زوجك فى سيارة فخيل إلى أنه استدعاها لتعولك .. فدهشت مسرة
لأن زوجة والدها لم تزرها مطلقاً .. وكان زوجها منعها منذ زواجها
باستخدام من تساعد في مهام البيت رغم تعهداها بدفع أجرها من مالها
الخاص وإزاء إصراره ارتضت أن تقوم وحدها بشئون البيت وتشتري لوازمها
إفنى الصباح أثناء وجوده فى البيت .. وحدث أن نسيت نقودها بعد
أن قطعت شوطاً طويلاً فى الطريق وعادت وكان استولى على المفتاح
الخاص بها إذ لا بد أن تطرق الباب لتفتحه وكان المألوف دائماً أن
تمر على عمها بتوجيه منه كل يوم لتطمئن على صحتها لمرضها وبذلك تقضى
خارج البيت مالا يقل عن ثلاث ساعات وطرقت الباب كثيراً حتى خيل إليها
أنه غادر البيت ولكن خادم الشقة المجاورة أخبرتها أن سيدة دخلت
ولم تخرج .. وعادت تطرق الباب بعنف ولم تدر أن زوجها نظر من وراء
ثقب (المفتاح) ثم سمع صوتها وهى تتحدث مع الخادم وأخيراً
فتح الباب ودخلت تدور بعينها لترى السيدة التى دخلت وسرعان ما رماها
كما يرمى مقعداً داخل الحمام وأغلقه عليها من الخارج وتركها ريثما
تخرج السيدة .. ثم ارتدى ملابسها ولحق بها بعد أن فتح باب الحمام
فى هدوء كأن شيئاً لم يحدث وارتمت تبكى فى مرارة على سوء حظها
وتعاسها التى لم تكن تتوقعها .. واضطرت أن تلجأ إلى نازك تستجير
بها فقد تجد عندها حلاً وصارحتها بكل شئ فعطف عليها ونصحتها
إلا تخبر والدها لأن حالته الصحية لا تسمح له بقبول أى صدمة وأن
تحتمل وتصبر فسوف يعود إلى رشده ويتخلى عن نزواته فهذه فترة
يمر بها الشاب المترف الثرى ثم لا تلبث حتى تزول وعادت إلى بيتها
تتوسل الله أن يهديه ويعينها على إصلاحه موطنه النفس على أن تعالجه
كمرضى ترى نفسها مسئولة عنه أمام الله وراحت تستعين بصديقتها لشراء

كتب علم النفس دون أن تشعرها بما تعانيه وبعد أن استنارت بما
قرأت تبدد حقدتها وتحول إلى شفقة وعطف إذ أدركت أن البطالة
وسعة الفراغ أفسحا له طريق الفساد لأن والده ترك له الحبل على الغارب
مع المال الوفير الذي خول له التصرف دون عقل كأنه طفل عزيز وبدأت
تعامله في رفق أنا وفي قسوة أحيانا كما تعامل الأم ولدًا عاقا منحرفا
اعتمد على الثراء دون العلم واتخذ من رحلته في الخارج سبلا لا يستعين بها
على استباحة كل محرم على أن الجدل بينهما اشتد ولم ينقطع ليل ونهار
كان الصراع بين الرذيلة والفضيلة تمثل فيهما ووقفنا على حافة الواقع
الرهيب كلاهما يتمسك بانطباعاته غير مبال بما يناله من آلام إذا جرفه
التيار لغير ما يريد ومضت بعض شهور مليئة بغمام النكد الدائم وقد حاولت
جهد المستطاع أن تطهر نفسه بالرفق وشغل فراغه بعد أن فشل والدها
في إسناد أى عمل له بعد أن اكتشف أمره وكتبه خوفا على ابنته وفضيحتة
محاوла أن يحوله إلى إنسان شريف عامل .. ففتح له متجرًا للقماش تحت إشرافه
وكابد الكثير من الجهد والصبر والاحتمال في سبيل تعويده ملازمة المتجر
في ساعات محدودة كل يوم حتى اضطر أن يسافر إلى قرية لجمع
إيراد الأرض الزراعية التي يملكها فلما عاد وجد المحل مغلقاً نتيجة الإفلاس
إذ حجز على المحل بسبب إسراف فايد وتزوير الحسابات التي يعرضها
على الوالد ثم استأجر له جراجا للتاكسى وما عليه إلا الإشراف مقابل مرتب
شهري يتقاضاه فوافق وبعد عدة شهور تظاهر بأنه يقدم المرتب لزوجته . .
فوجىء الوالد بتغيبه بعد أن استولى على تاكسى مدعياً للسائيس أن صاحبه كلفه
بتجديد رخصته . . واضطر الوالد أن يدفع للسائق ثمن التاكسى كما قدره ..
وتمنى الوالد ألا يعود لكى يتمكن من طلاق ابنته ولم تمر بعض شهور
حتى عاد وصارح الوالد بأنه كان يريد أن ينزه زوجته وقبل الذهاب إليها
أصطدم بسيارة نقل وقد نقل إلى المستشفى ولم يشأ أن يعلن عن اسم الوالد
بصفته مستأجر الجراج حرصاً على كرامته وقد تهشمت العربة إلى حد لا تصلح

للعمل . . وخيل للوالد أنه لا يصلح مطلقاً لأى عمل لم يتهيأ له فأخذت مسرة على عاتقها ترويضه على عمل لا يستشعر منه بمشقة أو مسئولية ولا يبيع له التصرف المطابق فى المال فاستأذنت والدها أن تقيم معه فى الفيلا الكائنة فى قرينته لتتخذ من حديقته مشروعاً يشغل به فراغه . . ورافقتها زوجها دون اعتراض وسرعان ما هيات منحلاً للعمل فى ركن من الحديقة لى يتأثر دون أن يدرك بنشاط النحل موقنة أن ما يشاهده من نظام النحل وما يشمله هذا النظام من تعاون وعدالة فى التوزيع فالعامل لا يتعدى حدود واجبه والمالكة لا تقصر فى مهنتها جل شأنه الذى وضع نظام الـكون قائماً فى دنيا النحل وهيات له فى ناحية أخرى من الحديقة مزرعة للدواجن والطيور ليشاهد التألف النقي الأكيد والحب الطاهر فى أنقى صورته والتعاون المشترك بين الأبوة والأمومة ولم يكده يستقر مقامها حتى راحت تحدثه بأسلوب رقيق وشيق مؤثر بأنه فى مقدورهما استغلال هذا المشروع استغلالاً يعود عليه بربح مالى هائل وقد عمدت إلى المبالغة فى الربح الذى يحصل عليه لتغريه على مزاولة هذا العمل من ناحية ولرغبته المألحة فى جلب المال . . وراحت تزاوّل العمل بجهد ومثابرة دون أن تازمه لى يتأثر بالتدريج . . ولكنه لم يتأثر كأنه لم يشاهد تلك المشاهد الطبيعية الخلابة ولم يصغ لنداء روحها المكوم ولم يتأثر بحرارة أنفاسها الصادقة ولم يحرك وجدانه رجاء قلبها الملتاع ولم يتسلل إلى نفسه حنانها الغامر فيعمل ولو مرضاة لها ذلك لأن حيوانيته أقوى من إنسانيته وشيطانه أشد تأثيراً عليه من إيمانها ولم تياس بمقاومة أملها الخائب فيه متحاملة على أمل أن يساعدها الصبر على ما تعانیه نمت الشيطان القابع فى نفسه كى توقظ إنسانيته إن كان ثمة إنسانية نائمة فيه ولم تشأ أن تخبر والدها أو أحد المتصلين بها من ذوى قرباها متظاهرة أنه هو الذى يقوم بهذا الجهد الواضح راجية من الله أن يعينها على درء السوء فيه قبل أن يشتد ويحظى بفضاها بما يشيع نفسه ويظهر وجدانه وينتفى ضميره .

وبينما هي جادة في تقويمه فاجأها باضطرابه للسفر إلى الإسكندرية لينهى بعض أمور متخلفة خاصة بعقار لأبيه وكان عودها أن يسافر من حين إلى حين لإنجاز هذا العمل الذى يؤجل لأسباب خارجة عن إرادته ولم يكذب برح القرية حتى أبرقت إليها عمتها تخبرها بعزمها على تأدية فريضة الحج.. فاضطرت أن تذهب لتوديعها موكلة بمهام الحديقة إلى من تأنس إليهم وتأتمنهم من المقربين إليها . . . وعن لها أن تمر على شقتها لتطمئن على ما تبقى فيها من أثاث إذ لم يشأ زوجها أن ينقل الأثاث كله إلى فيلا القرية بدعوى أنه من المحتمل أن يقضيا بعض الوقت فيها من حين إلى حين . . . ولم تكذب تبلغ باب شقتها حتى قابلها عامل من متجر البقالة خارج منها وسمعت صوت زوجها يقول له اقفل الباب وراعى . . فأشارت إلى العامل ألا يقفله وأن ينصرف . . ودخلت فى هدوء فإذا به يجالس صديقة لها وزوجة صديق له وأمامهما زجاجة الخمر وقد طوقها بذراعيه على صورة مخزية وصعقت واصطلمت بالحائط فاقدة الوعي . . ولم تدرك ماذا حدث . . غير أنها تنهت أخيراً بعد أن نهىها فلما استفاقت أقبل عليها ترسم على شفثيه بسمة اللامبالاة وفى استخفاف ونظرات عاتبة قال : لقد سبق أن وضحت لك سياستى فى الحياة وأفهمتك أن لكل منا حريته المطلقة أعاشر من أشاء سراً أو جهراً على أى صورة تروقى ومنحك هذا الحق تعاشرين من تشائين على أى صورة تروقك ولو فرض ودخلت عليك الآن ووجدتك بين ذراعى رجل فلن ألومك وقد انصرف كأنى لم أر ما رأيت . . لأننى أعرف قيمة الحياة . . . أفهمت . . . فقط حذار أن يعلم زوجها لأنه على طرازك يتمسك بالتقاليد البالية التى تسمونها تعاليم السماء . . ثم يضحك فى سخرية معقبة . . . نحن نعيش على الأرض فلماذا نعتقد تعاليم السماء ، ما علاقتنا بها . . إنهم الآن يحاولون . احتلال السماء . . وهنا تنظر إليه شذراً وكأنها تنهت فى التوقائلة بصوت متقطع الأنفاس لا جدوى من الكلام الآن . . لك دينك ولى دين ولن أعاشرك بعد اليوم . . قال لا مانع على شريطة قالت : لك ما شئت . . قال : إن زوجة أبيك مدينة لى

بمبلغ كبير ويبدو أنها لا تستطيع سداده إلا بعد موت والدك فإذا
شئت أن أطلقك تتعهدى بسداد هذا المبلغ بجانب المبلغ الذى أحدهه مقابل
طلاقك فنظرت إليه دهشة قائلة . . . معقول أن تسأمنى على طلاقى ولكن
ما علاقة زوجة أبى بالمبلغ المطلوب منها : قال لا شأن لك به والآن سأتركك
ربما تفكرين وأنا تحت أمرك فاستوقفته قائلة . . تستطيع أن تمكث هنا . .
أنا ذاهبة إلى بيت أبى ولك أن تتفاهم معه فيما تريد . . وتحركت لتخرج ولكنه
استوقفها قائلاً : حذار أن يعرف والدك أو زوجته أو زوج صديقك سبب
الطلاق قولى كل شيء يبرره . . قولى إننى سكير مستهتر ، أو أننى عاجز
عن القيام بواجب الزواج . . ولكن حذار أن تذكرى ما حدث فلم ترد
وخرجت . . وقبل أن تغادر البيت تذكرت عمها فعادت مسرعة لتخاطبها
فى التليفون وسمعته يتحدث فى التليفون قائلاً . . حذار لقد حذرتها وأنا واثق
من أنها لن تذكر ما حدث إنها تخافى وتخشانى وقد هددتها بالطلاق وهى
تحبنى حباً جنونياً وبلهجة حارة مفتعلة يردف . . سوف أطلقها من أجلك
لأن الحياة بدونك جحيم لا يطاق . . أنت مع رجل دين لا يعرف قيمتك
وهى امرأة بلهاء لا تعرف الحياة . . على كل حال . . سنعيش سوياً مدى
الحياة وكما تعلمين تزوجتها ترضية لزوجته أبها التى كانت وما زالت متعلقة
بى وإن كنت ابتعدت عنها منذ عرفتك . . . كان لا بد لها أن تتخلص منها
لتستولى على ثروة أبها وقد استكتبتها كميالة بمبلغ كبير مقابل هذه الخدمة
وسيكون هذا المبلغ مهراً لك المهم متى أراك . . ما زلت مشوق إليك كأنى
لم أجمع بك منذ لحظات . . . حالا بعد دقائق سأكون عندك . . وعندما
تأهب للخروج اختفت لكيلا يراها فلما انصرف اتصلت بعهدتها تليفونياً
لتأكد من وجودها فى المنزل ولم تكده تنهى من المكالمة حتى طرق الباب
فخيل إليها أن والدها اتصل بها تليفونياً فى القرية وعلم بمقدمها ففتحت له . .
ولشد ما يذهلها رؤية زوج الصديقة الخائنة فتضطرب وتخرسها المباغلة . .
ويقف الرجل فى تأدب ووقار قائلاً . . كنت على سفر وقد حضرت مضطراً

لأننى نسيت بعض أوراق العمل بمكتبى فعلمت أن الأخ فايد سأل عنى فى التليفون فجئت لأراه قبل أن أستأنف السفر وتلتزم الصمت حائرة مضطربة فيردف هل ممكن تكليف الخادم بعمل فنجان شاي لآخذ اسبرين إذ أشعر بصداع شديد . . . أظن فايد لم يزل نائماً ويدخل ليجلس على أول مقعد فى الردهة بجانب الباب فتتركه لتعمل له الشاي وفى سرعة تقدمه إليه مغالبة انفعالها إذ انتابها عدة خواطر بعضها يحفزها بمصارحته وبعضها يثنيها خشية تأثير الصدمة عليه لا خوفاً من زوجها إذ كانت تعرف أنه تقى صالح يخشى الله سرّاً وعلانية وظلت حائرة بين الرغبة والاحجام والرجل يتناول الشاي منادياً بصوت مألوف لدى فايد فلما تكرر النداء ولم يهرع إليه فايد كعادته قال . . . هل تسمحى بإيقاظه يبدو أنه كان ساهراً حتى الصباح ووقف ليضع الكوب على المنضدة فمدت يدها لتأخذها منه وهو قابض على الكوب لكيلا يتعبها وفى هذه اللحظة يدخل زوجها لأن الصديقة أخبرته أنها نسيت منديلها فعاد فى الحال ليأخذه وعندما رآهما الزوج على هذه الصورة . . . ابتسم فى استخفاف ومكر وهو يقول . . . أكنت تصطنع صداقتى من أجلها . . . ومن أجلك تركت القرية لتلتقاك هنا . . . ظناً منها أننى فى الإسكندرية وفى هدوء ينظر إليه الصديق دهشاً وهو يقول . . . هل جننت يا فايد . . . لقد حضرت لأسأل ماذا تريد منى لأنك اتصلت بى تليفونياً وقد آثرت المرور عليك قبل أن أذهب إلى زوجتى فقاطعه فايد بصوت جاف النبرات . . . لست أنا من يستغل . . . ثم اتجه صوب — مسرة — قائلاً ببلهجة التشفى . . . إنك بارعة فى تمثيل دور التقوى والصلاح ولكنك ستدفعين ثمن خيانتك خيانة صديقتك بجانب خيانتى . . . ثم يقول له . . . اطمئن لن أخبر زوجتك حرصاً على حياتك الزوجية . . . أما أنت فحسابى معك بعد حين . . . ونظرت إليه مسرة نظرة تكفى لقتل نفسه إن كان صاحب ضمير حى وقالت فى هدوء وثقة وكبرياء تستطيع أن تظن بالناس جميعاً أى ظن إلا أن تسيء الظن بهذا الأخ الورع النبيل فقاطعها ببلهجة المستهتر الساخر ؟ إلى هذا الحد أنت

جريئة وأنا لا أدري . . تدافعين عنه أيضاً . . يا للمرأة وهنا يقف الصديق
محاولاً أن يماسك أعصابه قائلاً فايد استعذ بالشيطان ولا تدعه يسيطر عليك . .
إن زوجتك عفة طاهرة وبصوت التأثر قاطعه يبدو أن مهمتي أن أقف لأستمع
إلى دفاع كل منكما عن الآخر في مقدورك أن تخرج الآن إذ يحتمل أن تحضر
زوجتك الآن لزيارة صديقتها وبصوت العابث يقهقه مردفاً . . لي معك لقاء
على انفراد وستدفع الثمن غالباً فجهز نفسك وفتح له الباب وظل الرجل واقفاً
مبهوتاً لا يدري ماذا يقول . . وهنا تقدمت منه — مسرة — في احترام وأدب
قائلة تفضل يا سيدي مع السلامة إن الجدل الآن لا يجدي ومدت يدها مصافحة
مكررة مع السلامة ونظر الرجل إلى فايد نظرة عتب وتأنيب قائلاً . . إلى لقاء
يا فايد . . . وأرجو الله أن يغفر لك سوء ظنك وتعود إلى الله بفضل إيمان
زوجتك وانسحب في هدوء وفايد يشيعه بنظرات تنم عن سروره البالغ لهذا
الموقف ليتخذ منه سلاحاً يطعن زوجته به وبعد خروج الصديق واجهته مسرة
قائلة : أتظن أنه مثلك يخون صديقه ليتك مثله طاهراً عفواً حتى الضمير يخاف
الله فليطمئنها على خدوها في قسوة يقول تبرئيه لتبرئي نفسك يا . . . فصرخت
في وجهه لكيلا يتمم كلامه قائلة أيها الشيطان ، لقد عرفت كيف تستحوذ
على قلبه بارتداء مسوح القديس ولا أدري كيف جمعت هذه المرأة بينكما
وكيف قربتني إليها فقاطعتها بصوت كان يهز كيائها من قبل لكنها في هذه
المرّة لم تتأثر . . قال . . لن أتركك الآن حتى تكتبي إيصالا بمبلغ ١٠٠٠ جنيه
أمانة عندك تحت الطلب . . وسكت لأن الهاتف نبهه إلى ما كاد ينساه فتذكر
منديل المرأة فهرع إلى غرفة النوم يبحث عنه فلم يجده وكانت مسرة عثرت
عليه واحتفظت به وهرع إليها يسألها عن المنديل . . فقالت . . لم أره . .
فتقبض على عنقها بيديه وهو يهدد بخنقها إن لم تسلمه إياه فقاومته وهي تقول
بصوت مخنوق اطلبه من زوجها فتقبض على عنقها وقد فقد وعيه
وهي تقاوم حتى طرق الباب في عنف وسمع صوتاً غير واضح النبرات
يناديه فتركها وأغلق عليها باب غرفتها ليرى الطارق فاذا بها زوجة الصديق

تهرع إليه كالمجنونة قائلة : ماذا حدث ؟ لقد حضر زوجي كالمحموم وأخبرني أنه مر عليك ولزم الفراش دون أن يفضي بشيء وارتفعت حرارته إلى حد مخيف وقد خرجت لاستدعاء الطبيب بدعوى أن التليفون معطلا لكي أسألك ماذا جرى ؟ هل اتصلت به زوجتك فأشار إليها بمعنى لا . . وبصوت هامس قال إنها في غرفتها ولم تبرزها بعد فعادت تطالب المندبل فقال سأعرف كيف أخذه منها فاطمئني . . قالت لا بد أنها اتصلت بزوجي تليفونياً وحضر على الفور بعد خروجك . . لأنه حضر ولم ينظر في وجهي مطلقاً وكأنه لا يريد أن يراني . . ماذا أعمل لو طلقني ! ! وليس لي في الحياة سواه فقاطعتها . . ليكن أنسيت أننا اتفقنا على الزواج بعد أن يتخلص كل منا من شريكه قالت متخابثة صحيح . . . ولكن ليس على هذه الصورة . . المهم الآن . . كيف أبريء نفسي . . دعني أدخل عايتها لتهدئة روعها وتلفيق سبب لمحيئي ولكي أصلح بينكما حتى أستعيد ثقة زوجي وذلك من مصلحتك . . ولما فتح الباب لم يجد مسرة وتنبه إلى نافذة الغرفة المفتوحة المطلة على الحديقة فأدرك أنها هبطت منها وأسرع إلى البستاني يسأله وكان لم يلاحظ هبوطها من النافذة ولكنه رآها خارجة من الباب فخرج مسرعاً فراها تنتظر تاكسي فأسرع إليها فلما لحته تحولت عنه وهي تجرى كأن مساً من الجنون أصابها وهو يجري خلفها والناس تجرى خلفه يتساءلون . . ماذا فعلت هذه المرأة وهو يردد . . مجنونة . . . مجنونة وأخيراً يقبض عليها مصطنعاً الأسى والألم وهي تقاوم لتتخلص من قبضته بينما تجمهر الناس حولها واختلطت أصوات همساتهم بعضهم يقول . . مسكينة ترى ما سبب جنونها وبعضهم يقول : . . شابة حارة خسارة وبعضهم يقول . . مسكين زوجها يبدو أنه يحبها وبعضهم يقول . . ما أتعس أولادها وبعضهم يقول . . يبدو أنها تزوجت دون رغبتها وهنا تمر عربة تتوقف أمام التجمهر ليسأل راكبها الزوج ماذا بها ؟ فيجيبه بصوت منغم بالأسى وبالوعة . . مجنونة وتتندى عيني الرجل بدمعة كوميض برق خاطف ثم ينحى زوجها عنها في رفق قائلاً . . خل عنك

أنا الدكتور مؤنس ثم يقدم له بطاقته . . سأصحبها إلى المستشفى فوراً وبحركة
لا شعورية تستسلم له دون مقاومة كأنها تحمد الله الذي بعث لها من ينقذها
من براثن هذا الشيطان وظن الناس أنها مجذوبة عندما رفعت وجهها إلى السماء
تردد . . الله . . الله . . الله وتبادل الناس النظرات مرددين . . إنها مجذوبة
وليست مجنونة .

داخل مستشفى الطبيب

حاول الزوج أن يقنع الطبيب بأنه قادر على أن يعالجها في المنزل وليكن تحت إشرافه إذا شاء حرصاً على كرامته وكرامة والدها ولكن الطبيب أكد له أنه لا جدوى لعلاجها في المنزل ومرت السيارة وسط الزحام وهو واقف وكأن الله سمر قدميه لأمر لا يعلمه إلا الله وهياً ذا الطبيب مكاناً مريحاً في مستشفى الأمراض العصبية التي يديرها لحسابه . . ولزمت مسرة الصمت بعض أيام رغم محاولة الطبيب لتنبيه منطقها حتى ظن أنها فقدت العقل على صورة لم يألفها من قبل على أنه لم ييأس وراح يطالع المراجع عليه يهتدى إلى علاج جديد . . في هذا الوقت اتصل فايد بزوجته والدها مختلفا السبب الذي أدى إلى إنهارها العصبي مبالغاً في تصوير خيانة مسرة عندما فاجأها مع عشيقها في المنزل إذ كانت تظن أنه على سفر كما أخبرها . .

ورغم تكذيبه لأنها على يقين من طهر مسرة وقدرته على الإقراء في سبيل الحصول على المال كما ثبت لها أن زوجته بمسره وراح يهددها بين الفينة والأخرى ليحصل منها على المال الذي يريد على أنها أقنعتة بالوقوف بجانبه خشية منه منتهزة الفرصة لتوقع بين مسرة وبين والدها واصطنعت الحزن البالغ عندما دخلت على زوجها وراحت تردد بعض كلمات ليفهم منها الزوج أن مصيبة حلت بهم ويضطر الزوج أن يسألها عما جرى وتحاول أن تهرب من الجواب لتشعره أنها خائفة عليه من الصدمة وأخيراً بعد إلحاحه الشديد تخبره بما أفضى به فايد ثم تتباكى في تحسر وبلهجة الحزن المصطنع تستطرد : . من أجلك أنت تحمل زوجها الفضيحة وتمالك أعصابه وحاول أن يقبض على عشيقها فهرب من النافذة ومن أوصافه أدركت أنه الشاب الذي كان يمر دائماً تحت النافذة وقد تحدث عنهما الجيران وهنا سكنت عندما سمعت طرقاتاً على الباب وإذا به

زوجها رافقته ليقابل الوالد وفي جعبته من الحديث ما أوحى به إليه وقبل أن يتكلم بدأت الحديث معذرة عن سوء تصرف مسرة متهمة جارة ذا أو صديقة بتغريرها إذ لم تكن - مسرة - قبل الزواج على استعداد لمثل هذا التصرف الشائن . . .

ويتكلف الزوج الأسى والحزن من هول المفاجعة في حين ينظر إليه الوالد بعينين كسيرتين مقاوماً جهل المستطاع انتفاضات كربه ثم يطرق خجلاً متناسياً اقتراف الزوج لجرمة بشعة يستحق عليها السجن ثم يستغفر الله ويتلو بعض آيات القرآن داعياً الله أن يغفر لابنته خطيئتها إن كان حقاً ما يقال مؤكداً للزوج أن الله سوف يثنيه خيراً على احتمال الفضيحة والتستر على ابنته بينما أصطنع الزوج الأسى البالغ وهو يقول . . . كانت نزوة شيطان . . . غفر الله لهما . . . ثم نظر إلى والدها في استعلاء مردفاً . . . أنا مضطر لمغادرة القاهرة فوراً كما نصحني الطبيب ريثما تهدأ أعصابي خشية أن أصاب بالشلل نتيجة لكبت الألم الذي أعانيه في صمت ولزم الوالد الصمت مطرقاً شاعراً بدوار مريع حول الدنيا أمام ناظريه إلى دائرة متحركة لا تتوقف إلا أمام تمثال جاثم أمامه يتشح السواد ليخفي معالم جريمته وهو لا يتبين من هذا التمثال غير ظلال باهتة تتجسم في وجه ابنته ثم تتلاشى وتتجسم في وجه الزوج الجالس أمامه . . . على أن إحساسه الكمين يقصيه عن إتهام ابنته بهذه الجريمة البشعة وبعد مجاهدة غالب نفسه قام إلى خزينته وأحضر له مبلغاً من المال قائلاً وهو يناوله إياه . . . سافر حيث شئت لتفرج عن كربك وتستعيد هدوء نفسك والله يجازي كل امرئ بما صنعت يداه . . . وأخذ الزوج النقود بعد أن رفضها نزولاً على رغبة الوالد مؤكداً له وهو يضافحه لينصرف من أجلك أضحي بحياتي وكرامتي وعندما ودعته نازك عند الباب أكد لها أنه عند وعده بعد أن يرحل العجوز لغير رجعة . وفي اليوم التالي حاول الاتصال بالمستشفى ليستأذن الطبيب كي يزور

زوجته فاعتذر الطبيب بأن حالتها الآن لا تسمح بزيارة أى إنسان لم تنزل فاقدة الوعي . . على أنها فى الواقع استعادت وعيها بفضل رعاية الدكتور مؤنس لها الذى بذل فوق ما يبذله أى طبيب إنسانى من أجل مرضاه وباتت تشعر أنها أصبحت إنسانة جديدة على نفسها وعلى الناس ولم يبق من أعقاب الصدمة غير ضباب يحول بينها وبين تفهم خفايا النفوس البشرية . وعجز المخلوق عن إدراك مواطن مخلوق آخر حتى أقرب الناس إليه فوالدها الذى رباها على الدين والتقوى لم يستطع أن يدرك كنه مأساتها ويوقن ببراءتها فيقاطعها دون أن يسمع رأيها فيما حل بها كأنه منها تبرأ أما نازك الشامة فيها فهي قادرة على أن تغلف شامتها بالعطف عليها ولا تخجل من توجيهها قائلة كان فى مقدورك أن تجتمعى به خارج الدار مادام ذلك يسعدك ولست على بعده قادرة فالحب قاهر ولم تشأ مسره أن تصارحها بالحقيقة وهل تجدى المصارحة ملتزمة الصمت وقد عاودتها مشاعر الكراهية لها وشعرت باندفاع الدم إلى رأسها وغشى بصرها إلى حد لم تعد تبين ما يحوطها وهنا يدخل الطبيب فيهوله تغيرها ويدرك أن الحديث جرى بينهما إلى مالا تريد مسرة فيرجو نازك فى لباقة بالإنصراف فى الحال لإجراء تحليل جديد للمريضة لما أصابها الآن من تغير مفاجئ لا تحمد عقباه . . . وتمر أيام آخر يمنع الطبيب زيارة أى إنسان لها ومسرة تقاوم مغاليه ذكرى الماضى البغيض راضية عن نفسها لبراءتها مقبلة على الله بتفكيرها ومشاعرها حتى بدا للطبيب أنها بدأت تقبل على الحياة من جديد مشرقة متفائلة بعد أن أنست إليه مؤانسة الأخت إلى أخيها ففتحت له صدرها وكشفت بحقيقة مأساتها وخيبة آمليها فى زوجها وبدل أن يدعم سوء ظنها بزوجها دافع عنه ليهون عليها مؤكدا لها أن زوجها ما هو الا ضحية سوء التربية من ناحية والفراغ الشامل الذى يجتاح وقته بحيث مات فى نفسه الشعور بانسانيته وضرورة التزامه بعمل يعود عليه وعلى الوطن بفائدة ما فهو يمثل العدم المائل فى هذا الوجود والكيان المعطل الذى شلت حركته قوى الباطل الهدامه وبأسلوب الإنسان

المؤمن المثالي يطلب منها أن تكون وسيط الدفع الثورى البناء له
لتثبت أنها امرأة جديرة بالانتساب إلى الدين القويم والإنسانية الرفيعة
مؤكددا لها أنها على ذلك قديرة لو أرادت وبأسلوب حنون نفذ إلى
أعماقها أردف أن مهجنتك كزوجة وأم وأخت وحبشية أن تنزعى الفضيلة
من برائن الشيطان . . ولا تنس أن فى أعماق كل نفس بشرية كمين
الخير والشر وكلاهما يقع تحت تأثير اليد الخفية والروح الدافع فكونى
أنت اليد التى تنتزع الشر من أعماقه بخنانك الوفير والروح التى تنمى
الخير كأنها الأم الرعوم التى تتعهد وليدها بأقوم السبل ليكون إنساناً
خيراً . . وبهذا الحديث الشيق تسلل إلى أعماقها مبددا الضباب الذى كان
يغلف روحها المشرقة حتى بانى إليها الحياة وضاعة تنفى بأرج الأمل الحلو .

وهكذا كان ينتهز دائماً الفرصة التى تتيح له محادثتها ليكتسح أساها
ويبدد شكواها غير آبه بما يدور حوله من همسات وغمزات من بعض
الحكميات والمرضات وفى خلال محادثاته معها عرف أنها تميل للاطلاع
ولكى يؤنس وحشتها ويكتسح غمامة الكتابة التى تخيم على مشاعرها قدم
إليها مجموعة من الكتب لكبار الكتاب الذى قلدهم الجهد وسام الخلود
ولم تكد — مسرة — تطالع عناوين الكتب حتى قبلت البعض وردت
البعض وعذرهما فيما رفضت قبوله أنها لا تميل إلا لقراءة ما يمس القلب ويتسلل
إلى الذهن ويؤثر فى الروح شاعرة أثناء القراءة أن بينها وبين الكاتب
تجاوب وتفاهم لا تعرف سببه . . ولا مأتاه كأنها عاشت معه فتره من
عمره منتفضة بانتفاضاته ومفكرة بعقله متخيلة كل ما مر بناظريه كأنه مرآة
عكست مشاعرها وأفكارها ويعترض الطبيب قائلا : أن ما يروقك
قد لا يروق غيرك ولا يمكن للكاتب أن يصور مشاعر وانفعالات الناس
جميعا فتدافع عن وجهة نظرها بضرورة الصدق فى التصوير ودقة عذوبة
التعبير بحيث يشعر القارئ انه طاف مع الكاتب حيث طاف دون حاجز
بينهما وليس من الضرورى أن أقرأ له صورة مطابقة لحياى ولكن يكفى
أن يقنعنى بصدق مايقوله عن الآخرين وبذلك أشعر أنه منحنى زاداً جديداً .

وتلتزم مقلتها ببسمة وهي تردف . . أن مهمة الكاتب أصعب من مهمة الطبيب — . أنت تشخص الداء بعد إرشاد المريض إلى مرضه . . أما الكاتب فهو يغوص بفكره واحساسه وراء اللجة دون دليل ويتسلل وراء المغاور دون مرشد . . لذلك يتحتم أن يجد القارئ في دنيا الكاتب بعض ما يريده أن لم يكن كل ما يريده يكفي أن استمتع بمشاهدة الاضواء الساطعة وأنا حبيسة الآلام المظلمة فيهن على ما أعانى واكتشف بعينى الكاتب المصورة بقلمها وراء البحار من أصداف ولآلى واستمتع بروعة القمر وهو ضوءه على الصحارى ليكشف الاجسام الناعمة النائمة فإذا ألقى شعاعه الفضى على المزارع الخضراء بدت كأن الأرض تفتحت عن جنة تبعث الأمل والرجاء وكم تبدو الاطراف فاتنة عندما يجسمها الكاتب وهي تمر على الشواطئ كأنها مصدر من الحنان هاربة أو مصورا أغاريد الطيور المرفرفة من الفضاء أو النائمة بين الأغصان فى المساء . . وقد تنعشنى نسبات الكاتب كأنها ومضات من النور تقبلنى ورياح قلده كأنها همسات دافئة تعبث بشعرى والدموع التى تعبر عن المواجه الخفيفة والبسات الخفية التى تصور آهات النفس الأبية . . أريد أن أشاهد انعكاسات الصدق فى أروع صورة والكذب فى أبشع مظهره . . بقلم الكاتب . أريد أن أحس أن ما أطلعه كتب بدم القلب لا بمداد مصطنع . . وصمتت لتهند ثم أردفت ، ليتنى . . ليتنى أجيد الكتابة . . لو كنت . . لكتبت قصتى بدمى وقدمتها للناس فى اطار خال من الرواه المصطنع . . وسكنت متأوهة بينا عقب الطبيب . . ثنى بأن لكل مؤلف طريقة عرضه فؤلف يعرف كيف يصوغ المعانى فى قالب يغرى القارئ على التعلق به وكاتب لا يعنيه غير جمع المواد للبناء وصياغتها بأسلوب جاف أو معقد كل ما يهدمه صب الحامة التى جدها فى إناء من المعدن الصفيق أو الزجاج الشفاف ، قالت : قد يكون ذلك وقد يكون ذنب المجتمع الذى لا يقبل إلا على أدب التسلية ملء الفراغ . . كأنه يتسلى باللعب وبعض الكتاب يتدشنى مع رغبة هولاء مغالطا ضميره لكي يعيش فقطاعها وقد

غمره احساس الاعجاب إلى أقصى حد . . . أنت فنانة موهوبة ولو كرست وقت فراغك كله للاطلاع لكنت أديبة ممتازة . . أن الكاتبة المعروفة أديبة الشرق الأولى — مى — رحمها الله . . لم تثل أى شهادة ولكنها أعظم أديبة حتى الآن ولا أحسب أديبة من نالوا أعلى الشهادات حتى الدكتوراه يمكن أن تبلغ من عمق التفكير ودقة التعبير ما وصلت إليه مى قالت : فعلا . لقد قرأت بعض مؤلفاتها وهى فنانة بحق ولو أن كل كاتب تسرى فى شرايينه حرارة النمن الأصيل لاستطاع كما يستطيع فنان النحت أن يصنع من الحديد أو الطين تحفة فنية رائعة كما يستطيع أن يحول الصحراء التامحلة بفنه إلى جنة فيحاء تذبص بالحرارة والنغم . . أنا لا أؤمن بأدب الكاتب الذى يصف الأرض — مثلا مرسما خطا من ساروا فوقها عبر السنين مردداً كالبيغاء صدى ما التقطته أذناه من وراء الأفتى المترك دون أن يأتى بجديد ؟ ولو أنه جاس خلال الأرض مصورا كل ماتمه قدماء أو تلمسه عيناه أو تتأثر يدها معتمدا على فكره واحساسه دون أن يخشى حاكم مواريا جريمة مامرضاة له . . وهذا ابتسم ليلاطف من حدة ثورتها النفسية التى بدت فى عينيها بريقا أخاذا . . . لو قرأت كل ما أخرجته المطابع منذ العاشر من رمضان والسادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ لقرأت كل ماتمفو إليه نفسك . فقطاعته . . تعنى أن نصر رمضان أشعل حماس الأديب فانتفض ليحرك الضمائر وينبه الوجدان ويشير فى النفس عزما لم يكن فى الحسبان وإن كنت أعزى ذلك إلى الايمان الذى وجد بين العرب وبدد الحقد والبغضاء وزرع بذور الحب والصفاء فى أرض كانت بالأمس قاحله جدباء ثم أصبحت بعد النصر وفيرة النبات والرواء وتأوهت مردفة لكم كنت أتمنى أن يكون للكتاب الأحرار فضل السبق فى تقويم الشعب ويقتطع الضمائر وإزاحة ستار الظلام عن النور الذى بدا مع النصر كأنه وليد الساعة . . أن فيهم من المؤمنين ما ينخر الإيمان بهم ولكن مع الأسف لم يستطع أحد قادة الايمان أن يصد الملاحدين ليحوّلهم بدافع قاهر من إيمانه إلى مؤمنين مخلصين أما

اليوم فإيمان أبطالنا الفرسان أثبت قدرة الجندى العربى إقاهر الطغيان . .
وأراد أن يغير مجرى الحديث ليخفف من شدة هجومها على الادباء فقال
بلهجة الاستفتاء . . لو أتيح لك أن تكونى حكما لانتاج الأدباء فنن تتوجين
انتاج العبقرية والنبوغ ؟ فقالت بنبرة حزينة احتكم للضحية ثم استلهمها
خفايا العبقرية فهز رأسه دهشا وقال : ومتى كانت الضحية مقياسا للعبقرية ؟
قالت : لولاها لما تفتح الذهن عن فكر محتجز : قال متحديا : كم من ضحايا
تستحق الشق ؟ قالت فى استنكار لاتسمها ضحية إذ الضحية هى المغلوبة
أعلى أمرها ولزمت الصمت برهة وهى تنظر إليه فى عمق ثم قالت : دكتور
كم من الضحايا لك ؟ فابتسم ابتسامة ثم عما مر بخاطره من وراء هذا السؤال
ثم قال : صدقنى الشئ الوحيد الذى أباهى به إننى لم أجن على امرأة فى
إحيائى . . قالت بصوت ناعم النغمت . . . وهل من الضرورى أن تكون
الضحايا من النساء ؟ قد تكون حشرة قتلها نعلك وأنت لاتدرى ، قال :
ليس لنا حيلة فيما لا بد منه ولا أظن الله يأخذنى بذنب لم أتعمده — وهنا
دخلت الحكيمة الحبيثة قائلة . . الدكتور فتحنى أمر باخلاء غرفة السيدة
— مسرة — مادام تم شفاؤها فنظر إليها الطبيب فى غير مبالاة وكأ أنه عليم
بسوء نيتها قائلا . . إنها لم تنزل فى حاجة إلى الرقابة الطبية قوى له يطلع
إلى أرشيف الصباح وانصرفت الحكيمة على مضض فقالت مسرة هل
من حقه ذلك وأعلم أن العيادة خاصة بك . . قال : أنه شريكى وينص
العقد المبرم بيننا على أن يتصرف كل منا دون الرجوع إلى شريكه مادام
ذلك فى مصلحة العمل إلا إذا اقتضى الموقف الرجوع إلى الشركة . .
وبلهجة لطيفة أردف : قد تكونى سئمت الإقامة هنا ، لكن يتحتم ألا
تغادرى العيادة ألا بعد إجراء تحليل شامل للتأكد من صحة العافية ولكى
يغير مجرى الحديث قال : فيم كنا نتكلم ؟ قالت : لقد نسيت . . قال :
الذن لن أسمح لك بالخروج إلا بعد عدم نسيان أى شئ — . وأطرقت
عليها لتخفى دموعها المنهمرة ثم رفعت وجهها على أثر قوله . . . ترى

ماباعث هذه الدموع ؟ قالت لا أدري بالضبط وبلهجة جادة أردفت :
تصور أن الانسان يعيش وفق إرادة خفية وإن أسموه حراً . . أنا وأنت
وكل كائن تربطنا بالحياة إرادة خفية أقوى من الحياة نفسها . . ثم ابتسمت
متهمكة في مرارة قائلة ونباهي بأننا أحراراً ويبدو أن الحرية التي نتعشقها
ونبذل الروح في سبيلها ليس لها وجود إلا في خيالنا . تضنى عليها مشاعرنا
أضواء تجعلها فتبدو لنا رائعة خلابة . . الحرية اسم جميل حقاً . . كالحب
مثلاً من أروع المسميات وأشجاها نغماً وأرقها معنى ومع ذلك نسعد بالحب حقاً ؟
كما نأمل !! انه مصحوب بالدموع والحرمان والضنى والاسى والغيرة ،
ومع ذلك نستمتع بهذه المشاعر على اختلاف نبضاتها ونظمها من مستلزمات
الحب المشتهاه ، والدمع هو الدمع ولكن دموع الحب تبعث في النفس مشاعر
غير ما تبعثه دموع الكراهية فالسر في تصور الإنسان وفي المعنى الخفي الذي
نشعر به ولا ندرك كنهه أليست اللحظات القصيرة أو الطويلة التي نحظى فيها
بالحب هي التي تملأ فراغ حياتنا كلها بالذكريات . . قبل الحب نحلم به ونتمناه
ومن الأحلام والاماني نستشعر بما تتيحه أخیلتنا من رؤى الخلو ورغم أحساسنا بأننا
ما زلنا نعيش في هذا الوجود . . !! . فاذا رلى الحب بعد عمر قصير أو طويل
عشنا مع الذكريات مستمتعین بانتفاضات هذه الذكريات كلما مسها الخيال
الذي يربط بين الماضي والحاضر ونحن أبداً ندور مع كوكب هذا الخيال
الذي يصل أبداً بين ما فات وبين ما هو آت وسكنت لتتنفس الصعداء
وبها رغبة لتسمع رأيه فيما قالت فلم يتكلم وظل ينظر إليها مشدوها في تهييب
وقداسة فعادت تقول ظناً منها أن ما قالته في حاجة إلى الإيضاح أنت حر
ولكنك مقيد بالنظم والتقاليد والقانون وكل رباط يصلك بالمجتمع والدين
فقاطعها بصوت هادئ إذ وجد ثغرة تبيح له الكلام . . لا بد من ذلك
والا اختل نظام الكون والحياة نفسها تمضى في طريقها المرسوم لها منذ الازل
فعلقت . . صحيح . . فصول السنة . . توقيت الزمن دورة الأفلاك

ومسيرها على اختلاف مسمياتها ومراكزها كلها تسير تبعا لنظامها المرسوم
عند الإنسان يحاول أن يتمرد على النظام الأرضي والقانون السماوي وقد
يسوقه التمرد إلى الضلال فيتطاول متناسيا أنه مخلوق ويسأل خالقه لم ؟ ولم ؟
فيقاطعها قد يكون التساؤل بداية تفتح القلب للاستغراق في الملكوت الأعلى
فيود لو يعرف كل شيء ليزداد حبه وعبادته لله فابتسمت وكأن هدير الحمام
استقر في حجرتها لحظة ثم قالت : مع الأسف لم يستطع واحد أو أى إنسان
ارتفع بوعيه الديني إلى مصاف الأولياء أو الحكماء وأن يجعل من تقواه أو حكمته
سلطانا يسيطر على الأمة التي ينتمى إليها مكتسحا بقوة كقواه كل مفسد
المضللين قد يكون الصوفي حكيم دين والأديب حكيم الفكر والقائد حكيم
سياسة والفيلسوف حكيم اجتماع وحتى الآن لم تسفر حكمة هؤلاء جميعا عن
تشريع ارتفع بالإنسانية إلى ما فيه الخير للجميع فتتألف الأرواح وتتجانس
القلوب وتتفاهم العقول وتسمو النفوس ويتجرد ذلك كله من الأثرة والأنانية
متى يلين شعبنا لهذه المثل متى ورغم تقديره بوجاهة منطقها قاطعها : أنسيت
أن في بلدنا من استطاع أن يتجه بالشعب كله للعمل من أجل الخير للجميع
فشاع الاشرار على وجهها وقد ردها إلى ما غاب عنها فقالت : تعنى الرئيس
المؤمن ، اعترف أنه وحد بين الشعوب لأن الله معه ولم يحاول أن يستعلي
بوقوفه فوق القمة بل لمس الأرض بقدميه ولم ينشر بين الناس أزهير الحكم
معطرة بشذى الأمانى ليقال أنه من الحكماء ، ولكنه ولد وتنفس الهواء مشوبا
بأنفاس المتاعب فعرف مصدر التعب وكيف يقضى عليه . . . ثم درج وعاش
بين الصفوف جنديا وحارب بين الدروب والادغال والكهوف في فلسطين
ولم يشأ أن يجلس على مكتب يمر بقلمه في هوادة أو غير هوادة ليشير إلى
ما يريد وما لا يريد ولم يشغل ذهنه بمرور عجالات الشهر بأقصى سرعتها
ليتناول مرتبه الذي يزداد كلما امعن في النفاق ويقف حيث هو أن لم يحسن
الرياء ، ولكنه واجه أعاصير الحياة معتصراً قواه ليعرف كيف يثير الحب
في النفوس مؤمنا بأن الحب وحده كاف لانزعاج كل سوء من كلمته ليلقى
على الناس أصدق بيان للقيادة الحقيقية ، القيادة التي تعاف الكلام بقدر

ما تتمسك بالعمل في سبيل تحقق اسمي الأمانى . . وبحركة لا شعورية جذب
يدها في حرارة كأنه يبارك روحها قائلاً . . حسب السادات أن تتسلل رسالته
إلى المجتمع بواسطة امرأة مثلك . . ذلك يكفي لخلق مجتمع متكامل وهنا يسكت
مترقبا الممرض الذي أقبل عليه ليعلن مقدم والد مسرة لزيارتها ووجد ،
الطبيب الفرصة مواتية ليتحدث إلى الوالد بعض الوقت بعيداً عن ابنته وقبل
أن يأذن له بزيارتها خرج ليستقبله في مكتبه بعض الوقت كي يؤكد له ما سبق
أن ذكره أثناء محادثته التليفونية عندما اتصل به مؤكداً له براءتها وإلزامه
برعايتها وحمايتها . . وريعت مسرة لمقدم والدها وغابت في دوامة الخوف منه
ولا تدري ما عساها تقول بعد أن قاطعها هذه المدة وقبل أن تستفيق من غيبوبة
مشاعرها الحائرة دخل عليها الوالد ثم أسارير وجهه عن الرضا والارتياح
وصارحها بدعوة الطبيب إليه ليشرح له حقيقة الموقف لإثبات براءتها ولم
تشأ أن تثير تفاصيل ما حدث مؤكداً له أن تربيتها وما غرسه في نفسها من
إيمان كان ذلك درعها الحامي من كل سوء وأخذ عليها والدها كتمان
ما حدث لها منذ تزوجت فلو فعلت منذ البداية لعرف كيف يحميها فقالت
كنت أتمنى أن أخلق منه رجلاً شريفاً وبدافع هذا التمني وطنت العزم على أن
أحول طاقته الشريرة إلى طاقة خير وعمل كي يشارك في بناء مستقبل وطننا
العزیز وغلبتها دموعها فهزت رأسها نادمة على عمر مضى بجواره دون جدوى
وبلهجة الإيمان الصرف أردفت لظالما دعوت الله مخلصاً في ضلالي أن يحول
تيار قوته من الشر إلى الخير موقنة بأن الله يختبر إيماني بقدر صبري واحتمالي
ولظالما تمنيت أن يرتد إلى الله وأن ينأى عن الأثم بمحض إرادته سعيدة بقدرتي
على مغالبة المعصية وتخطي مراحل الاختبار الإلهي بتفوق ثم ابتسمت وقد شاع
نور الإيمان على وجهها مردفة ألا تراني قد نجحت بتفوق في ردع الشيطان
يا أبني؟ لو رأيتني كيف قاومت وصارعت المعصية حتى صرعتها لهنأت نفسك
بأبنتك . . لقد وضعني الله في بوتقة محرقة ليجد مدى إيماني . . وخرجت

من هذه المحنة أقوى إيماناً موقنة بأن الله قبلى فى مصاف عباده الاتقياء . . .
فله الحمد والشكر وسكنت لتنهى تم راحت تكرر الحمد لله بينا مال والدها
على وجهها ليقبلها قائلاً . . . حقاً يا ابنتى لقد نجحت بتفوق وفزت بنشان
الاستحقاق الذى يؤهلك إلى أعلى مراتب القديسات فى الدنيا وأولياء الله
المقربين فى الآخرة بعد عمر طويل وبصوت الرجاء تقاطعه - متى تخلصنى منه
إذ لا فائدة فى اصلاحه كتب عليه أن يكون شقياً - فيقاطعها - قل الله يهذى
من يشاء . . . وهنا ارتعشت شفاتها ونمغمت . . . هل ستركنى بعد ذلك ؟
غربت على خدها مترفقا بها قائلاً لن أرغملك على البقاء بجانيه ، لك مطلق
الحرية فى التصرف بما يكفل لك السعادة على أى وجه يرضيك ويصمت
لحظة ليقاوم إنفعاله الداخلى الحزين ثم يتنهى كأنه ينفس عن همه الدفين مبتهلاً
إلى الله بصوت خفيت أن يحفظ ابنته ويقبها من كل سوء ويصمت ليصغى
إلى الطبيب الذى دخل عليهما ليقول موجهها الحديث إلى مسرة لقد حضر
زوجك للطمئنان عليك ورغم الحاحه واصراره على ضرورة رؤياك أقنعت
بأن زيارة أى إنسان لها الآن تضرها وانصرف مرغماً مهددا ينشر دعاية
ضدى . . . ويتسم معلقاً . . . ليت نشرها فى الصحف لتكون اعلاناً لى مجانا . . .
وينصرف راجياً من الوالد ألا يغادر العيادة الآن فقد يكون مترصداً فى الخارج
إذ يحتمل أن تكون إحدى الممرضات أخبرته أنك هنا . . . وتنهى مسرة
الفرصة لتصور لوالدها مدى الجهد والعناية التى بذلها الطبيب فى سبيل
شفائها موعزة إلى الوالد بتقدير العلاج تقديرأ مالياً أكثر مما يطالب الطبيب
وتعترف بأنها لم تر فى الحياة رجلاً شهماً نبيلاً خيراً مؤمناً مثل هذا الطبيب
وتنهى متحسرة قائلة . . . أنه ملاك . . . فغربت الوالد على خدها معقباً . . .
من أجل أمثاله خلقت الجنة . . . وتعلق . . . ومن أجل الشيطان خلقت النار وهنا
يدخل الدكتور فتحنى وبلهجة جافة يحى الوالد وبعد أن يقيس نبضاتها
يقول لها بصوت ينم عن تحدى الدكتور مؤنس أهنتك بالشفاء التام
يمكنك الخروج فوراً مع والدك الآن . . . ويفرح الوالد ويحمد الله

ويوجه إليها الحديث . . هيا يا ابنتي استعدي للخروج معي الآن فتنظر إليه بمعنى : أنسيت مقالته الدكتور مؤنس . . ويتذكر الوالد فستوقف الطبيب الذي أدار وجهه ليخرج قائلاً . . أظن من الواجب أن أقدم الشكر للدكتور مؤنس فإذا سمحت فيقاطعه سوف أبلغه ذلك وكشف الحساب عند المختص والدكتور يمر على المرضى الآن خارج العيادة ويغادر الغرفة قبل أن يدع له فرصة للكلام وعلى أثر خروجه تدخل الحكيمة الحبيثة تتبعها المريضة ويقومان بعمل بعض التعديلات في الغرفة إيزانا بخروج مسرة واستقبال مريض جديد وكان لابد أن تخرج مسرة بمرافقة والدها الذي دفع حساب العلاج حسب تعليمات الدكتور فتحى وعندما تخلص مسرة بوالدها على باب العيادة الخارجية تطلب منه أن يسمح لها بالذهاب إلى عمته لكي تباعد عن زوجته إذ تخشى أن يعاودها المرض راجية منه ألا يخبرها بمغادرة مسرة المستشفى كأنه خرج تاركاً إياها هناك وحقق لها أمنيتها وتركها عند عمته بعض أيام آخر ريثما يتقرر مصيرها راجياً الله في توسل أن يساعده على توفير أسباب السعادة والطمأنينة ولم تكذب تستقر مسرة في بيت عمته حتى شعرت بأنها ولدت من جديد وبدأت الحياة جميلة في ناظرها تغرى على التعلق بها مستعيدة ذكرى إقامتها في عيادة الطبيب متخيلة المرضى أطياف هربت من جحيم الدنيا إلى جنة النعيم بفضل ما يسبغه عليهم الطبيب مؤنس من حنان وعطف ورعاية وراحت تفكر في مصيرها بعد خروجها لقد ألفت حياتها هناك والآن تبدو والحياة بدون طبيبها والمساعدين له المخلصين خلوا من الإشراف الذي كانت تنعم به كأنها تعيش مع ملائكة رحمة هبطت من السماء ولعلها لم تأسف لشيء بقدر أسفها الآن لعجزها عن الكتابة بأسلوب جدير بتصوير ما تكنه لهؤلاء من إعزاز وتقدير لافرق بين من قام على خدمتها أو لم يقم . . إنهم جميعاً في ناظرها رسل الإنسانية . . . حتى الدكتور فتحى الجاف لم تأخذ عليه قسوته مبررة ذلك لكثرة الجهد الذي يعانیه، في هذا الوقت يعلم الدكتور مؤنس من ممرضة كانت تألف مسرة وتوليها اهتماماً

خاصا مغادرتها العيادة بناء على إصرار الدكتور فتحي . . . وصعب عليه أن تخرج مسرة على هذه الصورة ودون أن يطمئن على صحتها على الأقل . . . وأخذ على زميله تصرفه هذا وحدث بينهما مشادة كادت تفسخ عقد عملهما المشترك وتقضى على صداقتهما منذ عهد طويل . . . واضطر أن يتصل بوالدها تليفونيا ومن سوء حظه خاطبته الزوجة فانتحل شخصية واغب في إيجار شقة في ممتلكاته وتوسمت في صوته رقة ولطفاً . . . وحاولت أن تشعره بأنها صاحبة الأمر وحددت له ميعادا لكي يقابلها في منزلها مشيرة في سياق حديثها أن زوجها على سفر قد يطول بعض أيام وأراد أن يسايرها ليختبر نفسيته فطلب منها أن يرى الشقة الحالية فأعطته عنوان الشقة التي كانت تقيم فيها مسرة مع زوجها مطمئنة إلى أن مسرة في العيادة تحت العلاج وزوج مسرة سافر في الصباح إلى الإسكندرية كما أفهمها في التليفون وفي الميعاد المحدد أيقن أنها الآن في الشقة الحالية تنتظره فاتصل بوالد مسرة تليفونيا ليتأكد إن كان على سفر حقاً أم لا فإذا لم يجده يستعين بالخدام على معرفة مقر مسرة . . . ولشد ماسره مخاطبة الوالد الذي صارحه بأنها عند عمته بعض أيام ريثما يفكر في تحريرها من زوجها . . . وفوجئت مسرة بمقدم الطبيب عند عمته وبدأ حديثه بالاعتذار عن تصرف الدكتور فتحي بدعوى أن إرهاقه في العمل ليل نهار يدفعه إلى القسوة حتى على نفسه ثم يسألها عن صحتها وينهى حديثه بقوله أرجو أن تولى نفسك اهتماما كأنك تهتمين بأعز إنسان لديك مشرقة الروح مطمئنة القلب وهما كفيلا بحماية جسمك وعقلك من كل سوء وأنا على يقين بأنك إذا غالبت قلق نفسك وفزع روحك فلن يعاودك ما أصابك أبدا . . . ولأول مرة تشعر أنه شدها إليه وكأنها وقعت تحت تأثير ساحر شاعرة باحساس جديد لم تألفه من قبل يمس قلبها مساً رقيقاً لطيفاً بعث في صدرها حيوية متدفقة وسكب في قلبها حرارة تحس معها بنشوة عجيبة ولما هم مستأذنا

لأنصرف انتفضت كأنها استفاقت من حلم جميل وقالت : أشكر لك
نبل عواطفك غير أنني اعتقد أن الأمن الذي تدعو إليه يكاد يكون مستحيلا
مادمت مرتبطة بمن أسمىه زوجي وإن كنت اعترف في غير مبالاة بأنني
لم أعد أشعر في قرارة نفسي بصحة الرباط الشرعي الذي جمع بيننا وقطعت
حديثها لترد على التليفون فإذا بها صديقة لعمتها تطلب مخاطبتها . . وبعد أن
تحدثت العمة أرسلت خادمها لشراء جريدة المساء وأخبرت مسرة بحديث
الصديقة وكان لابد أن تنتظر الطبيب بناء على رجاء مسرة ريثما يطلعاعلى الجريدة . .
ولشد ماها لها هذا الخبر . . واختطف الطبيب الصحيفة من يدها خشية أن
تصاب بسوء عندما لاحظ ارتجاف أطرافها وارتعاش شفيتها عندما حاولت
الكلام وصعب عليها . . وقرأ الخبر و . . فصعق وردد في ذهنه أترأها . .
عرفتني وكانت تريد أن توقعني في الفخ . . وتنبهت مسرة وسأله . .
ماذا تعني يادكتور قال وأنفاسه تخفق كلماته . هذا المنزل كنت بدعو
إليه منذ ساعة بدعوى أنها شقة خالية للايجار . . فريعت وقالت . . إنها
مسكني فمن التي دعوتك . . فقص عليها وقد استعاد هدوءه وتماسك
أعصابه . . ما جرى بينه وبين زوجته والدها . . فقالت . . وقال الله كل
سوء ومع انهيار دموعها أردفت بصوت يرم عن الفزع كأن ماتخشاها وقع . .
تصور أنك وأنت لا تدري أن النذل كان يستعمله للقمار والدعارة . .
في هذا الوقت ذهبت نازلك حسب الميعاد ودخلت الشقة ترقب مجيء من وعدته
ولما طرق الباب أسرع إلى ظناً منها أنه هو فإذا بشاب من المترددين
على المسكن من رفاق زوج مسرة وظنها الشاب جاءت بدعوة من صاحب
المسكن لتجالسه ريثما يجتمع الرفاق وأقبل عليها يقبلها ويعانقها قائلاً أحسن
صاحب الاختيار هذه المرة وقبل أن تنهره وتقصيه دأهمها رجالان من شرطة
الآداب وقاداهما إلى الشرطة . . وغاب الطبيب لحظة وقد السرح خياله

فيما لو ذهب ماذا تريد المرأة منه .. ونهته — مسرة قائلة — .. الله معي .. ولن يتخلى عني ... أشعر بذلك .. أعتقد الآن أنه من حق أن أطلب الطلاق فوراً .. قال تريثي .. فقد يبرئه القانون لأنه لم يضبط متلبساً بالجرمة قالت في حدة .. إذا صح هذا فإن أعتمد على القانون الذي لا ينفذ تعاليم الأديان السماوية فالشريعة أحياناً لا تجيز ارتباط زوجين دون وفاق قال مادام الله معك فهو حاميك وفي سخط بالغ تردف : لشد ما احتقر هذا القانون العاجز عن حماية الأضهار فقاطعتها ليلطف من حدتها القانون بحمي الأزواج من العواصف والزلازل فكلمة الحب التي تجمع بين الزوجين لا تمتاز عن كلمة النفور التي تفرق بينهما ودليل واضح فالزواج الشرعي المكفول بحماية القانون لا يتطرق إليه الفشل السريع ولا تعصف به العواصف المادية أو العاطفية بمجرد أي خلاف بين الزوجين في حين أن الزواج العرفي يكفي أي تصرف للفرقة دون خوف من القانون فيتخلى الرعيل عن المرأة أو تنتكر المرأة للرجل بدون مبالاة وكم من مآسي كشفت عنها القضايا بسبب الزواج العرفي وأظنك توافقين على أن الزواج إذا لم يكن مكفولاً بالحب الأبدية والثقة التامة والتفاهم الكامل فلا أمل في تخليده .. ثم ابتسم مستطرداً :

لقد تحدثنا فيما لا يعنيننا .. المهم على الإنسان ألا يتشامخ وعليه مواجهة الحياة ، بخيرها وشرها ... ثم نظر إليها في حنان وبشرة مفعمة بأنفاس العطف أردف . وأنت بالذات يجب أن تديرى وجهك عما يشتر الآمل ومتاعبك وإن كان لا بد أن تواجهي الشر إن كان ثمة شر تواجهك فواجهيه بشجاعة وتحدي لتتصري عليه ولكيلاً يقف القانون أو كما سمعته بالقدوس الأرضي بجانب الشرير إذا لم تتصدي له وتكشفي خفايا شروره وهنا فقاطعتها بصوت منخفضة العبرات .. وهل ذلك ممكناً ؟ وكيف والشر أقوى أقوى من الخير كما يبدو لي فقاطعتها بصوت جاد . انصبر للخير أبداً مهما طال الصراع بينهما مادام الكفاح من أجل الخير وسمو الغاية قد مدعت عينها وهي تقول لا تتكلم باغة أهل الدين بل تكلم باغة الواقع . . .

أنا مثلاً : لقد قاومت كثيراً بعد أن صبرت على بلاء أمر من البلاء فدفعني
الصبر إلى كارثة لولاك لكنت مازلت بين جدر مستشفى الأمراض العقلية
فابتسم في وداعة ليلطف عنها قائلاً : إذا فكرت قليلاً أدركت أن
الله لم يتخل عنك وهو الذي وجهني إليك مع أن الطريق الذي مررت
به يومئذ لم يكن طريقى ولقد تحولت إليه مرغماً عندما وجدت طريقى مغلقاً
لأمر ما وكأنه بهذه اللفتة العابرة مس شغاف قلبها فمر بخاطرها
في التو الأيام الهائلة التي لم تنزل تنعم بتخيّلها في رضا وارتياح وقالت
صدقت فعلاً لقد عوضني الله خيراً أنني لم أشعر عندما كنت في
عيادتك أنني مصابة بمرض نفسي بل كنت استشعر بأنني أطوف عوالم
لم تمر بخيالي من قبل سعيدة بتنقية تفكيرى من غبش الأوهام وانطلاق
روحي بعد أن ظلت حبيسة الآلام طوال ما مر من عمرى وسكنت لتصغى
إلى الخادم التي أقبلت لتقول لها .. ان زوجك يسأل عنك في التليفون فإذا
أقول له .. قالت : قولى له أن سيدتى عمتها لاتعرف غير أنها عند الدكتور
مونس في عيادته ولم تتصل بها منذ أيام لأنها كانت غائبة في البلد ولم
تحضر غير صباح اليوم وبعد أن تستريح تسأل عنها .. وعلى أثر انصراف
الخادم ابتسم الطبيب وقال ، هأنت كذبت فقالت .. أحياناً نضطر
للكذب ولا أحسب ذلك كذباً لأنه لا يضر أحداً ويحمينى من الشر ولقد
قبل الوقاية خير من العلاج ثم دمعت عينها وأطرقت لتخفى خلجات
ماضيها الحزين فد يده في رفق على ذقتها ليدفعها قائلاً ما الذى مر بخاطرك
فغالبت دموعها وهى تقول . : ذكر الكذب يعيد إلى ذهنى ذكرى
مأساتى فقد كانت أكذوبة مأساة شنيعة عرف صاحبها أن يمثل دور
الصدق في أجمل صورة وفهم ما ترمى إليه فترفق بها قائلاً هوئى عليك
فسوف تنتهى مخاوفك بإذن الله يتحقق ما تصبو إليه نفسك — فجربنى
قدرتك الخلاقة يامسرة ولا أحسب إلا أنك بالغة أملك المنشود وقد يعود إليك

زوجك صالحا خيرا فقاطعته بحرقه وصوت داعم : : تصور ذكر
كلمة زوجي تحز في نفسي وتدفع الأسى مقرونا بالدمع في عيني ،
لكم كنت أتمنى أن تنطلق أسمى المعاني وأجملها إذا ذكرت قال في إيمان
وسيكون ذلك إذا شئت يامسرة . . فحاولي مرة أخرى ولا تيأسي
من رحمة الله قالت لقد حاولت المستحيل حتى أيقنت أن من ينشأ
في الأوحال لا يمكن أن يرتفع عن الأرض فعقب الطبيب ألا يحتمل
أنه استقى من ينبوع ملوث بالضلال فقربيه أنت ينبوع يستقى منه
ما لم يتذوقه من قبل أذبي فيه حنانك وحبك وإيمانك وسوف يستعذب
مذاقه ويقبل عليه وينظر الطبيب في ساعته فإذا بالوقت يحتم عليه الذهاب
فورا إلى عيادته فيتصل تليفونيا للاطمئنان ولكنه يفاجأ بحالة تستدعي
الذهاب على عجل فيستأذنها راجيا أن تطمئنه على صحتها من آن لآخر ويودعها
راجيا لها الصحة والطمأنينه . . وعلى أثر خروجه تستدعي مسرة تليفونيا
صديقتها لتسرى عنها وبعد حضور الصديقة يدق التليفون فتجيب الصديقة
فاذا بالمتكلم زوج مسرة ليسال عنها فتجيبه الصديقة إنها هنا والحمد لله
صحتها تحسنت مبروك وتفزع مسرة إذ لم تكن تفضي إلى الصديقة بما
ألم بها من قبل كما لم تنبهها إلى نكران وجودها إذ لم تتوقع مخاطبته مرة
أخرى . . وسرعان ما تفاجأ مسرة بمقدم زوجها يرافق زوجة أبيها إذ
خرجا بعد التحقيق بكفالة وتصعق مسرة ويخونها النطق فلم تتكلم في
حين تقبل عليها نازك تقبلها في شوق مصطنع ثم تنحى تاركة لزوجها فرصة
لاظهار شعوره وحاول أن يعانقها في شوق ولكنها ردتته في نفور محولة
عنه وجهها ولكنه طوقها بنراعيه رغما عنها قائلا : حمدالله على سلامتك
لقد اطمأن قلبي لقد عاد إليك إشراقك وجمالك ويأخذ مجلسه بجانبها مردفا
سأصلي لله حمداً وشكراً وبصوت الهكم اللاذع قاطعته . . ليس هناك
ما يدعو لتكرار التمثيل أنت لا تعرف الله فلا تذكر اسمه على لسانك
وهنا استأذنت الصديقة مهيئة إياها بالشفاء على أمل أن تعود بعد أن

تتصل بها تليفونيا واصطنع الزوج التغاضي عن نفورها واحتقارها قائلاً
 بلبهجة كأنها صادرة من الصميم : لقد غفرت لك كل شيء : واعتزمت
 أن نفتح حياتنا بيضاء فمظرت إليه شذرا قائلة : لقد انتهى ما كان
 بيننا وهنا تقاطعها نازك — عني الله عما قد سلف وكل إنسان معرض
 للخطأ أن زوجك يعبدك وقد نذر الله أن يقيم حفلا بمناسبة شفاذك
 فامتقع وجه مسرة وبلهجة الغضب . . قالت كفى ما لقيت من الحفلات
 وبلهجة الدهاء تقول — نازك — أنسيت أن ميلادك بعد ثلاثة أيام ولقد
 أعددت بمعاونة زوجك كل ما تحبين لنحتفل به وفي سخرية لاذعة تقول —
 مسره — ومتى احتفلتما بميلادى لقد كنت احتفل به قبل زواجى مع عمى لأنك
 عارضت والدى عندما أراد أن يحقق رغبتى للاحتفال به مع بعض صديقاتى
 بدعوى أن ابنة عمك توفيت ولا يليق ترديد الأغاني . . أوه لا داعى لذكرى
 الماضى وأول ميلاد بعد زواجى قضى من اسموه زوجى طوال النهار كعادته
 نائما وقضى الليل مع رفاقه ساهرا فيما لا يرضى الله . . وعز على أن أنبهه إلى
 عيد ميلادى فاحتفلت به وحدى على قبر أمى باكية . . ثم تحرك يدها كأنها تبعد
 عن ناظرها شبحا خفيفا مغممة بشفتين مرتعشتين مبللتين بالدموع . . أرجوك
 لا تشرى ما مضى وهنا دخلت العمة فراعتها وجه مسرة الشاحب وأثر الانفعال
 البادى على جبينها ولم تكن قبل مجيئها مغممة فدنست منها قائلة لقد سمح لك
 الدكتور بالخروج على شريطة أن تستريحى ولا تتكلمى الا لما ثم التفتت
 إليهما مردفة . . انها مازالت تحت العلاج ثم تساعدها على الاضطجاع بعد أن
 تهىء لها الوسادة مخاطبة الزوج يمكننا أن نجلس فى غرفة أخرى لكى تستريح
 إذ أخشى أن تعاودها الحالة الآن لأن البرودة بدأت تنسرب إلى أطرافها . .
 قالت ذلك بصوت هامس ينم على الخوف عليها : . . وتتحرك نازك قائلة . .
 لقد اطمأننا عليها والحمد لله . . يجب أن أعود إلى المنزل لكى اطمئن والدها
 لأنه قلق ولم أشأ أن أكلفه مشقة الحجى لان حالته الصحية فى هذه الأيام متأخرة
 فتبدى أخته الفرع فى تكلف قائلة . . سأحضر لأطمئن عليه بعد أن تحضر ابنة

أختي لترعى مسرة . . فتقول نازك . . لا تتعبي نفسك . . سوف أصبحه
إليك غداً ان شاء الله ويصبح زوج مسرة نازك فيتحدثا على انفراد وقد
نصحته بعدم استقبال أى أحد فى منزله إذ لا شك ان المنزل مراقبا فيبدي
موافقته ثم يجلسا على مقهى بعيدا عن أنظار معارفهما وفى سياق حديثه يحاول
أن يقنعها بضرورة التخلص من زوجها ليتصرفا فى ثروته قبل معاقبة ابنته . .
وترفض — نازك — لأنها لم تتعود قتل إنسان كما أنها واثقة من قرب منيته لأن
صحته فى تأخر مستمر ويبدى أسفه لحياة أملها إذا أطال الله عمر الوالد أكثر مما
كانت تتصور وخاب ظنها بعد أن اتفقت معه على أن يتزوج مسرة ثم يتخلص
منها بعد وفاة والدها ويتزوجها بعد الحصول على الثروة وتجد نازك أن الكلام
فى هذا الشأن الآن لا يجدى كما تلحظ أن الوقت أزف فتتصرف على ميعاد
ويدهش الوالد عندما يخبره أنها ذهبت لابنته فى العيادة فعلمت بخروجها
وبالصدفة حضر زوجها ليسأل عنها وعلم أنها تقيم فى بيت عمتها . . وكان
لابد أن أرافقه خشية ان يحدث بينهما ما لا تحمد عقباه وقد استطعت أن
أعيد الحب إليهما ولقد أراد أن يصحبها الى منزله ولكن عمتها رفضت
حتى تسترد صحتها كاملة على أنها أصبحت موفورة الصحة والعافية
ثم تبدى رغبتها فى ضرورة الاحتفال بميلادها بمناسبة شفاؤها واقترحت
أن يشتري هدية ثمينة يقدمها إليها فلما يوافق تقول . . وأظن من حتى أيضا هدية
ميلادى فإنه بعد ميلادها بأيام قلائل فيدهش وكان يمتاز بذاكرة قوية رغم
تقدم سنه ويقول . . لقد كان ميلادك فى يناير وأخذت هدية ونحن الآن فى مارس
فتداعبه منبهة أحاسيسه ولما توقن أنها تنهت وخيل إليها أنه بدأ يجاوبها قالت فى
خبت . . أعنى هدية بمناسبة شفاء ابنتك ثم متى تنى بوعدك فيقول بلهجة النفي
لا أذكر أننى وعدتك بشىء ولم أف به . لقد أعطيتك كل شىء . . . فتقول
إلا . . فيقاطعها بلهجة بطيئة كمن ينتزع من أعماقه حشاشة قلبه إلا الشباب ؟
فتنظر إليه فى إغراء قائلة . . بالعكس . . إنى أراك أكثر حيوية وسخرا من

الشباب فيقاطعها في امتعاض ماخر قد يكون المال هو الذى أضنى على قوة
الحوية وصحر الشباب فتحتد قائلة : تخطئ إذا ظننت ذلك فبربت على
خدها قائلا : هل كنت تقبلين الزواج منى لو كنت فقيراً لا أملك غير قوت
يومى وأنا فى هذه السن فتصطنع الجدة قائلة أجل وأى امرأة ترفض رجلاً
وقوراً لطيفاً وديعاً صالحاً رقيق الحاشية وهل تطمع الزوجه فى أكثر من ذلك ،
فببتسم ابتسامة باهتة حزينة قائلاً . . . أكثر من ذلك بكثير ، فتوارى ما
مر بظنرها بفحكة منغمة قائلة . . أنا شخصياً لا أطمع فى غير ذلك فابتسم فى
تمكن واضح قائلاً . . لأنك امرأة صالحة ، ومع ذلك دعينى أسألك لماذا تَحْتَمِينَ
على أن أتنازل لك عن نصف ثروتى ؟ قالت : لكى أضمن مستقبلى واعيش
ماتبقى من عمرى كريمة شريفة مدى الحياة . . قال : هيبنى مت الآن : فسوف ترثى
ما يكفى لك حياة طيبة قالت : لكن لا تنس أن ابنتك فقطاعها اطمئنى سأعمل
ما يرضى الله ويرضيك فخرجت من تحفظها وقالت بلهجة جادة ، فقد وعدتني
ويجب أن تكون عند وعدك وسأطلب محاميك حالا لينفذ ما وعدتني به ، فقال
فى مرارة واستخفاف هل ابنك عزرائيل بمقدمه : قالت الأعمار بيد الله قد
أموت قبلك فيعود إليك ما منحتني إياه . . فضحك ساخراً وهو يقول : بعضه
لا كله وكان مقاومة انفعاله الداخلى نفدت فأسعل واحمر وجهه وانتفضت
خلجاته وأشار بيده لتناوله الدواء قائلاً بانفاس متقطعه . . ال . . ال . . دوا . .
وظنته يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فساعدته ليعتدل فى جلسته كى يبدو
فى صحة كاملة ثم خاطبت المحامى تليفونياً ليعضد حالاً وفى هذا الوقت قدمت
الخادم إليه كوب الليموناده الذى طلبه منذ برهة ولم يكده يتناوله حتى استرد
وعيه واستفاق منتعشاً فى الوقت الذى شغلت فيه بتصفيف شعرها وتزويد زينتها
وعندما سمعت طرق الباب اسرعت لملاقاة المحامى مظهرة الخوف البالغ لما أصاب
زوجها إذ فقد وعيه ولشد ما روعها رؤيته عندما دخلت عليه بمرافقة المحامى الذى

رحب به الزوج كأنه جاء من تلقاء نفسه فسأله بصوت هادئ متزن خال
من الرعدة هل انجزت الإيجارات وفق التحقيق الوزاري؟ ويدهش المحامي
وينظر إلى الزوجة التي وقفت مذهولة واضطر المحامي أن يتحدث معه فيما
يعنيه على مسمع من الزوجة التي وقفت تغالب الغيظ لتخفيه ولما انتهى المحامي
من حديثه وتأهب للانصراف استوقفته لتقول لزوجها : قل له ينفذ ما
اتفقنا عليه ودون مبالاة يجيبها لن أفعل شيئاً إلا بمحضر ابنتي فنظر إليها المحامي
أسفاً وانصرف

محاولة جديدة

بعد اطمئنان الدكتور مؤنس على صحة مسرة انقطع عن زيارتها وحمد الله على ذلك على أنها لم تلبث بعد زيارة زوجها وزوجة والدها إليها بدأت تشعر بهبوط في قلبها لاستغراقها في الفكر خشية أن يسترضي زوجها والدها وبمعاونة زوجته يردّها إليه وفي أمسية ممطرة تقلصت عضلاتها وارتعشت أطرافها وأيقظت العمة في منتصف النوم مستغيثة بها من شدة الألم الذي تشعر به واضطرت العمة أن تتصل بالدكتور مؤنس الذي حضر فوراً وحملها إلى عيادته مرجحاً مآصياها من إهمالها العناية بنفسها مع عدم أخذ الدواء كما أخبرته عمتها ونبه على جميع العاملين في العيادة بعدم السماح لأي كائن بزيارتها كأنها غير موجودة في العيادة ورغم أن عمتها أنكرت ذهابها إلى العيادة حسب رغبة الطبيب ومسرة مدعية أنها خرجت أثناء زيارة العمة لقريبة مريضة لها فقد استطاع الزوج بعد أن قدم رشوة لبواب العيادة أن يعلم بعودتها وحاول الاتصال بالدكتور مؤنس بضرورة لقائها بمناسبة عيد ميلادها حيث سبق أن اتفق معها على إقامة حفل بمناسبة شفاؤها واتهمه بأنه عمد إلى إعادتها لعيادته لأمر في نفسه وهو لا يسمح له باستغفاله وكان لابد أن يصارحه الدكتور بأنه يتعمد إيداعها بدليل أنها بعد أن شفيت عاودها المرض على أثر زيارته لها في منزل عمتها وهو مضطر لتبليغ النيابة لحمايتها إن لم يرتجع عنها ريثما تتعافى تماما ويصبح في مقدورها مواجهته . ولم يأبه الطبيب بما دار بينهما من حديث ولم يعلق بذهنه غير ميلادها اليوم وتخيل لو أنها كانت بعافية لاحتفلت به . . . وقبل أن يفكر فيما يجب عمله لتهنئتها ترمى إلى مسمعه نبأ عبور قواتنا وتعالّت أصوات الهتافات من المرضى والعاملين في العيادة بحياة الرئيس وأبطالنا .. وكانت مفاجأة لم تكن في الحسبان وأقام الدكتور مؤنس حفلا ترفيهيا لمرضاه في العيادة بمناسبة انتصار العرب ووجدها فرصة تتيح له تهنئة مسرة بميلادها الذي

صادف ميلادا جديدا لمصر والعرب وقد ساهمت في الحفل كل ممرضة بما تجيده من الهوايات الفنية في براعة فائقة كأنهن محترفات وبدأت ردهة العيادة كمسرح للغناء والرقص والفكاهة وقد سعد الجميع بمتعة روحية هائلة ردت الأمل إلى نفوس اليائسين وفي الوقت هذا دعيت الممرضة - انسجام - لمكالمة تليفونية من شقيقها وعرفت من صوته أنه زوج مسرة إذ كان عرف يخدمها ويقربها إليه أثناء ترده على العيادة لزيارة زوجته واران أن تهى له فرصة لزيارتها في العيادة أثناء تغيب الدكتور وفهم من سياق حديثها أنهم يحتفلون الآن بانتصارنا وأن الدكتور قدم تورتة كبيرة للمرضى جميعا مع باقة من الزهور لمسرة بمناسبة عيد ميلادها وكاد يصعق ولكنه تماسك نفسه وتقبل إنهاء مكالمته على مضض ولم يصعب عليه التحايل للاشتراك في الحفل فغير مظهره بوضع شارب وذقن استعارهما من ممثلى مسرح استعان به ليقدم مقطوعة وطنية من وحي المعركة ورافقه كفنان يضرب على الرق وفي مهارة بعد أن أنهى رفيقه دوره استطاع أن يأخذ مكانه بين المدعوين وكانوا من أهل المرضى ثم راح ينتقل من مكان إلى مكان حتى استقر بجانب مسرة التي بدت كأنها عروس الحفل وبصوت خفيت نهبها إليه وحذرهما من افتضاح أمره وإلا أطلق رصاص مسدسه الذى يحمله على الطبيب فورا لأنه غير باق على حياته اذا افتقدها وأخرستها المباغثة فقال بصوت خفيض لا يسمعه إلا إياها. صدقيني يامسرة لقد كان فراقك في هذه الفترة بداية انطلاق روحى من محبسها والعيش معك بخواطرى ووجدانى .. وقد أدركت الآن أن الحياة بدونك مستحيلة فانس الماضى وامنحني آخر فرصة لتجربتي وهنا أعلن أحد العاملين بعد عزف سلام الجمهورية بانتهاء الحفل وعلى المرضى الذهاب إلى غرفهم والمدعوين مغادرة العيادة .. واضطر أن ينسحب بعد أن أفهمها أنه سيعمل اللازم لتعود إلى بيته ولم توليه اهتماما وذهبت بسرعة إلى غرفتها وأغلقها بالمفتاح من الداخل بينما عرف الطريق إلى - انسجام - فلاحق بها ونادىها بصوت خفيض فنظرت إليه دهشة وقبل

أن تتكلم قال .. من أجلك جئت وتنكرت لأحظى بلقائك .. وبصوت مضطرب قالت بعد أن رفع المنظار وتبينته ثم وضعه .. قلت لك أكثر من مرة اذهب من طريقى .. أنا مخطوبة لشاب أحبه ويحبني فقال ساخرا .. مخطوبة محال .. وإذا كنت صادقة فلن يتم هذا الزواج .. لقد ملكت حياتي .. فلا تدفعيني لاقتراف جريمة في سبيلك .. وهنا خافت أن يسمعه أحد المارة فتنحت عنه بعيدا وهي تغمغم لا أظنك مجنوننا قال بصوت التحذير .. حذار يا انسجام ان خيبة الحب تدفع للجنون .. وبصوت أكثر اضطرابا قالت : ابتعد ارجوك ... عد إلى زوجتك وسكتت مدعورة لتنظر صوب الصوت الذى يناديها من الخلف ولما اتجهت بكليتها نحو الصوت رأت زميلة لها تشير معنى .. تعالى .. وهرعت مسرعة إليها وقبل أن تسأل الزميلة عما تريد .. تخبرها أن الدكتور بدأ يمر على المرضى وقد خشيت أن يراك فتقاطعها انسجام .. إنه يسأل عن شروط دخول العيادة للعلاج وبنبرة الحبث تقول الزميلة إنها حجة ليخاطبك ياساذجة وتغمغم وهي تتأوه .. آه من الرجال .. ذئاب بشرية يتربصون الفريسة وفرائسهم عذارى أبرياء مع الأسف .. وتضحك انسجام مداعبة إياها في لطف قائلة : عيبك سوء الظن يا ثريا ... وتركها لتستأنف عملها وبينما هي مشغولة في عملها يدعوها العامل لمكالمة تليفونية ولشد ما يفرعها أن يكون هو المتكلم وبلهجة جافة صارمة تقول له هذه آخر مرة اسمع فيها صوتك [والا اضطرت لمصارحة زوجتك فيضحك ساخرا ذاكرا لها اسم رجل قائلا في تهكم لقد عرفت كل شيء عن خطيبك هذا لقد تركك ليتزوج ابنة خالته بعد أن سلبك أعز شيء لديك ورغم ذلك فأنا أحبك وسأنسى ماضيك وأعوضك خيرا وأظن يكفي أن تعرفي ذلك لتتأكدي من صدق حبي وإذا كنت جربت نزالة رجل فجربى شهامة رجل نذل اعتدى عليك تحت شعار الخطوبة المزيفة ورجل شريف يرد لك شرفك بانتسابك إليه .. فكري في ذلك جيدا وثقي بأن الرجل إذا أحب امرأة فإنه يتغاضى عن ماضيها

مهما كان شديدا وأظنك تفهمين ما أعنيه ولن ترفضى لقائى وسكت مترقيا
جوابها ولكنها وضعت السماعه دون تعليق وهى مذهولة فكل المعلومات التى أدلى
بها صحيحة وشعرت بأنها وقعت فى هوة عميقة لاتدرى كيف تتخلص
منها وكلفت عامل التليفون أن ينكر وجودها إذا اتصل بها أى أحد فى أى
وقت بدعوى أن ذلك يعطلها عن عملها ولكنه ظل يطلبها فى التليفون
وكل مرة يغير لهجته والعامل يخبرها وخيل إليها أن حبيبها الغادر كان يعرفه
من قبل فلما علم بوجود زوجته فى هذه العيادة أفضى إليه بسرها إذ ثبت
أنه ممن يباهون بالمغامرات الغرامية واشتدت هواجسها وبدأ اضطرابها
واضحاً فى عملها وبينما هى مسلووبة الفكر تحت وطأة مشاعرها المضطربة
فوجئت بتعيينها فى مستشفى آخر وبعد أيام تسلمت عملها الجديد وبعد أن
استقر بها المقام استدعاها معاون المستشفى بمكتبه ولشد ما أذهلها رؤية زوج
مسرة جالسا بجواره دون كلفة وبادرها المعاون قائلاً : يسرنى أن تكونى
قريبة الأخ فايد إنه صديق عزيز وأنا فى خدمتك إكراماً له وقبل
أن تتكلم عقب فايد .. سررت جداً عندما علمت من والدتك البارحة أنك
استلمت عملك ولقد كان تعيينك بأمر من الوزير وقد أوصيت صديقى
مدحت بك خيراً وسوف تكونى هنا مسرورة جداً وغالبت اضطراب
المفاجأة وقالت بصوت هامس الحمد لله وتحركت لتغادرهما فاستوقفها
قائلاً .. سينتهى عملك اليوم فى السادسة مساءً والواجب يقضى أن تنهى
زوجتى بعودتها إلى البيت وهى التى كلفتنى بدعوتك لحضور حفل شفافها
وناولها ورقة كتب عليها العنوان مرفقاً .. هذا عنوان مسكننا الذى انتقلنا
إليه أول أمس حسب مشيئة زوجتى ولم يترك لها مجالاً للكلام وصافح
المعاون ثم صافحها ضاغطاً على يدها وهو ينظر إليها نظرة تحذير وخرج
مسرعاً تاركاً إياها فى مكانها لا تجرأ على النطق ولا تقوى على الحركة مذهولة
لا تدرى ماذا تفعل هل تصارح المعاون بالحقيقة ؟ وقالت له .. هى تسمح لى
ثم توقفت خشية أن يصارحه فايد بخطيئتها .. فاحجمت بينما سألتها

المعاون .. ماذا تريدین قالت بعد أن أسعفتها بديتها .. هل تسمح لي بأجازة يومين لأنني متعبة ؟ فنصحها بعدم أخذ أجازة ريثما تمضي مدة العمل وسوف يوصي الرئيسة بتوفير الراحة إليها ريثما تسترد نشاطها دون أجازة وسكنت عند دخول إحدى الممرضات بينما انسحبت هي في هدوء . وحاولت أن تشغل نفسها بالعمل ولكن هواجس السوء لم تترك لها مجالاً للاطمئنان إلى عملها وسيطرت عليها المخاوف من فايد ولم تجد مخرجاً للتخلص منه إلا مصارحة — مسرة — واعتزمت أن تفضي إليها بكل شيء فهي سيدة نبيلة ذات قلب كبير وسوف تقف بجانبها وتحميها من فايد لكن بدا لها أن هذا التصرف قد يسيء إلى علاقتهما الزوجية وقد يغتاظ فايد ويزداد عناداً وتشبثاً ومضت أيام وهي تعاني آلاماً فكرية جسيمة وفي يوم بعد انتهائها من عملها اليومي وعند مغادرتها المستشفى وجدته ينتظرها على الباب في سيارة ملاكي فخمة وقبل أن تتنحى عنه فتح باب السيارة قائلاً بصوت مرتفع ليسمعه البواب لقد تأخرت ووالدتك قلقة عليك وارتجفت متلفتة حوالها لتجد مهرباً فإذا البواب ينظر إليها فخافت أن تأخذ طريقها فيظن البواب بها الظنون فركبت دون كلام ولم تكذب تبعد عن المستشفى حتى طلبت منه راجية أن يتركها فظل في طريقه وهو يقول .. مسرة مصرة على رؤياك ولم تطلب أي ممرضة أخرى ثم غير مجرى الحديث بسؤالها عن عملها الحديد مظهراً استعداده لنقلها إلى أي مستشفى تريد إذا كان لا بد لها أن تعمل وإن كان يتحتم أن تترك العمل عند الزواج ولكي تهرب من انفعالها الخفيف قالت بصوت خافت كأنها تتحدث إلى نفسها وأى راحة في البيت بالعكس المكوث في البيت يضعف الحيوية بسبب الحمول على أن عملها هذا يتفق مع طبيعة المرأة بجانب العمل الإنساني الرفيع ووقفت السيارة أمام فيلا أنيقة بالهرم وفتح بابها قبل أن يتيح لها فرصة للنزول وهو يقول أفضل أن أفتح الباب بنفسى لكيلا أزعج من بالداخل إذ أحياناً تكون مسرة نائمة والخادم في الخارج وسحبها من يدها لكيلا تفلت منه وقادها إلى الداخل ثم أغلق الباب

وسألت عن مسرة فأشار إليها لتجلس على الأريكة ريثما يخبرها فلا شك أنها نائمة لتستعد لحفل الليل وتركها وغاب لحظة ثم عاد وبعد أن خلع ملابس الخروج وارتدى ملابس البيت وقبل أن تسأله عنها يخبرها أنها في الحمام وانتظرت على مضض ومر الوقت وقد اصطنع التشاغل بالقراءة في مجلة وهو يختلس النظر إليها خفية ليرى انطباعات ما يدور بخلدّها مرتسماً على لمحاتها ولكي يخرجها من صمتها لفت نظرها إلى صور نساء المجتمع البارزات والنجوم اللامعات ليعرف رأيها وهي تجيب في إيجاز دون أن يبرح نظرها الباب الذي يتحتم أن تخرج مسرة منه من الداخل . . ولما عيل صبرها طلبت منه أن يسمح لها بالخروج على أن تعود مساء لتبث مسرة وبأسلوب جاد أكد لها أنها لا شك على وشك الانتهاء ثم ضحك بدون صوت مردفاً أظنك تعرفين كم تستغرق المرأة في الحمام وفي الزينة وبلهجة حانية استطرد . . أنت متعبة فاستريحى في فراشها ريثما تنتهى وسوف تسعد بذلك ومر بذهنها خاطر دفعها للسؤال . . لست أدري لم غازلتنى واليوم تقربنى من زوجتك . . أمر محير فقاطعتها . . لقد أحبيتك فقاطعته . أرجوك دعك من هذا فتابع حديثه استمعنى إلى حتى النهاية — مازلت أقرر وأعترف بأننى أحبيتك — صدقنى . . ولقد قرر الأطباء لمسرة أنها غير صالحة للإنجاب مطلقاً ولذلك عرضت على فى إلحاح ورجاء ضرورة فراقنا وقد تنازلت لى عن حقوقها الشرعية . . والأزواج عادة عند الطلاق يفرقون على خصام . . ولكننا سنفترق على وفاق ومن أجل ذلك أقمنا هذا الحفل . . سميّه حفل وداع ولقد أرادت أن تزوجنى بصديقة لها على أن تعلن خطبتها لى اليوم وإزاء إصرارها بضرورة زواجى . . صارحتها بإعجابى بك فأيدت إعجابى بأكثر منه ورحبت بزواجى منك . . وهنا أجفلت واضطربت وقالت لقد تأخرت وسوف يتصل أخى بالمستشفى ويعلم أننى غادرته منذ زمن طويل على غير عادتى وها هى بلغت الثامنة فتى إذن تستعدون للحفل فقال : فى وقت متأخر ريثما يجتمع شمل المحبين لى ولمسرة إذ بعضهم لا ينتهى من عمله قبل العاشرة

قالت إذن اسمح لي أن أستأذن والدتي فابتسم في خبث مطمئناً إياها قائلاً :
لقد مررت على والدتك بمنزلكم رقم ١٢ شارع السيدة زينب في الدور الأول
واسترسل في وصف غرف المنزل ومحتوياتها وأخبرتها أنك ستقضي الليلة
مع زوجتي لحضور حفل العشاء وقد عرفت من سياق حديث والدتك أن شقيقك
يبحث عن عمل وقد صحبتته معي أثناء انصرافي وألحقته في التوب بمصنع نسيج
بأجر يكفل له حياة طيبة إلى حد ما ريثما أهيب له عملاً آخر بمرتب أكثر
فذهلت وقالت بلهجة الدهشة . . شكراً ولكن كيف عرفت بيتنا فقال في
اعتداد . . مهمتي اكتشاف كل شيء . . ومر بخاطرها حديثه في الهاتف
فأجفلت وأطرقت لحظة ثم قاومت ما ألم بها ونظرت إليه بعينين كسيرتين قائلة
بلهجة الازلال . . يبدو أنك موظف في المباحث أو المخابرات . . قال : أكثر
لوشئت إيضاحاً . . فارتبكت وعاودها نخجلها ونظرت صوب غرفة بدا منها
ما يشير إلى أنها غرفة نوم عل الهانم خرجت من الحمام فتركها لحظة ثم عاد
قائلاً . أو . . لم أقل لك أكثر عمر المرأة في الحمام والزينة فقاطعت مسرة هانم
ليست من هذا الطراز . . إنها طبيعية جداً في كل شيء . . فعلاً ولكنها تلتزم
الفراش مدة بعد الحمام لكيلا تصاب بالبرد ثم غير مجرى الحديث قائلاً :
افتتاح مصنع خاص له بعد أن يتعلم حرفة النسيج فشكرته منوهة إلى أنها تساعد
أسرتها على الوجه الأكمل فقاطعتها أريد أن أوفر عليك ذلك فقد خلقت لكي
تكوني ربة بيت وزوجة حبيبة وقد وجدت فيك المرأة التي كنت أحلم بها
وأتمناها بعد مرض زوجتي فهزت رأسها في استنكار وقالت بصوت مرتجف
الذبرات إن زوجتك جوهرة وتخطيء إذا ظننت أن في الوجود امرأة تماثلها على
الأقل إنها ممتازة فلا تفكر في هذه المغامرة التي تجلب لك الشقاء والتعاسة وبصوت
جاد أردفت أنا شخصياً أرفض كل الرفض أن تقدم على هذا التصرف الشائن
ثم انتصبت واقفة وهي تقول يجب أن أتعجلها بنفسى أو أنصرف وأعود وقت
الحفل بعد مكالمتها تليفونيا . . كم النمرة هنا . . فماسك نفسه وهو يتركها
قائلاً . . سأتعجلها أنا ثم عاد وأخذ مجلسه بجوارها قائلاً . . على وشك

الحضور ثم أخرج محفظته وهو يقول : نحن في آخر الشهر والموظف دائماً يقدم لها « المحفظة » مالى كله تحت أمرك فإنك منذ اليوم خطيبتي وقد خطبتك فعلا من والدتك وشقيقك فوافقا وباركا زواجنا وقرأت معهما الفاتحة وذهلت انسجام وألحمت المفاجأة لسانها فنظرت إليه في ذعر قائلة في حدة . . . لست قاصر ياسيدى وزواجى يتعلق بمستقبلى وحدى وقامت منتفضة غاضبة وقبل أن تتحرك من مكانها سمعت طرق الباب ثم دخلت خادماً تحمل معلبات للأطعمة والحلوى وانقض عليها فايد غاضبا ولكنها دافعت عن نفسها قائلة : الست هى التى أخرتنى لقد خرجت معى لتنتقى ما تريده بنفسها فصرخ فى وجهها الست كانت فى الحمام فقاطعته : لقد فتحت الرشاش لتشعرك أنها فى الحمام ولكيلا تمنعها من الخروج فقال بصوت الغاضب ، وأين هى : فقالت ذهبت لأن والدها أصيب بوعكة وترجوك الاتصال تليفونيا بالمدعوين لتأجيل الحفل إلى الأسبوع القادم لأنها متعبة ولا تنس أن تعتذر الآنسة انسجام . . وأمر الخادم أن تلحق بسيدتها لكى تدعوها فوراً ولكن الخادم تلكأت بدعوى إعداد شىء هام فى الثلاثة خشية إتلافه قبل مجئ سيدتها واعتذر لانسجام وانفرجت أساريره قائلاً . . حمد الله لقد وفرت على تكاليف الحفل كما أتاحت لى فرصة ذهبية طالما تمنيتها ثم اقترب منها محاولاً أن يطوقها ليقبلها لكنها دفعته عنها فى إباء لكنه لم يرتدع وطرحها على الأريكة وقد سيطر عليه جنسه ووجدت انسجام نفسها أمام وحش كاسر وكان لابد أن تقلد دهاء الثعلب فتكلفت الاستسلام وفى أعماقها رغبة كاسحة اشتعلت كالخريق فى رأسها للتخلص منه ورسمت بسمه الرضا وهى تقول فنجان قهوة وقرص اسبرين لأسترد قواى فقد اتعبتنى فشاع بشر الفوز فى وجهه واطمأن معتقداً أنها رضخت راضية مستجيبة له وأبدت رغبتها فى عملها بنفسها ويا حبذا لو تناول معها فنجان فرحب بذلك وعندما شعر بانشغالها فى المطبخ اتصل بصاحب البيت فى التليفون قائلاً . . لا تحضر الليلة لقد أحضرتها وانتهزت انسجام خلوا الخادم فى المطبخ وسألها هل حقاً ماقلته لسيدك . . فانهزت الخادم فرصة مكالمه فايد فى التليفون وأخذتها وأخبرتها أن الحكاية ملفقة حيث أعطاها مبلغاً كبيراً من المال ولكنها

لا تعرف زوجته وهذا المنزل خاص بسيدها صديقه وقد استأذنه لقضاء اليوم هنا وأسرت إليها بمعلومات عنه وأنه كان سببا في طلاق زوجته صديقه بسبب استهتاره وتأثيره على سيدها ولولا أنها قريبة سيدها وقد احضرها من الريف وأمرها الا تظهر أمام الناس أنها قريبة منه وهذا أعطتها أنسجام مبلغا من المال وكلفتها بمهمة تقوم بها فوراً على أن تخرج حالا . . ولما أنهى مكالمته لحق بها في المطبخ فوجدتها تهيء طعاما واقبل ليقبلها فتمنعت قائلة تريث ريثما نأكل لأنني جائعة جداً وبينما هو واقف بجانبها يلطف من حدة صبره بنشوة انتصاره سمع طرقا شديدا على الباب ولما فتحه واجه رجال شرطة الآداب واستجمع شجاعته وقابلهم في هدوء وقبل أن يتكلم سأله عن اسمه فذكره كما جاء في البلاغ التليفوني . . وهنا ظهرت انسجام عن عمد وعندما سألها الضابط من تكون أجاب فايد أنها خطيبتى حضرت لزيارتي عندما علمت بانحرافى ونظر لانسجام مردفا . . يبدو أن الخادم لفقت لنا هذه المكيدة بعد أن سرقت السوار وهربت منذ لحظات وكان فى نيتى الخروج الآن لعمل محضر لها ولما سأله الضابط عن اسم الخادم ذكر اسمها غير اسمها وادعى أنه وجدها تتسول فى الطريق وأراد أن يحميها ويصونها ولكن ثبت أنها لصة وهو لا يدري وقام الضابط بعمل محضر لاثبات الحالة وأمر بتحويل انسجام الى النيابة للتأكد من صحة ما قيل . . وأمام النائب اعترفت انسجام بما حدث دون أن تخفى شيئا وطلبت منه حمايتها من هذا الرجل راجية ألا يحجزها لأنها تعول اسرة فقيرة وكان النائب إنسانا مؤمنا فترفق بها وأدرك من لهجتها وصراحتها صدق اعترافها فأطلق سراحها بعد أن تأكد من أنها المبلغة . . دون أن يواجه فايد بما أدلت لكيلا يحاول ابداءها عن طريق غير مباشر واكتفى باسناد تهمة الاستيلاء على مسكن دون تصريح من صاحب المسكن لان صديقه عندما علم بالحادث أنكر صلته به مؤكدا أنه لم يصرح له بدخول مسكنه فى غيبته ولذا قدم للمحاكمة ورغم وجوده فى السجن استطاع أن يكلف أحد الزائرين بمخاطبتها فى التليفون قائلا بأنه عرف كيف احتالت للاتصال بالشرطة وسوف تدفع الثمن غاليا . . .

وبعد أن بدأت الطمأنينة تلازمها لاعتقادها أنه لن يعرف بما حدث
فقد زلزلت المكالمة كيائها وصدعت وجدانها وساورتها مخاوف جمه أيقنت
أنها ستقضى على مستقبلها وبينما هي سارحة في هذه المشكلة أطلعتها زميلتها على
إعلان منشور في الاهرام يطلب ممرضات في تنزانيا . . ولمعت فكرة في
ذهنها وكأنها تنزلت من السماء فقدمت طلبا بعد أن اقنعتها زميلتها بأن تقدم
معهها . . . ووجدت الفرصة سانحة لانقاذها من هذه الورطة . . .
وراحت تنتظر التخلص من فايد بفروغ الصبر بالسفر الى تنزانيا . . .

مفاجأة

فوجيء الدكتور مؤنس بتعيينه مديرا لاحدى المستشفيات ولما كانت ادارة المستشفى تتطلب منه وقتاً أكثر من وقته الذى خصصه لعيادته الخاصة كطبيب فى المستشفى فقد اضطر أن ينيب عنه زميل للقيام بعمله . . ومن حسن حظ مسرة أنها عولجت تماما وروعها خبر تنازله عن العيادة لزميله الدكتور فتحي اذ كانت العيادة بمثابة نافذة تطل منها على مروج الأسلام وأروع الاخيلة والآمال وعادت إلى بيت عمها وكانت تمنى أن تقضى ما تبقى من عمرها فى الحياة كلاجئة ووجدت عند عمها مأوى آمنا طمأن قلبها إلى حد واكتسح مخاوفها وأوهامها الى حد أيضا اذ كان خرفها من زوجها لا يبرح خيالها بجانب قلقها على والدها الذى انقطع عن زيارتها أخيرا دون مبرر وخيل إليها أن زوجته عندما علمت باقباله عليها حالت دون لقاءهما بدهائها ولم تدر أن العلة اشتدت بأبيها فالزمت الفراش وعن عمد كتمت زوجته أمر مرضه عن أخته وعن جميع معارفه موقنة ان ابنته هربت إلى مكان ما وخيل إليها أن الطبيب اقتنى لها سكنا خاصا تقيم فيه سعيدة بذلك لكى يخلو لها الجو منتهزة هذه الفرصة لتستكتبه التنازل لها عن ثروته بأى وسيلة واستدعت زوج مسرة الذى كان على وشك تبليغ النيابة باختفاء زوجته مع الطبيب وكان غادر السجن بعد التحقيق بكفالة ولكنها أفهمته أن المصلحة لها تقضى بكتمان الامر ليتمكننا من انجاز ما اتفقا عليه وبعد أن هيات نازك الجو المناسب لتنفيذ الخطة المتفق عليها استدعت المحامى لاجراء اللازم ومصارحته بما تريد ولم يشأ المحامى أن يخون شرف مهنته ويوافقها على التزوير وتقليد توقيع زوجها ولم يكن بد من تظاهرها بالخضوع له ريثما تقابل زوج مسرة وتتفق معه على طريقة تجيز لها الاستيلاء على الثروة وفى هذا الوقت كانت مسرة بمعاونة عمها ترسل كل يوم رسولا كأنه موفد من قبل صديق له ليقابل

والدها ليعلم من أمره ما تجهل ويخبرها الرسول بعد عودته بأن زوجته أخبرته أنه خارج البيت وباعت كل الرسل بالفشل لحرص الزوجة الشديد على كتمان أمر مرضه متظاهرة بالمرح والسرور ولم يساور أى رسول شبه شك فيما تزعم فقد تعود كل من يتعامل معه ماديا كالتجار والمستأجرين التعامل معها في حضرته فلا عجب إذا ظهرت بدونه لتغيبه . . . إلا أن قلبها الابنة والاخت لم يطمئنا لاقوال الزوجة لانه لا يبرح البيت الا لما ولأمر هام ولم يلبث الشك أن يتحول إلى يقين حينما علمت من صديقة للاسرة ذهبت لتقدم العزاء لوالد مسرة في استشهاد قريب له وتخبره باستشهاد الفقيد حيث لم يذهب مع أفراد الاسرة ودخلت كعادتها دون استئذان ولأول مرة تقابلها زوجته محاولة مغالبة اضطرابها وتجلس معها في الردهة وتخبرها أن زوجها سافر منذ أيام إلى قرية لأمر هام لم يشأ أن يفضى به إليها . . . ويزداد شك مسرة وخصوصا بعد أن قالت الزائرة في ختام حديثها أن الزوجة استأذنت منها لكي تخرج لأنها على موعد مع صديقة للذهاب إلى طبيب الاسنان مما اضطرت الزائرة إلى الخروج معها بعد أن تناولت القهوة التي لم تستغرق غير دقائق معدودة وأيقنت أن وراء ذلك سرأ واضطرها الفرع إلى أن تلجأ لصديقة تثق فيها كما تطمئن إليها زوجة أبيها لأنها لبقة ذكية عرفت كيف تحظى بثقة - نازك - بتوجيه من مسرة إذ كانت عادة - نازك - أن تسيء استقبال من يقبلن على مسرة ويعرضن عنها ولكي تتمكن مسرة من الاحتفاظ بصديقتها تلك أو عزت إليها أن تتقرب إلى زوجة أبيها وتوليها اعجابا واضحا مع اظهار انتقاد تصرفات - مسرة - وبذلك حازت ثقة نازك والترحيب بها وامعانا في التقرب إليها ظلت الصديقة تتردد عليها طوال تغيب - مسرة - بتوجيه منها ولم يكن من العسير عليها أن تؤكد لنازك حبها لها لتجيز لنفسها حق تمضية اليوم كله عندنا لتطفيء جذوة الشوق من ناحية وتملا فراغ وقتها بمساعدتها في أعمالها الخاصة . . . ولاحظت الصديقة أن نازك حرصت على أن تبعدا عن غرفة الزوج أو تشعرها بمرضه وأنها غير طبيعية تلاحق الصديقة بنظراتها في انتباه واضح كلما اقتربت من

غرفة النوم وتطوعت الصديقة بطهي الطعام في هذا اليوم وفرحت — نازك —
لتبعتها عن غرفة الزوج وانتهزت الصديقة الفرصة وراحت تستدرج الخادم
بلباقة وكانت الخادم بطبيعتها ثرثارة فانهزت الفرصة وراحت تثرثر بصوت
خفيض وحذر خشية أن تسمعها سيدتها وفهمت الصديقة من سياق الثرثرة أن
والد مسرة مريض منذ مدة وأنه حبيس الغرفة لا يبرحها إذ بات لا يتكلم ولا
يتحرك كأنه ميت تماماً وامضت الصديقة اليوم وهي تتكلف الضحك والمرح
لكيلا تشعر الزوجه بأنها عرفت مأساة الزوج وعلى أثر مغادرتها البيت ذهبت
فورا إلى — مسرة — وأخبرتها بمرض والدها وكادت الصدمة تقضى عليها لولا
أنها تمايلكت أعصابها وحكمت عقلها وسرعان ما أستعانت بأخلص الناس إلى
والدها لوضع حد لسوء تصرف — نازك — وحماية الوالد منها وأخيرا بمعاونة
عمتها اتصلت بالنيابة وعلى حين غرة فوجئت نازك بممثل النيابة للتأكد من حالة
الزوج المريض لاثبات الحجر عليه لحفظ ثروته من التلاعب ثم اتصلت
بالدكتور مؤنس تستشير في أمر علاج والدها فطلب نقله فورا إلى المستشفى
ليكون العلاج تحت إشرافه بواسطة الأطباء الاختصاصيين . . ولم يكذ ينتقل إلى
المستشفى حتى أسرع نازك إلى المحامي لتعرض عليه إيداع أثاث البيت رهينة عنده
مع بعض مصاغها كمقدم أتعاب ليقوم باجراء بيع ما يملك الزوج إليهما مقدمة اليه
صورة العقد الابتدائي لكي يقوم بتسجيله ولاحظ المحامي أن توقيع الزوج
وان كان يماثل الأصل تماما ولكنه — مزور — وصارحها بذلك فحاولت أن
تنفي التزوير وأكد لها المحامي أن ضميره لايسمح له بعملية التزوير والدفاع
عنه وسوف يأخذ القصاص العادل وخصوصاً بعد تصحيح ١٥ مايو وبات
عهد التطهير ينقى الدولة من شوائب المزورين ومن لا ضمائر لهم وحاول
أن يفهمها ليظهر نفسها من التعلق بكل ما يرتبط بالباطل لكيلا تكون أقل
تفهما وتمسكا بمقاييس الاخلاق القويمة التي بدأ الشعب على جميع المستويات
يتعلق بها منذ عبرنا وكأن النفوس عبرت مع من عبروا محطمين أسوار الضلال

والآلاف والبهتان مؤكداً أنه بعد ذلك لن يحاول أى مواطن داخل دائرة الحكومة أو خارجها تشجيع المحتالين وحمايتهم لقد كانوا من قبل يمثلون مجموع عصابة تكونت لاشهر عقود البيع والشراء مقابل مبلغ من المال ولقد تم بواسطة هذه العصابة الاستيلاء على أراضى شاسعة وعقارات هائلة فى العهد البائد ولكن المحامى كان حسن الظن ببعض المواطنين العاملين فى مصالح الحكومة إلى أقصى حد . غير أن نازك كانت تعلم أنه لم يزل فيهم من يعملون بلا ضمير ولا يخافون الله . . . كأنهم ورثوا الإفك والضلال ولا مناص من التخلص منه لاتصالها عن طريق زوج مسرة بموظف أخذ على عاتقه تنفيذ كل ما تطمع إليه فى هذا الوقت استطاع زوج مسرة ان يباغت — انسجام — فى بيتها أثناء راحتها بمرافقة صديق له يجيد التنويم المغناطيسى ولم تكدر تستقبلهما على مضض وفى هدوء مغالبة اضطرابها خوفاً من والدتها حتى نومها المنوم المغناطيس واستكبتها مأملاه عليه — زوج مسرة — كأنه صادر منها وبعد أن احتفظ بالورقة معه نهىها المنوم واعتذر لها فايد عن هذه الزيارة المفاجئة بدعوى أنه كان ماراً أمام البيت فألزمه الواجب أن يطمئن على والدتها ولم يكن يدر أنها بالمنزل وهذا من حسن حظه واستأذن بدعوى انه على عجل لارتباطه بموعد ما بعد أن نوه الى أنه السبب فى بقائها بالمستشفى من أجل والدتها وبينما كانت مسرة تعاني آلاماً نفسية جسيمة بسبب مرض والدها الذى لم يزل تحت العلاج فى المستشفى تحت اشراف الدكتور مؤنس رغم تقدم صحته الى حد يبشر بالنجاح المرتقب وما قامت به نازك من محاولات للاستيلاء على ثروته بعد أن باعت الأثاث الثمين واستبدلته بأثاث رخيص لاقيمة له لتشغيل المسكن لكيلا يستولى عليه أحد المهاجرين بأمر المحافظة .. فاجأها فايد وكادت تطرده لولا تدخل عمها وإرغامها على أن تستقبله فقد يصح أن ينفعها فى هذا الوقت العصيب وأدرك فايد ما يجول بذهنها فأقبل عليها راجياً أن تفتح له صدرها معترفاً لها بأنه كان أعمى واليوم نظر وكان ضائعاً واليوم وجد وكان متأثراً برفاق السوء واليوم عاد الى رشده بعد أن ابتعد عنهم

متوسلا بصوت أكسبه حرارة الصدق فلتجرب معه الحياة بعد توبته كى بكفر
عن أخطائه ليبدد عن نفسه ما ألم بها من شقاء جلبه لها وهى لاه عنها بأوهامه
مستعظما بصوت أكسبه لهجة الصدق تقاطعه زفرات الندم مصورا إليها حياته
المقبلة بعد أن تطهرت نفسه من رجس الماضى ويسكت ليترك لها فرصة لتلاصق
ولكنها تلتزم العدمت وهى يشعل السيجار فلما يطول صمتها يستطرد طبعها
تعليمين كما أعلم أنك أصبحت لا تملكين شيئا بعد أن باع والدك كل ما يملك
لزوجته وأقسم لك أن حرمانك من الثروة التى تعتمدين عليها وحاجتك إلى
من يرعاك هو ما يحتم على الوقوف بجانبك ولا أظن حى موضع شك الآن
بعد أن بات مبرعا من شبهة الطمع وهنا تقاطعه مسرة وهى تنظر إليه آسفة
قائلة : لم أعد أنفوسك وأنصحك أن تبحث عن زوج غنية فاتركنى
وشأنى أواجه الحياة على الرجب الذى يرضينى وتشيح بوجهها بعيدا كأن
هذا آخر قرار لها فيبتسم فى استخفاف مؤكدا لها مرة أخرى قائلا : لم يعد ثمة
ما يدعو للريبة فى صدق حى فحاولى أن تخبرى حقيقته اعترافى بأننى أصبحت
زاهدا فى الثراء قانعا بك وحدك قادرا على أن أعمل أى عمل شريف يوفر لك
ولى أسباب الحياة الطيبة . . ولاحظ أن هذا الأسلوب لم ينفذ إلى قلبها فغيره
محاولا أن يعصر طاقة تأثرة ليفهمها أنه عمد فيما مضى إلى تصرفاته الخاطئة
ليخبرها عن أسنمه فقال : مسرة - اصغى إلى - كان يجب ان أفعل كل
ما فعلته لأدرك قدر احتمالك وقوة اخلاصك ومثانة حصانتك. ولكن مع الأسف
خاب ظنى أو على الأصح فشلت التجربة . . وكنت أنا الضحية لهذا الاختبار
ولا أحسبك فى حاجة لكى تعرفى أيضا بأنك أصبحت امرأة غير قادرة على
أن تملأ جيب رجل بما لها أو تشبع نزواته العطشى بحيويتها الدافئة وكل
ما تملكين الآن إيمانك وهذه البضاعة غير رائجة كما تعلمين فى سوق هذا
العصر ولا يقبل على شرائها إلا انسان زاهد وقل الزهاد الآن إلا من طهره الله
بنار التوبة مثلى إذن حى لك الآن لا يمكن أن تأتيه الشبهات من أى جانب
ويسكت مترقبا ما عساها تقول قلما يطول سكوتها تحت تأثير حيرتها

مستشعرة بانتفاضات مختلفة متناقضة تسيطر على إحساسها . . أن كلامه جميل ولطالما عزف لها على أوتار هذا النغم كلاماً أقل منه عذوبة وكان ينفذ إلى قلبها في عهد خطبتهما . . ولكنها اليوم غير الأمس . . لقد انصهرت مشاعرها في بوتقة التجربة القاسية الطويلة التي مرت بها في بيته ولم يعد النغم الجميل الذي كان يترنم به يحرك مشاعرها وهي لا تأسف على شيء قدر أسفها على أنها سوف تصبح أما وإن كانت لم تزل تخفي عنه ذلك أملاً في التخلص من الحنين وقد صارت الدكتور مؤنس فأبى راجياً منها أن تعوضه بحنانها وأمومتها السامية ما افتقده من رعاية أبيه أن صعب عليها إصلاحه وهو يأمل أن ينشأ الطفل بين والديه فقد يصح وهو الأرجح أن يكون مدعاة لإصلاح أبيه وتقويمه ومر بذهنها هذا الحديث فالتفت عيناها ببريق أشاع البشر ثم اختفى كما يختفى البرق الخاطف ولاح على وجهها تجهم الحيرة والخوف من المستقبل المجهول لولدها على أنها حرصت على أن تخفي ظواهر الحمل بملابسها الفضفاضة محتملة القلق والتأمل الذي يلزم الحامل في شهورها الأخيرة وتلهي بالتدخين ففكر فيما عساه أن يقوله أو يفعله ليفتح قلبها الذي أغلقته الأحداث وهي سارحة بخواطرها ومشاعرها في ولدها المرتقب حزينة لا تنسابه إلى والد ليس جدير بالأبوة وتتجسم مسؤوليتها كأم لطفل والده كأنه مفقود متمنية لو أنه كان مجنداً واستشهد لكان لها ولولدها أن تفخر به وتباهى ولو كان فقيراً أو معلولاً لكان الخطب إلا أنه فاسق شرير فكيف يكون لهذا الوالد ولد لقد فقدت إيمانها لحظه حاولت الأجهزة لولا ما بذاه الدكتور مؤنس بضرورة المحافظة عليه ومر بخيالها طفلها المرتقب بكيانه البشري متوسمة فيه ملائكية روح الدكتور مؤنس وتحمس بلذة لا تعادلها لذة حينما تسمع نداء طفل ينادى أمه ويبلغ النداء مسمعها . . إماما . . ماما . . وسرعان ما تتلاشى تلك الأخيصة الحميلة عندما تسمع فايد يقول: أظن يكفي ما قلته لك لنضع حداً لموقفنا فقد تحدثت إليك بروح المؤمن وقلبي الذي بات لا يسبح إلا باسم الله ولا يتعلق بك إلا لأنك رمز للمقدرة الإلهية في أجمل صورة وبينما هو مغرق في الإفاضة همست في

أذن الشغالة بما حملها إلى مغادرته وقد عمدت عمتها ألا تشعره بمقدم المحامي لمقابلة مسرة لكيلا تتيح له فرصة تعرف ما لا يجب أن يعرفه وعلى أثر انصرافها صفق على الشغالة فلما أقبلت طلب كوباً من ماء وناولها مبلغاً من المال وهو يسألها . . من الذى حضر وقبل أن تجيب أقبلت مسرة وكانت سمعت سؤاله فأجابته نسيب عمتى جاء من السفر ليعزيها في الشهيد وهنا تحضر صديقتها فتدخل عليهما ظناً منها أنهما استأنفأحياتهما الزوجية فهنأت الزوج وهى تصافحه وقبلت مسرة مهنئة مردفة . . من حسن حظ ولى العهد أن يستقبل معكما عهد التصافى والحب ؛ ودهش فايد للمفاجأة ونظر إلى مسرة متفرساً ولأول مرة يشهد علامات الحمل واضحة ويغمغم لأول مرة أكون ضريراً ومد يده ليجذب يدها رغماً عنها مقبلاً فى خشوع وقد شاع البشر على وجهه وبيلديه قبض على يدها فى حنان وفرح وهو يقول : مسرة لقد منحني الله سعادة أكثر مما كنت أرجو ولا أحسب إلا أن ذلك دليل رضاه عني يا هنأى بولدى . وظل واقفاً وبوده لو يركع تحت قدميها رغم أنها حولت وجهها بعيداً عنه لكيلا يرى وميض مشاعرها المغلفة بالأسى والمرارة وخلصت يدها من بين يديه دون أن تتكلم بينما ظل نظره عالقاً بها مأخوذاً بمشاعرها هذا الحدث الذى لم يمر بخاطره قط وغمرته أحاسيس مختلفة بينما كانت هى تفكر فى قرب ولادتها كما قرر الدكتور وضرورة إثبات أبوة الطفل ولم تدرك أنه فى هذه اللحظة التقي معها عند هذا الخاطر موقناً أنها ستخضع حتماً له لأنها ستحتاج إليه وعندما همت بالانصراف لتناول دوائها رافقتها الصديقة مكررة التهنية وانصرفت على أن تعود فى فرصة أخرى ، ثم عادت إليه بعد إلحاح عمتها إذ كانت تريد أن تخلو بنفسها فى غرفتها تاركة عمتها تقضى معه بعض الوقت حتى ينصرف ومشت إليه على استحياء متحاملة على نفسها لكيلا تشعره بأنها مجعدة ووقف يستقبلها كأنه يراها لأول مرة وعلى شفثيه ابتسامة فيها وميض من الفرح المشوب بالقلق وقاوم انفعاله قائلاً : بعمرى كله هذا اليوم .. اليوم فقط آمنت بالله ، لا يمنح السعادة إلا للمؤمنين التائبين .. لقد ظلت طوال عمرى الراحل أبحث فى الحياة بكل

وسيلة عن تلك السعادة التي تغمر النفس فلم أشعر بها إلا الآن .. بقي أن
أطمئن أنك عائدة إلى محض إرادتك ولقد صفيها الحساب على ما أعتقد وسكت
يشعل السيجارة فنظرت إليه نظرة شك يراودها اليقين وقالت بنبرة
اليقين فيها حرارة الرجاء : أتمنى أن تكون صادقاً في إيمانك وتوبتك امرؤة
لله لا من أجل ، على أنني ما زلت أؤكد لك أنني لم أعد أصالح لك فقد زهدت
الحياة على الصورة التي يجب أن تكون عليها الزوجة وأنت كزوج في حاجة إلى
امرأة تخدمك وترعاك وتدرأ عنك الحرام بما تمنحه لك من حيوية مشبعة وأنا
أصبحت مريضة مرضاً استعصى على الأطباء علاجه وهو في ظاهره مرض
ولكنه في الواقع فنيته نفسي في خالق هذه النفس .. أنا أنفاس تتردد في هيكل
آدمي في صورة امرأة .. قدر على هذه الأنفاس أن تسبح الله كثيراً وتذكره
مهما كان العناد وفيراً وتستغفره لها ولك بكرة وأصيلاً . وإنتابته نوبة حسية لم
يستشعر بها من قبل ومد يده ليسحب يدها مترفقاً خشية أن يمس الحنين بسوء
وهو يقول امنحيني آخر فرصة لأخدمك وأسهر عليك ولست بهذا العمل أقوم
بواجبي نحوك فقط بل ومن أجل ولدنا يامسرة فجذبت يدها في هدوء مقاومة
أنفعالها الكامن هامة .. أرجو الله أن يوفقك لما فيه الخير .. وخيل إليه
من لهجتها الوديعه أنها بدأت تسترد هدوء نفسها مع التحكم في أعصابها
فتفاعل خيراً ورأى الحكمة تقضى ألا يثقل عليها فخرج على أمل أن يعود
ليراها أهلاً بالاً وأوفر ثقة به وانصرف بعد أن أكد لها أنه طوع أمرها في
آية لحظة .

فرحة لم تتم

استأنف محامى — مسرة — محاولاته القانونية ولم يلبث حتى وضع يده على الخيط المفقود فى القضية واستطاع أن يحدد معالم الجريمة وساعده على ذلك حملة التطهير الواسعة التى شنتها الحكومة بتوجيه من السيد رئيس الجمهورية أنور السادات والتى أطاحت بكبار الاستغلاليين فى المصالح الحكومية وكشفت عن عصابات اللصوص وتابعيهم وكان من بينهم عصابة مزورى عقد بيع عقار والد مسرة وصدر الحكم النهائى بى بطلان عقد البيع المبرم بين والد مسرة وزوجته وعادت الثروة إلى الوالد فى الوقت الذى عوفى فيه واسترد صحته بفضل مجهود الدكتور مؤنس وأدرك الوالد بعد شفائه سوء نية زوجته وحقارتها وكراميتها لابنته ونزولا على رغبة ابنته رحمة به وخشية أن يعاوده المرض إذا اكتشف بيع أثاث بيته وكان هو الذى اشتراه دون أن يكلف زوجته مليما واحداً مع رجاء أخته بالبقاء عندها ريثما تنتهى مدة النقاهة لكيلا يتعرض لمضايقات زوجته حيث لن يهدأ بالها إلا إذا انتقمت من ابنته وأقنعتة بضرورة التنازل عن ثروته لابنته منعاً للمشاكل التى تتعرض لها بعد عمره الطويل باذن الله وليستجيب لنصيحتها مع إيداع مبلغ فى البنك لزوجته يضمن لها الحياة الشريفة لكيلا تنحرف ليرى ذمته أمام الله وبذلك اطمأنت مسرة على مستقبلها ومستقبل وليدها الذى لم يخرج للنور ولم تكد تنعم بالطمأنينة والراحة النفسية حتى داهم الموت والدها فجأة وقضى نحبه وهى أشد ما تكون حاجة إليه إذ كانت على وشك الولادة وعلى أثر انتهاء مراسم الحداد بدأت — نازك — تطالب بميراثها الشرعى ولشد ما هالها نبأ تسجيل الثروة لمسرة وإيداع مبلغ باسمها فى البنك وفى ثورة جنونية اندفعت تطعن فى صحة البيع مستندة إلى أسباب أوهى من خيط العنكبوت وباءت بعد عدة محاولات بالخسران وبقدر خسارتها اشتد

غيتها - وحققها إلى حد أنساها كل شيء إلا الانتقام من مسرة
مهما كلفها الأمر وفي هذا الوقت علم فايد طبعاً بتفاصيل كل ما حدث بين
مسرة ونازك وكان ابتعد عن مسرة نزولاً على رغبتها ريثما تضح وليدها
وأنتهز هذه الفرصة ليتقرب إلى انسجام بدعوى أنه طلق مسرة لغير
رجعة وهددها بالإقرار الذي كتبه تحت تأثير المنوم المغناطيسى والذي
ينص على أنها هي وحدها المسئولة عن إجهاضها بعد غدر حبيبها الذي
عاهدها بالزواج ثم تنحى عنها وأقنعها بأنه مستعد أن يحرق هذا الإقرار
إذا عقدت قرانها عليه وفي هذه الحالة تضمن سمعتها وعملها ومستقبلها
وتحت تأثيره قبلت الزواج منه وبعد عقد القران مزق الإقرار كما وعدّها
واستأجر لها مسكناً نقل إليه أكثر أثاث مسكن مسرة على أمل أن يوهب
مسرة إذا عادت إلى بيتها ولم تجد الأثاث أن اللصوص داهمته أثناء غيابها
واستولوا على الأثاث وبعد أن اطمأنت مسرة إلى أن فايد اتجه إلى
الله بعد أن رأى أنها حامل وصارحت - نازك - بذلك عندما زارتها
متظاهرة بالحب والعطف عليها نادمة على مشاقتها من أجل الميراث
غير آبهة به بدعوى أنه عرض زائل : : وفي خلال الحديث عمدت إلى
أن توغر صدرها فنوهت إلى وجود علاقة بين فايد وامرأة لاتعرفها إذ
علمت من صديقة لها أنها رآته عدة مرات معها في «السينما» و«الكابريه»
ولم تظهر مسرة أى اهتمام معترفة بأن ما كان بينهما قد انقضى ولم يبق غير
إعلان ذلك وتلاشت الطمأنينة وكأنها لم تكن من قبل : : وبعد انصراف -
نازك - نصحتها العمة ألا تظهر له رغبتها في الطلاق ريثما تستولى على أثاث
البيت بدعوى بيعه وشراء أثاث جديد بمناسبة المولود الجديد . : وعندما
زارها ليطمئن عليها صارحته بما اعتزمت عليه فوافق مبدئياً سروره ولم
يكذب يغادرها حتى ذهب إلى انسجام وقضى معها وقت فراغها يحوطها
بحب كأنه وليد الساعة وقبل ذهابها إلى عملها طلب منها أن تنتظره عند والدتها
لكى يقضيا يوم العطلة عندها ، وبعد أن تناولا الغذاء عند والدتها استأذنها

لكى يزور صديقاً له ليتسلم منه مبلغاً كان مديناً له به حيث اعتزمت أن يرافقها بعد أن تأخذ أجازة لمدة أسبوع للاستجمام فى الاسكندرية وتركها على أن تنتظره ريثما يعود مهما تأخر وحن ميعاد عملها فى الصباح فاضطرت أن تذهب إلى العمل وهى أشد ما تكون قلقاً عليه وفى خلال الوقت اتصل بها تليفونياً ليخبرها أنه اضطر إلى تمضية الليل مع صديقه حيث تأجل تسليمه المبلغ حتى الصباح ثم طلب منها أن تتمكن عند والدتها اليوم التالى ريثما ينجز عملاً هاماً قبل سفره ونفذت رغبته ومضى الليل وفى إثره النهار ولم يعد ولم يتصل بها تليفونياً ولازمها القلق حتى حان وقت راحتها فاضطرت أن تذهب إلى بيتها عساه ذهب لينام بعض ساعات ولشد ما أذهلها ألا تجد بطاقة زوجها النحاسية كما تركتها وخيل إليها أنها أخطأت إذ كانت الفيلا تماثلها فى اللون والتصميم واضطرت أن تمر على جميع الفيلات الماثلة فى الشارع وأوشك النهار أن يمر دون أن تجد أثراً للبطاقة وكلت قدماها بعد أن قطعت جميع الشوارع الماثلة ذهاباً وإياباً حتى كادت تنهم نفسها بفقدان الوعى وهى تسير وأخرجها من حيرتها صوت جارتها التى استوقفتها فى الطريق إذ كانت عائدة من الخارج وبادرتها بلمهجة الأسف قائلة لماذا تركتم هذه الفيلا لقد تأملت جداً عندما أخبرنى زوجك بأنك مرضت بالروماتيزم ولا بد من نقلك إلى حلوان للاستشفاء، وقبل إن أسأله عن عنوانه الحديد غادر الفيلا قبل أن أعود إليه وتعلق . . أن شاء الله يكون مسكنك الحديد بشيراً بشفائك وصعقت انسجام ولكنها أخفت دهشتها وغالبت ارتباكها وأوهمتها أنها حضرت خصيصاً لتودعها وتحت إلحاحها بضرورة تناول القهوة معها تستجيب لرغبتها وتقع — انسجام — فى مأزق عندما تسألها عن مقرها الحديد لكى تزورها فهى لاتنس عشرتها الحميلة . . وعندما تركها الحارة لتعمل القهوة تنهز انسجام الفرصة لتتخلص من المأزق وتستأذنها لتودع جارتها الثانية وهى واقفة ريثما تعمل القهوة . . وسرعان ماتحتفى من الشارع ولما يطول غيابها تذهب الحارة إلى جارتها ولشد ما تدهش — عندما تعلم أنها

لم تذهب إليها ويفسران هروبها بعدم الرغبة في زيارتها.. وتعود انسجام إلى بيت أمها كسيرة القلب شاعرة باختناق أنفاسها رويداً رويداً حتى توشك أن تشل حركتها ولم تكد ترى وجه أمها حتى تلحظ أنها مهمومة إلى أقصى حد ويتبادر إلى ذهنها أن خالها المريض أصيب بمكروه. ولكن الأم تصارحها بأن ذلك أهون عليها مما حدث ثم تناولها ورقة أحضرها مندوب الشرطة وفي لفة واعياء تطلع الورقة ولا تستفيق من الإغماء إلا بعد أن تتصل أمها بالمستشفى وسرعان ما حضرت زميلة لها وأسعفتها وحاولت الأم أن تلتطف من حزن ابنتها بخنائها وكأن حديث الأم مبضعاً فتح جرحاً عميقاً في قلبها فخرجت متأوهة مهددة بصوت يتطاير من جرسه لب قلبها المحترق ، أظن أنني أتركه بكل بساطة ، سأعرف كيف أرد له صاع العذر صاعين ثم تخلو إلى نفسها لتفكر فيما يجب أن تفعله لتثأر لقلبها المطعون فقد كانت منحتة حبها وأخلصت له إلى حد التفانى فيه... إنها لم تتألم من غدر الرجل الذي أنتهك شرفها أذ كانت حديثة السن وتعرفت عليه بقلب كالزهرة التي تتفتح لأول قطرات الندى . . . ببسمة ونظرة أحبه كانت ساذجة تحسب الحب مؤكداً فيما ينطق به الرجل من كلمات حلوة وأمانى ترسمها أحلام العذراء البكر وأن الحب مفتاح الزواج ولن يخنث المحب في قسمة لأنها صادقة في حبها فهو بلا شك مثلها.. وهكذا أحبها بسرعة وغرر بها على عجل وتركها عندما استشعر بجرمته مجسمة بين أحشائها ودفعت ضريبة الساذجة والجهالة.. أما هذا الذي احتال عليها احتيال اللصوص الأدياء... لقد قاومت وأبت بعد أن تطهرت من رجس الشيطان وإزاء تمسكها بشرفها لحاً إلى الشريعة متخذاً منها وسيلة لتحقيق مأربه بجانب ما أبداه من حب وهيام بجانب تهديدها بتقديم الإقرار الذي استكتبها إياه . . أما وقد مزق الإقرار فباتت لا تحش الماضي وموقفها منه لا تشوبه أية شائبة وها هو بعد أن حملها على سحب كل ما ادخرته في البريد بدعوى شراء قطعة أرض باسمها ثم يبنها على حسابه

لتكون هدية منه تأكيداً لحبه يهرب في هذا الوقت تشعر - مسرة - بأعراض
الموضع ولم تلبث حتى ولدت في المستشفى تحت إشراف الدكتور مؤنس حريصة
على ألا تخبر فايد بذلك بعد أن اتفقت مع عمته على أن تخبره بأنها سافرت
عند خالتها في الصعيد لتقوم بخدمتها لعدم تمكن العمة من أداء هذا
الواجب لضعف صحتها ووضعت مسرة ذكراً أسمته - مؤنساً - وبدل أن
تتهلل لمراه انقبض قلبها وانهمرت دموعها عندما سمعت أول نغمة له .
واء... واء... واء... وأغمضت عينها مستسلمة لخاطر غير الخواطر التي
تمر بذهن من تضع لأول مرة وليداً وقد لاحظ ذلك الطبيب فتألم لها وعليها
محاولة أن يخفف من أسائها ليكتسح خواطر السوء منها لكيلا تصاب بسوء
مشرفاً بنفسه على رعاية الرضيع والعناية به ومرت الأيام وأشرفت الأم
على تمام العافية مستردة صحتها بفضل عناية الدكتور الذي لم يكتف برعايتها
بل عنى عناية خاصة بمشاعرها ليروضها على التعلق بولدها منها ضميرها
موقظاً مشاعر الأمومة حتى غلبتها أخيراً وأقبلت على طفلها ترضعه
وتهدده وتناغيه متناسية به ماضيها بما فيه من أحزان وأفراح .

وفي خلال هذه الفترة تردد انسجام على جميع الأماكن التي كان يتردد عليها
بمرافقتها وفجأة بينما كانت تشتري دواء لتقوية أعصابها التقت بمسرة في الصيدلية
تشتري بعض لوازم لاستحمام طفلها ... ووجدت انسجام الفرصة سانحة لتعرف
آخر أخبارها ... وطاف بذهنها إما أنها تزوجت بعد الطلاق وأنجبت أو أن
فايد ردها إليه... ورحبت مسرة بها ودعتها لمرافقتها لكي ترى رضيعها وتحديثاً،
حديثاً حاولت انسجام في خلاله أن تستلرج مسرة فيما يعينها ... وفهمت أخيراً
أن فايد لم يطلقها وأنه متمسك بها رغم إلحاحها وتمسكها برغبتها في الطلاق ولشد
ما هي حزينة لإنجاب ولد منه فتقاطعها انسجام...، ولا أظنه يطلقك الآن بعد أن
أنجبت له ولداً فتقول مسرة : سوف أوهمه أنني أجهضت إذ لا أحب أن
يعرف .. فتقاطعها انسجام باللهجة خبيثة بالعكس من صاحبة ابنك أن يعرف،
واسمح لي أن أزف إليه هذه البشرى ، فأين يقيم لأبشره وبصوت جادة تقول

مسرة ... أرجوك ولقد وضعت في المستشفى لكي أكون بعيدة عنه . وتحق
انسجام ارتياحها لهذا التصريح وهي تقول : ولكنه يحبك ولن يتخلى عنك
وخصوصاً الآن بعد أن أنجبت مؤنس فتقاطعها مسرة أنه لا يعرف الحب
عنده كالقمار يلاعب ولكي يكسب يغش ويخدع وبلهجة تم بنبراتهما عن الأسى
تقول انسجام .. إنك سيئة الظن به ولا يسع مسرة إلا أن تنتهد في مرارة معتبة وأنت
حسنة الظن به ولو سمعت مسرة ما رددته بينها وبين نفسها لسمعتها تقول فعلاً إنه
مقامر بارع وبلهجة التشفي تقول إلى هذا الحد أنت كارهة له؟ فتقول مسرة ككرهي
للشيطان تماماً فتنهد انسجام آسفة قائلة : ومن يسمع كلامه يظنه ملاكاً فتقول مسرة
بلهجة حزينة .. وهذا أفضح ما فيه : حديث ملائكي وتصرف شيطاني ، لطالما حاولت
أن أملا رأسه بكنز لا يمكن أن تمتد إليه يد اللصوص فتقاطعها انسجام دهشة أي
كنز ؟ فتقول مسرة كل ثروة يمكن أن تزول ، عدا ثروة الرأس ، فلو أنه حصن
نفسه بذخيرة من العلم والإيمان لكان من خير الناس للناس ، ولعرف كيف يسلك
طريقه دون أن يعتمد على ثروة بطريقة مشروعة أو غير مشروعة . غفر الله له
وأبعد عنه الشيطان وهنا تسكت لدخول بعض أقاربها للتهنئة وتضطر انسجام أن
تستأذن على أمل أن تعود في فرصة أخرى .

وبينا كان فايد يشترى من متجر بعض لوازم له لمح بجانبه خادمة عمه مسرة
ويفرح كأنه التقى بمسرة ويسألها عما جاء بها إلى هذا المتجر البعيد عن منزل العمه
فتقول إنها تركت خدمتها لأن حالتها العصبية أصبحت فوق الاحتمال وكانت تتمنى
أن تظل في خدمتها من أجل مسرة هانم وولدها الجميل ويفهم من سياق حديثها
أن مسرة أنجبت ولداً فيمنحها مبلغاً لهذه البشري ويهرول مسرعاً إلى مسرة
التي ارتاعت لمرآه وظنت أن انسجام هي التي أخبرته وبفرح جنوني
يقبل رأسها ويمد يديه ليختطف الرضيع من بين يديها —
فتتشبث به محتضنة إياه خشية أن يختطفه ويفر ولا يسعه إلا أن يجلس على
ركبتيه أمامها قائلاً . . مسرة خذي على العهد الذي يرضيك سأعمل
المستحيل لكي أكون زوجاً صالحاً ووالداً باراً وكأنها صماء لا تسمع

متطلعة إلى وجه الرضيع وهو يمتص لبن الثدي في هوادة ويطول حديثه
 في تصوير ما اعتزم أن يقوم به من كفاح لا يعرف الملل من أجلها ومن
 أجل ولده . . . وبصوت ينم عن مشاعر مختلفة متناقضة تجمع بين الشك
 واليقين قالت : أتمنى تحقيق ذلك من أجلك ياسيدى فيقاطعها بصوت
 كسير : أين نداؤك الحلو يامسرة . . إن كلمة — سيدى — تلك جديدة
 على مسمعى : . فلم تعلق واستطردت بصوت هادئ : لقد أصبحت معذمة
 وبلهجة التحسر والدموع تغلف حذقتها تردف : سوف أبحث عن عمل
 يكفل لى ولولدى العيش لأن عمى نفذ ما كان لديها من مال بعد بيع ما كانت
 تملكه من عقار فى سبيل علاجها الذى طال ولم يزل ثم ظهر لى رجلا لا أعرفه
 يطالبنى بتسديد مبلغ من المال يساوى ثمن العقار كله بدعوى أن والدى كان
 استدان هذا المبلغ وقت مرضه وقد كسب الحكم الابتدائى ووضع العقار
 تحت الحراسة ريثما يبت الاستئناف فى الحكم وأنا أعرف من وراء هذا المزعم
 وإذا كان الإنسان يدبر الشر فى الأرض فالله يدبر الخير فى السماء فاذا التقيا
 انتصرت كلمة الله وسكنت قليلا مطرقة وقد عادت بنحياها إلى الماضى ، ثم
 احتضنت رضيعها كأنها تحاول أن تحميه منه ولم يفته ذلك فاغتصب بسمه وهو
 يقول : سيشفع ولدى عندك فتهدت فى مرارة وهى تقول : ليتك ظلت
 كما رأيتك أول مرة ليراك ولدك على هذه الصورة الملائكية فانطلق وجهه
 بالبشر قائلا . . سأكون كذلك يامسرة . . قالت : ليتك ظلت ذلك
 الإنسان الذى لا يتكلم إلا صدقا ولا يمد يده إلا لعمل الخير ، ذلك الإنسان
 الذى يتسلل إلى أعماقى ليعزف على أوتار مشاعرى بمزامير الحب الإلهى مرتلا
 أجمل أغاني التصوف . . يوم مثلت هذا الرجل فى أروع صورة ظننت
 أنك كذلك . . يومئذ أيقنت أننى بك سوف يزداد إيمانى ويعلو قدر
 يقينى . . كم كنت أتمنى أن تظل كذلك وألا تتحول إلى شيطان قابع
 فى صدر إنسان . وهزتها ذكريات الماضى التى احتلت ذهنها وزلزلت مشاعرها
 فخافت أن يسرى مفعولها كالسم فى لبن الرضيع فسكنت لتجفف دموعها

التي طفرت لفرط تأثرها ثم قالت بلهجة الابهال . . . هداك الله من أجل
ولذلك الذى أرجو من الله أن يشب فيجداك كما أتمنى ليفخر بطهرتك وإيمانك
الذى يحميه من أعاصير الحياة ورسوسة الشيطان ، وهنا سكنت عند دخول
الخادم لتطلب من مسرة نقوداً لشراء اللازم فكلفتها بمراقبة الطفل ريثما
تحضر لها النقود وعلى أثر خروجها سأل الخادم ولماذا لا تطلب النقود من الست
الكبيرة فقالت إنها تعطى النقود للست الصغيرة لكي تصرف وبعد أن أعطاها
مبلغاً من المال عرف أن العمة أودعت ثروتها في مكان ما وقد طلبت من
الست الصغيرة أن تضع نقودها وحليها في البنك أيضا وقد سمعت أنها حرمت
من لا يستحقون لحودهم وعقوقهم من الميراث بوصية تركتها عند المحامى
وكلفت الست الصغيرة بأن يكون ابنها الوريث الوحيد لها وسكنت عندما
دخلت مسرة لتحمل الطفل إلى مضجعه بعد أن نام واستأذنته لقيامها ببعض
أعمال البيت قائلة له لكي ينصرف : لا تفكر في استئناف حياتنا الزوجية
سأعيش لولدى وهذا حسبي والله يتولانا برعايته فانتصب واقفاً وهو يقول
بلهجة التحدى . . . لن يفرق بيننا إلا الموت وحتى ألقاك أرجو لك ولولدى
أسعد الأوقات . . . وخرج من عندها مشغول البال بثروتها واستطاع
بوساطة صديق موظف في البنك أن يعرف رصيد العمة ورصيد والد مسرة
قبل أن يسحبه مرة واحدة قبل وفاته بأيام وأيقن أن مسرة هي التي استولت
على رصيد والدها وهي تحتفظ به قطعاً مع مال عمها حيث لم تدعه في البنك
ولجأ إلى رجال المغناطيس ليعرف مكان النقود وإلى جميع العرافين فلم
يوفق ولما اشتد ضيقه وازداد قلقه واضطرابه الفكرى اضطرب ان يتردد على
مسرة محتجا برؤية ولده على أمل أن يهتدى الى معرفة مخبأ النقود في البيت
فمرة يتمارض بدعوى مخصص كلوى حاد ليستريح في غرفة نوم العمة ريثما
تهبأ الحالة ومرة ينتهز فرصة نوم ولده في غرفه مسرة فيستريح بجانبه ريثما
يصبحو الرضيع وراعه أثناء ترده تأخر صحة العمة وبات يخشى أن تقضى
العمة نحبها ويحاصر أقاربها الغرف وقد تكون مسرة غير عليمه بالخبأ ، إذ كانت

بطبيعتها لا تهتم بالبحث عن المال والجري وراء الجاه ورغم تجنب مسرة له فقد واظب على زيارة ولده متجاهلاً عدم ارتياح مسرة لزيارته وإعراضها عنه رغم محاولته التقرب إليها بشتى الأساليب ، فلما ازدادت صحة العمة سوءاً أحضر لها طبيباً من تلقاء نفسه وقدمه إلى مسرة بأنه أخصائى فى الأمراض المستعصية وبعد أن شخّص الطبيب المرض أمر بضرورة تدليكها طبيباً على أن تقوم بذلك ممرضة اخصائية ووعده بإرسال ممرضة ممتازة فى التدليك وعلى أثر انصراف الطبيب وفايد فوجئت مسرة بمقدم انسجام على غير ارتقاب وكانت استغفرت ربها من قبل لاتهم انسجام بتبليغ فايد عن ولادتها إذ تبين لها من سياق حديث فايد مقابلته لخادم عمتها التى طردتها لسوء سلوكها وسألتها إن كان لها خبرة فى فن التدليك فتجيب بما طمأن مسرة وسرها أن تكل إليها هذه المهمة ، وترحب بانسجام ، وأثناء حديثهما الخاص بالتدليك يدخل فايد تصحبه امرأة متصاية تبدو ميوعتها من لهجتها رغم احتشامها وعندما يقع نظر فايد على انسجام تحرسه المباغطة ولكنه يمالك نفسه بسرعة متجاهلاً إياها كأنه لم يرها ولكن — مسرة — تلفت نظره إليها قائلة . . . الآنسة انسجام ساقها الله إلى لتقوم بمهمة التدليك وهى ممرضة ممتازة كما أعرفها منذ كنت فى العيادة . . . ويجيبها فايد بانحناء رأسه معقياً ولكن الدكتور أرسل . . . فقاطعته مسرة : كل شىء نصيب . . . وعلى كل حال لا ضير من التعارف الآن فقد نحتاج إليها إذا تغيبت وتتهققر انسجام بضع خطوات قائلة . . . اسمحى لى يامسرة هانم أن أنسحب ما دامت مدام أو مدموازيل لا أدرى من قبل الدكتور المعالج . . . وتعلق مسرة . . . حضرتك ممرضة فى الحكومة أم حرة فتنظر الزائرة إلى فايد حائرة ماذا تقول ؟ فيسرع فايد : . . . إنها ممرضة فى المستشفى الخاص بالدكتور ظافر فتعلق انسجام لم أسمع عنه فيقول فايد بلهجة الغيظ : اعتقد أنك لا تعرفين جميع الأطباء يا آنسة أو يا مدام لا أدرى ؟ . . . وهنا تنسحب الزائرة موجهة الكلام إلى فايد . . . تستطيع أن تخبر الدكتور لكيلا يتهمنى بالتقصير فتستبقها

مسرة لتتناول القهوة أو الشاي كما تحب . . وتشعر انسجام بدوار
حاد فتستأذن مسرة قائلة . . سأذهب الآن لأخذ اجازة ريثما انظم وقتي
لكي أتمكن من القيام بخدمة العمه في وقت فراغي وتخرج مسرة تجر
صاقيها وبودها لو تختفي من الوجود ولم تكذب تبلغ الشارع حتى تشعر بمن
يسير بجانبها قائلاً : اتبعيني عندي ما أقوله لك فلم تجب وأشارت إلى تاكسي
ولم يكذب التاكسي يقف وتركب فيه حتى يركب من الجهة الأخرى قائلاً
للسائق إلى كازينو قصر النيل . . وتضطر أن تدلف لتقول له . . لست
غاضبة بل أنا سعيدة بعودتك إلى زوجتك ووالدك فيقول . . لا تحكمني
على حتى تسمعي ما أقول لقد كنت مدينا بمبلغ كبير لسبب مرض والد
مسرة ولقد علمت أن الدائن عرف مسكننا وأنه يتخذ إجراء الحجز على
الأثاث لبيعه لذلك عجبت بنقله واحتفظت به عند صديق لي . . ولقد
قيل لمسرة أنني تزوجت واكمها لا تعلم من تكون الزوجة لذلك طلقته لكي
أبعد الشبهة عنك وكان في نيتي وما زال أن أردك لتقفي بجانبى لكي استرد
مالى الذى سلبته منى دون أن تشعر بعلاقتنا وقد حمدت الله لوجودك
عندها لعلاج عمتها لأن ذلك يسهل إلى مهمتى ويوم أحصل على مالى سوف
أطلقها وأردك إلى عصمتى ونرحل معا إلى بلد عربى شقيق نعيش فى أمن
وطمأنينة ولم يفرق إلا بعد أن اطمأن بأنها أصبحت كالخاتم فى أصبعه
يحركه كيفما شاء . . . وعادت انسجام كما وعدت مسرة لتقوم
بمهمتها وبعد أسابيع قلائل تحسنت صحة العمه فعلا بوسيلة العلاج الطبيعى
وفى يوم ما أرسلت انسجام الخادم لتحضر بودرة تلاك من الأجزخانة وكانت
مسرة تستحم فى الحمام وكان الطفل نائماً فى عربته بداخل باب المطبخ
ليكون تحت إشراف الخادم وهى تقوم بتنظيف المطبخ وفجأة تصرخ
انسجام مستغيثة وتخرج مسرة من الحمام فى فزع فاذا باللهب البوتجاز أشعل
كل شئ فى المطبخ وسرى اللهب على عربة الطفل وتجرى مسرة نحو
العربة المحترقة صارخة والدى . . والدى فتشدها انسجام لتبعدها عن

اللهب صارخة وامطيبته احترق . . وترتمى مسرة على الأرض فاقدة
الوعي وبعد أن تستفيق ويأخذ التحقيق مجراه قيل أن الخادم تركت أنبوية
البوتاجاز مفتوحة وعلمة الكبريت بجانب أحد عيونه المفتوحة . . ونشرت
الصحف الحادث مع ذكر اسم مسرة فلما قرأ الدكتور مؤنس الخبر أسرع
إلى بيت العممة ليواسيها ولشد ماروعه أثر الحريق الواضح على وجه مسرة
وعلى يديها ولكنه طمأنها وأكد لها أن الطب الحديث كفيل بإزالة
هذه الآثار وتعود البشرة ناضرة كما كانت . . وحملها إلى المستشفى
لتكون تحت رعايته ، في هذا الوقت تنهز انسجام الفرصة
وتتمكث مع العممة لتريضها حسب وصية مسرة منفذة تعليمات فايد للبحث
عن أموال العممة ومصاغها وأوراق مسرة الخاصة وهو بدوره يتردد بدعوى
الاطمئنان على العممة وليشاركها في البحث وكان الدكتور مؤنس يعود
العممة من حين إلى حين ليطمئن مسرة ولكي يزيد من اطمئنانها أخبرها أن
زوجها يهتم بعمتها ويبدو أنه يقضى أكثر الوقت للإشراف عليها إذ كلما
جاءها وجده عندها . . وبدل أن تبدى مسرة ارتياحها لهذا الخبر أبدت
استياءها وتخوفها ورغم اعتقادها بأن انسجام تقوم على خدمة العممة
على الوجه الأكمل كما تشعرها كلما اتصلت بها تليفونيا إلا أن القلب راودها
عندما علمت بتردد فايد وسيطر عليها القلق إلى حد دفعها إلى ترك المستشفى رغم
معارضة الدكتور مؤنس وقبل إتمام علاجها ولما عادت إلى بيت عمتها بادرت
إلى رفع الستار الموجود خلف سرير العممة وتنفست في ارتياح لاطمئنانها
على أمر كان يشغل بالها . . ولم تلاحظ أن انسجام وهي جالسة بقرب
العممة كانت ترقبها خلسة فلما غادرت مسرة الغرفة أسرع وقت نوم
العممة لترى ما وراء الستار ولشد ما أذهلها وجود صيوان سحري داخل
الحائط كأنه نافذة معلقة وشعرت في التو بأنها وضعت يدها على المفتاح
الذي يبحث عنه فايد لكي يردها فايد إلى عصمته ويعيد إليها نقودها التي

نشلت منه في الطريق كما قال لها ولم يمض اليوم حتى اختلست فرصة وأخبرته
تليفونيا باكتشافها ونهبها إلى ضرورة العثور على المفاتيح بأي وسيلة فلما
تامت العمة تسالت إلى غرفة مسرة بعد أن لاحظت أنها تضع المفاتيح تحت
وسادتها عند نومها وتنهت مسرة إذ لم تكن مستغرقة في نوم عميق كما
تصورت. انسجام وبصوت مرتجف النبرات قالت مسرة في ذعر . . من؟
. . وقاومت انسجام اضطرابها وهي تقول سمعت شخيرك فجئت
لاقوم رأسك وتركتها راجية لها أحلاماً سعيدة وتمر بعض
أيام تفشل خلالها انسجام في الحصول على المفاتيح لخفة نوم مسرة من
جهة ثم عن لفايد أن تجرب عدة مفاتيح أثناء نوم العمة بعد أن حقنتها بحقنة
منومة وعندما قبلتها مسرة كالمعتاد كل ليلة قبل مغادرتها لتنام . شعرت بأن
جبينها بارداً وكذلك أطرافها ولم تشأ أن تزعج العمة وآثرت النوم بجوارها
طوال الليل لتجس نبضها للتأكد من انتظام قلبها ولم تستطع انسجام دخول
الغرفة ليقظة مسرة للاطمئنان على العمة واضطرت في الصباح مغادرة
البيت طول النهار لتجديد أجازتها المرضية التي تعمدت أن تأخذها بمعاونة
المعاون صديق فايد ولم تستطع الاتصال تليفونياً بفايد لعدم وجوده في مكان
معروف في حين اتصل بها تليفونياً فلم يجدها فاضطر أن يذهب إلى بيت
العمة بدعوى الاطمئنان عليها وعلم من الخادم أن انسجام خرجت وسوف
تعود قبل المغرب كما أخبرت مسرة وفي حذر غافل مسرة وكتب رسالة
إلى انسجام سلمها للخادم خفية وكلفها بتسليمها إلى انسجام لأنها من والدتها
ولا تريد أن يطلع عليها أي أحد وأعطاه الرشوة المعتادة وبعد خروجه تشعر
مسرة بصداغ شديد فتكلف الخادم بشراء أسبرين من الخارج وقامت هي
كوب شاى ريثما تعود الخادم وعندما دخلت المطبخ لمحت منديل الخادم
يربط طرفه على ورقة خيل لمسرة أن الخادم سرقت مبلغاً من المال وتخفيه بدليل

أنها وضعت المنديل في زاوية لولا فتح النلية لإحضار الشاي لما رآته
ولاشدما روعها ذاك الذي قرأته رسالة من فايد إلى انسجام لكنها تماكنت أعصابها
ووضعت المنديل مكانه وتشاغات ببعض مهام البيت وهي تفكر فيما عساها
أن تفعله ومضى النهار وهي تعاني من مشاعر الخوف والفرع ما يفوق
طاقاتها حتى عادت انسجام فاستقبلتها بتكلفة المدوء والبشر ولكن انسجام
لاحظت شحوب وجهها وشروذ فكرها فلما صارحت بأنها غير طبيعية قالت
ربما من أثر الصداع الشديد الذي تشعر به فكلفتها باستدعاء الطبيب ولكن
مسرة فضات الذهاب إليه لكيلا تعطل عيادته في هذا الوقت المزدهم بالمرضى
وختمت حديثها بقولها إنها ستمر على قريب عمها التي تحتفظ عنده بمال
لكي تأخذ منه مبلغاً وتوصيها بعمتها خيراً وذهبت إلى الدكتور مؤنس
وصارحته بما قرأته في الورقة فهدأ من روعها واتفق معها على إجراء اللازم
ولم يدعها إلا بعد أن بدد فزعها وطمأنها وعادت إلى العمة وجلست
بجوارها تتلو القرآن بينما جلست - انسجام - بعد أن ناولتها الخادم الورقة
سراً يبيديها وهي تفكر فيما هي مقبلة عليه وما ينتظر وقوعه في منتصف
الليل محاولة أن تخفي ارتباكها مقاومة هواجس القلق إذ تخشى الفشل فتسوء
العاقبة ومضى الوقت في ببطء أو هكذا خيل إليها بينما هرعت مسرة إلى
مخدعها متكلفة الرغبة في النوم وأغلقت باب غرفتها من الداخل ولم يكده
الليل ينتصف وهي أشد ما تكون هلعاً وتراعى إلى مسجعا صغيراً من وراء
نافذة غرفة نوم العمة ولا تدري ماذا حدث غير أنها اضطرت إلى فتح باب
غرفتها على صوت ضابط المباحث . . . افتحى ياهانم لقد قبضنا على الخناة
وكان أول ما استرعى انتباه مسرة وجود انسجام بين الخناة وأثر ذلك في
نفسيتها تأثيراً فظيماً إذ لم يمر بخلدتها أن تكون انسجام خائنة مجرمة إلى هذا
الحد ورغم الصخب والضجيج الذي نبه سكان العمارة فهرعوا إليها فإن

العمة لم تستيقظ واندفعت مسرة تنادىها برفق فلما طال سكوتها حركت
يديها مكبرة في أذنيها وجذبت إحدى الحيران يدها لتجس نبضها وبدل
أن تصرخ غطت وجهها بالملاءة وهى تردد الشهادة مع ذكر إنا لله وإنا
إليه راجعون وشملهم جميعاً رهبة الموت بينما ارتمت مسرة على صدرها
بأكية مرعدة عمتى . . عمتى :

بداية حياة

اختفى فايد ولم يكن مع الخناة عند القبض عليهم بواسطة الكمين الذى أعد لهم واستطاعت انسجام أن تبرئ نفسها بدعوى أنها ممرضة العممة ومن حسن حفظها أو لعلها تعمدت ألا تظهر مع الخناة حينما دخلوا غرفة العممة لكسر الصيوان المسحور وتظاهرت بأنها استيقظت من نومها على صوت حركة.. ومرضت مسرة ولم يتخل عنها الدكتور مؤنس محاولاً أن يزيل كربها ويهدئ من روعها وفجأة ظهر — فايد — وكأنه كان على سفر ولم يعلم بالحادث إلا بعد عودته واستطاع بدهائه أن يثبت أنه كان فى الاسكندرية ليلة الحادث إذ قدم للنيابة ما يثبت سفره صبيحة يوم الحادث وتمضية الليل فى فندق بالاسكندرية متهماً الخناة بأنهم أعداءه وساعده على تأكيد ذلك أنه لم يوقع باسمه على الورقة وبدأ يتردد على مسرة بدعوى الاهتمام بها موهماً إياها بأنه لا علاقة له بانسجام وأن الورقة التى وجدتها مع الخادم ليست منه وكان فى مقدوره أن يبلغ ماجاء فيها لانسجام تليفونياً أو منتهزاً أى فرصة أثناء زيارته لعمتها ولم تحاول مسرة مجادلته فى نفس ما زعم أو تأكيد ما حدث كأنها تعيش بمشاعرها وفكرها فى عالم آخر لا علاقة له بماضيها وحاضرها وإذا حدث وحضر الدكتور مؤنس لعيادة مسرة قابله بفتور متكلفاً الحزن والألم لمرض مسرة على أن الطبيب كان يلاطفه ويطمئنه ويشعره بأنها فى حاجة إلى رعايته وحنانه وعليه أن يعرضها حنان والدها وعمتها فان ذلك أجدى من الدواء وعلى أثر تمام الشفاء استدعتها النيابة لإتمام التحقيق ونصحها الدكتور مؤنس عندما استشارته فيما يجب أن تقوله نصحها بأن تكتم أمر الورقة لكيلا تدين فايد وانسجام مادامت المؤامرة فشلت وأكد لها أنه لو فرض وعوقب فايد وانسجام فلن يغير من طبيعتهما وقد يزيد سجنهما من حقدهما والانتقام منها بوسيلة أخرى وقد يثوبا إلى الله بعد هذه التجربة الحاسرة .

وبدأت مسرة تواجه الحياة من جديد مفكرة في وسيلة تحمل زوجها على طلاقها وهي تعلم أنه عابد للمال والثراء مهما تظاهر بغير ذلك وهو لا يبقى عليها الآن إلا لاعتقاده الراسخ بأن وراءها ثروة لابد أن يحصل عليها في يوم من الأيام وأخيراً صبح عزمها على أن تظهر بمظهر الفقيرة المعذمة فباعَت حاجياتها الخاصة ونصبتها من الأثاث في ميراث العمة بعد أن استولى عليها الورثة وانتهزت فرصة زيارة فايد وقبل أن يتحدث إليها طابت منه مفتاح بيتها لكي تذهب لإحضار حليها وحاجياتها الخاصة لبيعها كي تقتات منها ولم يدعها تسترسل في الحديث فصارحها بأن الدائن له نفذ الحجز وباع الأثاث كله أما الحلي فقد باعها عندما كان يتردد عليها في المستشفى وفي نيته أن يشتري لها بدلاً منها بعد أن يحصل على أرباح تجارة اشتراك مع صديق له فيها ولم تشأ أن تحتج على هذا التصرف لأنها كانت متوقعة استيلاءه على كل شيء وتظاهرت بقبول الأمر الواقع واسعفتها قريحتها باختلاق رغبتها في العمل وأنه في مقدورها مزاوله مهنة الحياكة واعترض محتدماً قائلاً أنه لا يليق بزوجة ابنة الوجيه عادل (بك) أن تعمل في حقل الصناعة الذي لا يعمل فيه غير الفقيرات سليلات الأسر الفقيرة وهنا دافعت بحماسة عن المرأة العاملة وأن التطور لم يعد يفرق بين المرأة الغنية والفقيرة إذ يتحتم أن تعمل المرأة أي عمل مهما كان مستواها وبعد جدال مزج بين العنف واللين تركها غاضباً غير راض عما أشارت إليه ولكي يصدق أنها جادة غير هازلة وفقيرة معذمة اتفقت مع الدكتور مؤنس على أن يسمح لها بالتردد على المستشفى من آن لآخر لكي تحيك ملابس للنساء الفقيرات والأطفال اليتامى على حسابها الخاص بعد أن قدرت قيمة الزكاة المفروض أن تدفعه عن ميراثها من أمها وأبيها وعمتها دون أن تحرم أقاربها الفقراء من حقوقهم المشروعة وأكثر — وخامر فايد — الشك فيما زعمت فراح يتردد عليها من آن لآن فإذا به يراها تحيك

الملابس حقاً ولكي تشعر بأن الحياة خاصة بنسوة وأطفال لاعلاقة لها بهم أخبرته أن صديقة لها تتولى توريد الأقمشة المطلوبة حياتها عن طريق متاجر الأزياء الجاهزة لأن صحتها لا تساعد على استقبال الرغبات كما أنها تضيق بالنقاش والثرثرة وبعد مضي [بعض شهور لاحظ خلالها أنها قامت بحياة ملابس تقدر بمبلغ كبير وخاف أن يتحدث إليها في هذا الشأن فتسبب الظن به لذلك لجأ إلى انسجام وطلب منها أن تزورها بدعوى أنها ترغب في حياة ملابس لها ولكي تعرف قدر دخلها ورحبت مسرة بها وهي تشعر في قرارة نفسها بأنها لا تتقاضى أجراً من ذويها وصديقاتها وهي قانعة بما يسد مطالبها والحمد لله وتكررت زيارات انسجام دون أن تلاحظ أي أثر للترف إذ تعمدت مسرة ذلك وفي سياق الحديث والذي جرى بينهما أكدت لها مسرة أن ثروة أبيها استولى عليها الدائنين ففرضت لها انسجام وأبدت استعدادها في أن تساعد في الحياة وقت فراغها لتهدئ عليها جهد العمل ولكن مسرة رفضت شاكراً لها أريحيها وصعب على انسجام أن يتركها فايد على هذه الصورة معلقة يحاول بداهته أن يستغلها على أمل أن يرددها بعد أن يطلق مسرة فتحتال بأسلوب العطف أن تشجع مسرة على المطالبة بالطلاق مادام لا يحبها وهي كما تسمع عنه يصرف في إسراف واضح فتعارض مسرة على هذا الاقتراح وتخبرها أن ابن خالتها طلب منها أن تطلب الطلاق عن طريق المحكمة ولكنها رفضت لاعتقادها أنه يتحتم على الزوجين ألا يسمحا بأشهار خلافهما على مسمع من جماهير المحاكم فإذا صعب عليهما التفاهم أو الفراق فليتركا الأمر لله واستطاعت انسجام أن تقنع فايد بأن مسرة أصبحت فقيرة معدمة حقاً وأنه في مقدورها أن تساعد بالتأثير على مسرة لكي تتنازل عن حقوقها الشرعية مقابل الطلاق وساعد على صحة هذا الزعم ظهور زوجة والدها بمظهر الثراء حتى ظن أنها استولت على ثروة والد مسرة مستعينة بأحد المزورين لإثبات صحة الديون التي عليه ومع أن الطعن

الذى رفعته مسرة لم يزل مؤجلاً والحارس يستولى على الإيجارات وقد رآه أكثر من مرة مع الزوجة في سيارة وعندما أخذ عليها ذلك قالت أنها اضطرت لمرافقته بناء على دعوة محاميها . . ولم تمر أسابيع حتى طلق مسرة على أمل أن يتزوج زوجة والدها زواجاً عرفياً حرصاً على معاشها كما اتفقت معه سابقاً وأوهم انسجام بأنه طلقها لكي يردّها إلى عصمته نهائياً بعد أن يطمئن إلى عدم مطالبتها نهائياً بأى حق من حقوقها الشرعية .

في هذا الوقت ينتدب الدكتور مؤنس للعمل في السعودية وقبل سفره ذهب لمسرة مودعاً راجياً لها الصحة والطمأنينة وحز عليها مغادرته وهي في حاجة ماسة إليه في هذا الوقت العصيب وحرمانها من عطفه ورعايته كلما مسها المرض وأصيبت بمكروه على أنها تظاهرت بالسرور لسرده لما يأمل أن يخفى به من تقدير كامل إزاء ما يقدمه من خدمات طبية موفورة في سبيل النهضة الطبية الحديثة هناك لتكون أسوة بمصر وقبل أن يغادر القاهرة رأى لزماً عليه أن يعيد إلى مسرة ما استودعته من أموالها وحلى عمتها ولكنها أبت وإزاء إصراره على ضرورة تسليمها الأمانة أو إيداعها باسمها في البنك طلبت منه أن يعينها قبل رحيله على استغلال الثروة استغلالاً اقتصادياً يعود على الوطن بالنفع الوفير لوجاهة الفكرة راح يستعرض معها عدة مشروعات وأخيراً استقر رأيهما على شراء شهادات للاستثمار وقبل رحيله نفذ هذه الفكرة ومرت الشهور انضمت خلالها إلى أحد الجمعيات النسوية لتسهم في الأعمال التي تعود على الأسر الفقيرة وفي خلال هذه الفترة تأكد فائدتها أصبحت فقيرة بعد أن أكدت له انسجام على أثر زيارتها لها عدة مرات بأنها اشتغلت كعاملية في إحدى الجمعيات . . .

وفي عيد ميلادها الذي لم تعد تحفل به وكأنه مجرد يوم متناسية إياه بما تقوم به إذ لم يعد في الحياة من تهتم به بعد والدها وعمتها فوجئت بزيارة الدكتور مؤنس وأخرستها المباغته وبدأ الانفعال على لمحاتها فلون

وجنتيها بلون الشفق وخيل إلى الدكتور أنها عادت إلى زوجها وتخشى أن تستقبله فظل واقفاً في مكانه وقال . . يبدو أنني أخطأت . . فاستعادت هدوءها وابتسمت مرحبة به متخذة من اعتذاره دعابة بريئة موحمة إياه بأنه لا ضير من زيارتها في أى وقت فزوجها يعلم أنه طبيبها الخاص ولقد جاء في الوقت المناسب كأنه ملهم لأنها متعبة ويوارى الدكتور ما ألم بنفسه مغتصباً بسمة إذ لم يكن يتوقع رجوعها لزوجها وقال بلهجة جادة . . عليها بؤادر الحمل فضحكت بغير صوت وهى تفسح الطريق له مشيرة إلى المقعد ليجلس قائلة . . من يراك يظن اننى مدينة لك وحن سداد الدين . . ثم لزمت الحد وقد ارتسم على محياها اشعاع مشاعرها مردفة . . لأنكر أننى مدينة لك بحياتى كلها وبعد أن اتخذ مجلسه طرق الباب فانتصب واقفاً قائلاً . . عله زوجك وهو غيور فأشارت إليه قائلة أنه لا يغار من انسان شريف وقور وفتحت الباب فإذا بها انسجام وكانت لاتعلم شيئاً عن مغادرة الدكتور للقاهرة وحاولت مسرة ألا تنبهها إلى ذلك أثناء الحديث مدعية أنها متعبة وقد استدعت الدكتور لذلك . . وانصرفت انسجام موقفة أن العلاقة مازالت قائمة بين الطبيب ومسرة وعندما كاشفت — فايد — بذلك أوغرت صدره ونهت حقه وفكره في الانتقام من الطبيب ولزم الطبيب الصمت لا يدرى ماذا يقول . . وتحرك لينصرف وأدركت مسرة مايجول بخاطره مما بدا على وجهه من انطباع مشاعره الخفية فابتسمت قائلة . . شكراً لله الذى مد فى عمرى حتى أراك . ! قال بصوت هادئ ، إلى هذا الحد قطعت الأمل فى لقائى . . قالت . . ظننت أنك ستجد هناك مايغريك على نسيان من هنا قال . . قد أكون وجدت فى البلد الشقيق والصديق والمعين ولمست فى أهل السعودية النبل الأصيل والكرم الوفير والشهامة العربية التى تحبو كل غريب بالعطف والرعاية فيشعر أنه يعيش بين أهله وعشيرته . . فقاطعت لعل مدة إعارتك انتهت . . قال أبداً جئت فى اجازة وقد شئت

أن اطمئن عليك وحمدا لله لأنك عدت إلى زوجك وأرجو لكما السعادة والتوفيق وأظن مهمتي انتهت ثم وقف متأهبا للانصراف . . فاشأرت بيدها ليجلس قائلة . . لم يزل عندي ما أقوله لك إن تفضلت بعض دقائق . . فجلس وقد شاع على وجهه الرغبة لسماع ما تريد قوله . . فقالت بصوت هادئ رقيق وقد لمعت عيناها بهريق الإشراق . لو كنت أعرف عنوانك بالضبط لأرسلت إليك يوم ميلادى فتقاطعها فى دهشة . . أليس اليوم عيد ميلادك . . فهزت رأسها مردفة . . قد ولدتنى أمى اليوم حقا . . ولكن ميلادى الحقيقى يوم طلقنى . . فأنهر وقد انفرجت أساريره وردد . . طلقت . . قالت . . أجل والحمد لله فاصطبغ وجهه بحمرة بانة انعكاساً لحرارة قلبه الذى مسه هذا الاعتراف وقال . . لست أدرى ماذا أقول . . المهم أن تكونى سعيدة . . قالت الآن إلى حد . . وأخشى أن تكون السعادة التى أتخيلها الآن سراياً وهنا انتصب قائلاً لظالما تحدثنا عن السعادة والشقاء والحديث لا يغير وجه الواقع مع الأسف فقطاعته لم نشرب الشاى معاً منذ عام مازلت أتخيل آخر مرة شربنا فيها الشاى سوياً هنا الساعة السابعة مساءً اقبل مغادرتك القاهرة بساعات معدودات أتذكر ؟ فشعر بانتهفاضة شاعرية رقيقة نهت وجدانه وقال : ظننت أنك نسيت ؟ ! قالت لا أحسبك جاد فى هذا الظن وكأن مساءً من الواقع نبهه فقال . . وإن كنت لم أسمع بعد الحديث الذى ، أستبقيتنى من أجله . . قالت وهى فى طريقها إلى المطبخ لعمل الشاى . . أحيانا يتغير الحديث وإذا بحديث آخر لم يكن فى الحسبان . . قال : فعلاً قالت . . كيف مر بخاطرك أن أعود إلى الرجل الذى أسموه يومئذ زوجى بعد الذى حدث . . أولم تذكر محاولتك لكى أعود إليه وبصوت خفيض أردفت . . كان لابد أن نفرق وقد افترقنا والحمد لله إلى الأبد وكنت أتمنى أن أخبرك لاطمئنك على الأقل ولكنك لم تكتب إلى لاطمئن عليك وأعرف عنوانك قال : عن عمد فعلت خشية أن تقع الرسالة فى يد زوجك فىسىء الظن إيانا قالت وقد

بدت على شفيتها ابتسامة حلوه مادمت بخير فأنا بخير قال — على فكرة . .
قبل أن أغادر القاهرة . . لى صديق طبيب رآك وأنت فى المستشفى وقد
أعجب بك ولخوفه من الله لم يشأ أن يظهر هذا الإعجاب وقد يكون حبا
لأنك كنت زوجة ولا أظنه الآن يتردد فى أن يتقدم إليك طالبا يدك بعد
طلاقك هذا إذا كنت لاتمانعين . . وأطرقت لتخفى إحساسها الذى
غمرها ورفعت وجهها إليه دون أن تتكلم وقلبا ينبض بمشاعر
الفرح فعاد يقول : مارأيك . . سألقاه الآن وأزف إليه بشرى سراحك
فقاطعته . . اتظن اننى اتزوج برجل مهما كان شأنه دون أن أتأكد من
خلقه فقاطعها إنه مثلى تماما فقالت بصوت ترتجف نبراته بتأثير مشاعرها
المنتفضة شكلا وقالبا وعقلا وطباعا نبلا وشهامة . . فقاطعها . . إنه
انسان يتقى الله وهذا حسبه قالت بلهجة التأكيد . رغم ذلك لابد أن
أراه ويرانى فى بيتى على طبيعتى ألا ترى ذلك ضروريا ؟ . . قال
لتكن مشيتك .. انتظرينا غدا إن شاء الله . . وجاءها فى اليوم التالى وحده . .
فابتسمت وأوعزت إليها مشاعرها ما كان يعنيه بالأمس ولكنها تجاهلت
إحاسيسها وقالت . . لم تحدثنى عن السعودية البلد الذى اصطفاها الله سبحانه
دون العالم مقرا للرسول الحبيب (صلعم) قال : حديثها يطول . . وله فرصة
أخرى . . أما اليوم فيلادى وقد جئت أحفل به معك فشاع البشر وانطلقت
كل جارحة فيها مزغردة بغير صوت قائلة . . ولماذا لم تخبرنى البارحة
لكى استعد قال : أجمل ما فى الحياة المفاجأة السعيدة . قالت فعلا ومدت
يدها لتصافحه مهنته فلم يترك يدها إلا بعد أن وضع دبلة الخطوبة فى
أصبعها قائلا . . بلا مقدمات مارأيك . . وناولها دبلة اسمها مع أصبعه
فوضعتها بيد ترتجف من شدة الفرح قائلة . . لم يخدعنى قلبى ثم
طوق جيدها بقلادة ثمينة وغمرتها دموع البهجة والسعادة التى لم تكن فى

الحسبان ونظرت إليه بعينين دامتين وغمغت بشفتين مرتعشتين ، أخشى
أن أكون في حلم جميل فقبل جبينها وكأن القبلة أفاقها من سبات عميق
فانتبهت مصغية إليه وهو يقول : لا أكتملك أننى ذهبت إلى السعودية
لأكون بعيداً عنك إذ كنت أشعر بمرارة الحرمان تلدغنى كالعقرب
كلما رأيتك أوطاف خيالك بذهنى وقد كان ماثلاً أمام عيني في الصحو
ويورق مضجعي في المنام . . وحاولت نى غربتى أن أتناساك

صراع مع الشيطان

استقر بهما المقام في المدينة المنورة بالسعودية وقد تعمد الدكتور مؤنس أن يحدد المستشفى الذي يعمل بها في هذه المدينة الطاهرة التي يختلط بهواها أرج اطهر الأنفاس منذ وطئت قدمي الرسول (صلعم) أرضها وعاشا حياتهما في هدوء وطمأنينة تحت طلال روحانية الحب الذي لا تشوبه شائبة من شوائب الماضي البغيض، متفانية مسرة في خدمة زوجها ورعايته ليشعر بالسعادة الكاملة وهو يعمل ليل نهار ليكفل للمرضى طمأنينة تدعو للشفاء العاجل وفي هذا الوقت اصطدم فايد بسيارة في الطريق ونقل إلى المستشفى وأثناء علاجه تراسى إلى سمعه حديثا دار بين ممرضتين على مقربة منه فحواه أن الدكتور مؤنس تزوج بأمرأة مطلقة كان يعالجها قبل سفره إلى السعودية وتنفي الزميلة هذا الخبر قائلة بصوت ينم عن الشك مع حرارة الدفاع : لا يمكن ان يتزوج الدكتور مؤنس بأمرأة مطلقة وهو قبله أنظار الطبيبات يتهاقن عليه كأنه النور وهن الفراشات وبلهجة التأكيد تقول الراوية صدقيني لقد تزوجها فعلا وقد سمعت الدكتور نعمان زميله يحكى للدكتور فتحى قصة هذا الزواج فتقاطعها.. لو عاشرتة كما عاشرتة لايقنت ان ذلك مستحيلا فتعلق الزميلة : الحب لايعرف المستحيل أو الفوارق الاجتماعية ويقال أيضا أنها من أجله تركت زوجها وهنا ينسحبان بعيداً عنه لإتمام عملهما ودون أن يعرفا أن فايد مطلقها وأن حديثهما كان سهما صوب إلى صدره فأنساه وجيعة الصدمة وراح يفكر بعقل الشيطان فيما يجب ان يفعله ليثأر منهما ولم يكذب يغادر المستشفى حتى أسرع إلى انسجام في المسكن المتواضع الذي استأجره لها لترعى ولده الذي سرقه من أمه بمعاونتها واخبرها بزواج مسرة . واعتزاهم الانتقام منهما أنه لاشك أن العلاقة قامت بينهما قبل الطلاق وخيل إليه أن العلاقة كانت آثمة وتمنى لو يراها في التو ليشرب من دمهما وأمضى إليها بما طاف بخاطره ليثأر لشرفه كمايعتقد وأوصاها

خيراً بولده حتى يعود إليها ولا يدري متى . . ومضى في طريقه . وكانت
المعركة قائمة على أشدها في سيناء واختلط جنود الشعوب العربية لا فرق بين
مصرى وسورى وتونسى ومغربى وسودانى وجزائرى وسعودى . . . واصبح
انتقال الجنود المتطوعين ميسراً .

و ذات مساء بينما كان الدكتور مؤنس يعمل في عيادته الخاصة ابلغه الممرض
أن شيخاً من كبار الحجاز يطلب مقابله حالاً لأمر هام وكان الشيخ منح
الممرض مبلغاً من المال يغرى على إثارة الآخرين واستمع الدكتور إلى
الشيخ في اهتمام واستجاب لرغبته ورافقه في الحال ليقوم بتوليد زوجة التي
استعصى على الطيبة توليدها كما زعم الشيخ وهى في حالة خطرة وأبى الشيخ
أن يستعمل سيارته ليوفر عليه جهد القيادة وركبا معاً سيارة كانت في انتظارهما
وبعد أن قطعت الطريق العام انحرفت بهما السيارة في طريق صحراوى
وطال بهما الطريق وكلما سأل الطبيب أين البيت مبدىا دهشته لعدم وجود
مساكن في هذا الوادى القفر الموحش وغابت الشمس وبدت الصحراء مخيفة
مفرعة والسيارة تنهب الأرض على عجل وقلب الطبيب يزداد انقباضاً ولو أنه
ذهب إلى المعركة لما انقبض هذا الانقباض الذى يستشعر به ، ولما اشتد هلعه قال للشيخ
لقد قطعنا مسافة سفر طويل فلماذا لم تقل لى أن الحامل في بلد آخر لكى أنظم
شئونى وأكلف أحد الزملاء باستقبال المرضى وقد يكون فيهم من يحتاج إلى
علاج عاجل . . كان يتحدث والشيخ يردد . . . قد اقتربنا نحن في السعودية
لأنعرف المسافات الطويلة والقصيرة كلها أرض الله . . ومع أن لهجته السعودية
ولحيته الطويلة وملابسه الفاخرة تدعو إلى احترامه لكن قلق الدكتور كان
يزداد كلما امتد الطريق وغبش المساء يكسو السماء رويداً رويداً وخيل إليه أنه
يوشك أن يلقى فى هوة لا قرار لها وراح يردد فى ذهول وهو ينظر متوغلاً بحدقته
فى الصحراء الموحشة الممتدة كيف أتصل بالعيادة الآن ؟ وقاطعه الشيخ فى
عدم اكتراث المسألة بسيطة الممرض يتصرف وغداً تعوضهم خيراً . . وعلى

بعد بدا له ضوء يكاد يكون كضوء نجم يبدو من وراء الأبعاد السحيقة.. فقال الدكتور بصوت مخنوق الانفاس من شدة الضيق بعد أن تنفس الصعداء كأن بصيص أمن بدا له . . على الدار هناك فهز الشيخ رأسه وسرعان ما وقفت السيارة أمام كوخ من الطوب اللبن ولأول مرة يشعر الدكتور بالخوف وهو يدخل في بيت لعيادة مريض ووقف في انتظار إفساح الطريق له وفتح الباب دون أن يطرق الشيخ عليه كأن من بداخلة يمارسون مهنة المخبرات حيث تفتح الأبواب أمام السيارة المقبلة دون إعلان بأشارات لاسلكية خفية وارتجف الدكتور وخيل إليه أنه أمام لغز وأشار الشيخ بيده إليه قائلاً بلهجة أهل الحجاز كلمة بمعنى أدخل وبدل أن يجد ردهة موصلة للغرفة الموجود بها الحامل كما تصور وجد أمامه مباشرة درجا اضطر إن يهبطه حسب إشارة الشيخ الذي ارتسمت على شفثيه ابتسامة صفراء وبان في عينيه انعكاس مشاعر لم يستطع الدكتور أن يفسرها وأن كانت مشاعره انتفضت انتفاضة حيرة وغموض مخيف ونظر حواليه فلم يجد غير الفراغ وغالب هواجسه وسأل الشيخ : أين الحامل ؟ فأجابه استرح أولاً من مشاق الطريق لقد كان وعراً وطويلاً ولا شك أنك تعبت . . ثم ضرب بعصاه على الأرض ضربة زلزلت جنبات الكوخ فظهر عملاقاً من وراء خباء خلف في حركة استعداد لتلقى أوامره ، وسأل الدكتور بصوت ينم عن كبت مشاعر خفيه ماذا تشرب شاي أم قهوة وان شئت منبهات أخرى تحت أمرك ؟ فقاوم الدكتور مخاوفه وهو يقول : شكراً بعد أن أقوم بمهمتي أولاً ثم يتكلف بسمه مردفاً . . من كان يراك متعجلاً في العيادة يظن أن الحامل توشك أن تضع . . فضحك الشيخ طويلاً ليوارى خراطمه المزدهمة ثم قال بصوت ينبئ جرسه على أنه يخفى غير ما يبدى . . لقد تأخرنا يبدو أنها وضعت وعادت إلى خبائها إذ التقاليد هنا تقضى على أن يعيش الحريم بعد الولادة في عزلة تامة حتى يبلغ الرضيع الأربعين يوماً ووقف الدكتور متماسكاً أعصابه قائلاً في هدوء . . إذن أسمح لي أن أعود حالاً إذ لم أعود التأخير خارج بيتي إلى هذا الوقت المتأخر واغتصب بسمه مردفاً.. ولا يخفى عليك قاق الزوجة إذا تأخر زوجها دون علمها وتهد وهو يقول

أظنني سأصل البيت صباحاً فالطريق طريل . طريل لم أقطع طريقاً مثله طول
عمرى ونظر إلى الشيخ وهو يقول بلهجة الترسيل الحار . . أرجوك اسمح لي
بالعودة حالا وبدل ان يتكلم الشيخ بما يطمئن أشعل سيجاراً وهو يرمقه من
وراء جفونه ثم قدم له سيجاراً ويده الأخرى مد عود الثقاب فاعتذر
الدكتور شاكر لعدم تدخينه راجياً أن يكلف أحد معاونيه بتوصيته إلى
الطريق العام ولزم الشيخ الصمت لحظة ثم صوب إليه نظرة من ملك فريسته وقال لأماني .
ولكن بعد أن تكتب ما أُمليه عليك . . فظن الدكتور أنه سيكتب صكاً
وقد وقع في مصيدة عصابة وهذا الشيخ رئيسها فتظاهر بأنه موافق وقال
بصوت هادئ تحت أمره . . قال الشيخ وقد أنفجرت أساريره . . حسناً
يبدو أنك رجل عاقل أكثر مما كنت أتصور كيف تكيف الظروف لتستريح
إذ الجدل لا يجدي قال الدكتور تفضل أُملي ما شئت لكي أعود إلى بيتي . .
معي القلم هل أكتب على رويضة أم على ورقة من عندك ؟ فقال الشيخ . .
على رويضة أفضل وعقب الطبيب : أنما أحب أن أؤكد لك أن كسبي على
قدر حاجتي لأنني لا أبالغ في الربح خصوصاً في هذا الوقت العصيب التي
تضحي فيها الجماهير بمالها في سبيل المعركة كما أنني أعالج الفقراء مجاناً
لوجه الله فقهقه الشيخ بصوت ساخر قائلاً : عليك ظننت أن المطلوب
منك مالا لا يا صاحبي لست في حاجة إلى المال ثم اعتدل في جلسته ونظر إليه
متنمراً وهو يقول بصراحة أريد زوجتك ووقع القلم من يد الطبيب الذي
صعق إذ كان يتصور أي مطلب غير هذا وغمغم مذهولاً . . زوجتي
قال الشيخ بلهجة شرسة أجل . . أنها زوجتي أنا . . ورفع منظاره
الأسود وعمامته وخلع لحيته وشاربه وهو يقول . . ألم تر هذا الوجه من
قبل . . لا أظنك نسيت زوج مسرة الذي التقى بك كثيراً وتحدث إليك
طويلاً بشأن خروجها من العيادة عندما كانت مريضة وكنت تعتذر بمعاذير
تبيح لك حق استبقائها بجانبك لتغريها على التعلق بك والتخلص مني ،
كنت يومئذ أظنك رجلاً شريفاً أميناً على مرضاك . . المهم المطلوب منك

الآن أن تطلقها وتكتب إليها رسالة صريحة تخبرها بذلك وتكلفها بمغادرة
السعودية معي ، وأظن هذا أقل مما كنت تتصور أن يحقق بك لقاء تصرفك
الدنيء ولزم الدكتور الصمت وقد أخرست الصدمة المريعة لسانه فاستعصى
عليه النطق وراح ينظر لفأيد في احتقار ويلعنه في سره لعنات يتسامى لسانه
على النطق بها وعاد فأيد يقول في تهكم وتشفي طبعاً ليس لديك ماتقوله
فجر يملك وقعت فعلا مع سبق الاصرار وليس عندك من مبررات الدفاع
ما يشجعك على الكلام . . . لكم قالت لي عنك . . . أنك ملاك . . .
وكانت تقول لي في جرأة أنني شيطان فما أعجب هذا الملاك الذي يخون
الأمانة ولا يخشى الله ، وبصوت هادئ خارج من الأعماق قال الدكتور وهو
ينفث دم قلبه مع كل كلمة تفوه بها الكلام في هذا الأمر لا يجدي فأنا فرد
أعزل لا أملك غير حماية الله وحيي وأنت رجل مسلح بالسلاح والرجال
وليس هنا أي منفذ للنجدة ولست من البله بمكان حتى أنازلك فلسنا متعادلان
في كفتي الميزان . . . إذا لا سبيل أمامي غير الخضوع لمشيتك فأملئ
على ماتريد ورجائي أن تطلق سراحي فوراً لأنني موظف مسئول وقض
بيد مرتعشة على القلم قائلاً ما شئت . . . وكتب . . . أنا الدكتور مؤنس
عبد الحليل من رعايا ج.م . العربية أقر بأنني طلقت زوجتي مسرة عادل
يسرى من رعايا ج.م . العربية والتي تقيم معي الآن بالسعودية وعليها بموجب
هذا الطلاق أن تغادر السعودية فوراً ومرفق بهذا كميالة بمبلغ ٥٠٠ جينه
نفقتها ومؤخر الصداق باسم السيد / فأيد عزت الذي يتولى عني تسليم
هذا المبلغ إليها وعندما هم بالتوقيع على الإقرار الذي كتبه تدارك خطورة
هذا التصرف على مسرة ومدى جنايته عليها وضالة نفسه وحقارتها إذ
في تصرفه هذا ما يثبت حبه لنفسه وإيثار منفعته عليها وبينما كان
فأيد يبتسم ابتسامة الفوز والارتياح لنتيجة تصرفه مزق الدكتور الورقة
في هدوء ونظر إليه في كبرياء وهو يقول لن أكتب ولن أطلق وأفعل بي
ما تشاء . . . وجن جنون فأيد وصرخ صرخة الوحش المسعور ستطلقها

طوعاً أو غصباً فقاطعه الطبيب لن أطلقها وعندما يهيم فايد بالكلام يترامى إليه صوت حركة دورية الصحراء فيسكت مكمها بيده فم الطبيب لكي لا يسمع صوته فإذا تلاشى صوت الحركة يعاود فايد تهديده ولكن الطبيب يصبر على الرفض قائلاً : خير لي أن أموت شريفاً أميناً على أن أعيش ندلاً جباناً وهذا يفقد فايد صبره فيصفعه على خده في شراسة مخاطباً بعض رجاله أذيقوه من الطعام أشهى ما عندكم وأن كنت أدع لك فرصة أخرى . بدل أن تدفع ثمن الرفض حياتك كلها فيجيب الطبيب بصوت مخنوق فيه تصميم واعتداد لن أكتب . فيبتعد عنه فايد ليفسح مكاناً للعاملين اللذين انهمالا عليه ضرباً بالسياط وقبل أن يغادره قال بلجهة الوعيد والتهديد . . لن أتركك إلا جثة هامدة وبرغم إيلامه من شدة الضرب يقول بصوت مخنوق حسبي ألا أخونها وليرحمها الله وبعد أن تنحى عنه عاد إليه ليقول : سأرمي جثتك للكلاب ويسكت عندما يقع على الأرض مغشياً عليه من شدة الضرب وبنبرة التشقى يأمرهما أن يصبأ على رأسه الماء البارد موجهأ إليه الكلام لن أتركك تموت هكذا سريعاً . . سأعرف كيف أرغمك على طلاقها ولن أعيدها إلى إلا وأنت حى لأريق دمك تحت قدمى ثم يخرج وهو يزجر بكلمات مبهمة ثم عن حقه وغيطه وبعد أن يتأكد الحارسان من ذهابه بعيدا يجلسان ليستريجا ثم يتفقا على أمر في حذر وسرعان ما يفتش أحدهما ملابس الطبيب وبعد أن يستولى على محفظته يقسم ما بها مع زميله وكان أحدهما تعلم في الكتاب القراءة قبل وفاة والده وهو صغير ولما قرأ بطاقة الطبيب صعق الزميل عندما علم أنه الدكتور مؤنس وارخى ذراعه في حركة ندم وتندت عيناه بالدموع مرددا بصوت النادم شلت يدي لولا هذا الدكتور لكان عمى في عداد الأموات الآن وسأله رفيقه أتعرفه ؟ فأجابه بصوت النادم الأسف ومن في السعودية لا يعرف الدكتور مؤنس صاحب القلب الكبير الذى يعالج الفقراء مجاناً ويصرف الدوراء لمن يعوزه العون على حسابه ويسرح رفيقه مليا كمن استفاق بعد إغفأة وتذكر أمرأ كان نسيه من أزدحام متاعبه وهمومه وجرائمه وبصوت تختلط به أنفاس الندم يقول . . . آه تذكرت

الدكتور مؤنس مدير المستشفى ويضرب جبينه بيده مستطرداً لقد أنقذ حياة ولدى منذ شهرين لم يكن الدواء بالمستشفى فأشتراه من ماله الخاص إذ أصيب أبني بالحمى وكنت بمرافقة الإرهابى صديق هذا الرجل المصرى الذى لا أعرف كيف تعرف عليه وسلمنا له لنكون تحت تصرفه وقد استرقت السمع يوماً وكانا يتحدثان على مقربة منى وأنت نائم . . أن الإرهابى تعرف عليه فى القاهرة عن طريق صاحب لهما من كبار تجار المخدرات ولقد استطاع المصرى لأمر لا أدريه أن يتقن لغة أهل الحجاز ويحضر إلى هنا لأمر لا أدريه أيضاً والآن كدت أظن بأن هناك سرّاً حداً به إلى الانتقام من هذا الدكتور الطيب ولو عرفت قبل أن أرتكب جريمة الضرب فيه أن الطبيب الذى حمل أبني فى عربته عندما لمح أمه تحمله على كتفها وهى تبكى من شدة الحمى وترفض إرساله إلى المستشفى لاعتقادها أن من يدخلها حياً يخرج منها ميتاً ولكى يطمئن الأم أخذها وصغيرها إلى المستشفى ليشعرها بالطمأنينة ولم يدعه يخرج إلا بعد أن جدد ملابسه ومنح أمه هبة مالية عندما علم أننى على سفر ولم يدر الرجل الطيب أننى كنت أعاون مهرب المخدرات . . وتنفس العملاق الصعداء مجففاً دموع الدم مردفاً تبا لهذا الشيطان الذى دفعنى أقابل الإحسان بالاساءة وأخفى وجهه بيديه وهو يبكى مغمغماً كيف أكفر عن خطيئتي كيف ؟ فيقول رفيقه كلانا كان صنعة الشيطان . . يجب أن نكفر عن خطيئتنا وذلك بتخليصه من براثن هذا المصرى الذى يماثل الإرهابى فى وحشيته. ولأكن أنا فداؤه وقبل أن يتحرك من موضعه قال رفيقه لن أتركك وحدك تتحمل مسؤولية إنقاذه يجب أن نتأكد أولاً من خلو الصحراء لكيلا يقبض المعاون علينا فيطمئنه رفيقه قائلاً . . لقد سمعته يسر إلى صاحبه عبد الله فى الصباح قبل أن يحىء بنا إلى هنا أن ينتظره مساءً على ناصية منزل الطبيب لأمر هام وأغلب الظن أنه يريد اختطاف زوجته فهلما ننقذ الطبيب لكى يسرع إلى زوجته وفى سرعة حملا الطبيب بعد أن بينا له حقيقة موقفهما وطلبنا منه المغفرة وسارا به فى طريق معتم لم يطرقها فايد وكان الطريق وعاءاً وشائكاً

وطويلا دفع العرق على وجوههم بغزارة وعندما استشعر الطبيب بأنها قواه
وتعثر قدماه واضطراب قلبه أوصاهما إذا قضى الله فيه بقضائه قبل أن يصل
إلى زوجته أن يتركاه ويذهبا إليها وكتب إليها رسالة لتتصرف بمقتضاها ...
وبدل أن يئاسا من رحمة الله أكداله أن الله كفيل بحمايته وسوف يذهب إليها
بنفسه وخملاه إلى مكان آمن تحت النخيل لا يطرقة غير الأعراب المؤمنين
ولكى يسريا عنه راح يسرد كل منهما ما مر به من طرائف بعضها مضحك
وبعضها مروع ولما استفاق الطبيب واسترد قواه إلى حد استأنفا المسير ولكيلا
يستشعر الطبيب بمتاعب المسير ويهون عليهما التفكير في مغبة الإفراج عنه
سألهما عما حدا بهما إلى مسلكهما الإجرامى فقال أحدهما اقسم لك كنت تاجراً
موفقاً سعيداً بزوجتي الحميلة قرير العين بأولادى فاذا لاح لى أحياناً انطواء
زوجتي وإعتكافها ولكيلا تقابل الخير ان بدعوى إنحرافها ناصحة إياى بعدم
استقبال أصدقائى فى المنزل ويمكن مقابلتى فى المتجر ظنا منها أذ ذلك يقلق
راحتى وفجأه داهمنى رجال المباحث يفتشون متجروى وأسفر البحث عن وجود
كمية من المخدرات بين بضاعتى يعلم الله أننى برئ وحوكت ولم يكن أمامى
من أوصيه بزوجتى وأولادى غير جارى الصديق لاعتقاده أنه خير مثل
للمروءة والشهامة ومعاونتى فى أزمتى المالية وكل ما يحتاج إليه أولادى من
خدمات إذا مرضت ومرت بعض أسابيع وإذا بأختى تزورنى دون زوجتى
ولما سألتها عنها أخبرتنى أنها متوعدة بسبب الحمل وقد أمر الطبيب ألا تغادر
الفراش إلا بعد الشفاء ولم يكن فى وسعنى غير الدعاء إلى الله ليحفظها وتكررت
زيارات أختى وحدها ومرت بعض شهور ولم تحضر زوجتى وخامرنى الشك
إذ لم يحدث أن مرضت أثناء الحمل ووسوس الشيطان بعقلى فخيلى إلى أنه غرر
بها لحماها فأنحرفت صارحت أختى بذلك فدافعت عنها بصدق وحرارة مؤكدة
لى شرفها والمحافظة على اسمى وشرفى وأكدت لى فعلا أنها مريضة وقد
نقلت إلى المستشفى لأجراء عملية إجهاض إذ يبدو أن حزناً على سبب موت
الجنين فى بطنها وهالنى الامر ونسيت نفسى وبرأتى وما لحق بى من ظلم

وإجحاف واستبد في التفكير إلى حد دفعني إلى محاولة الهرب وصارحت جاري
نزول الزنزانة معي وكنت قصصت عليه حكايتي وأكدت له براءتي فشحجني
لإيمانه ببراءتي ولن يأخذني الله بذنب الهرب ما دامت المباحث لم تتقصى
الحقيقة إذا المفروض أن تراقب المتهم أن تاجر المخدرات أو من يتناولها
تم تحركاته وتصرفاته عن صلته بالمخدرات عن قرب أو بعد أما أن يكون
مجرد ضبط المخدرات في محل أو بيت فذلك لا يكفي للإدانة إذ كثيراً
ما يكون ذلك نكايه لأمر ما للإيقاع بمن يضبط عنده وهو لا يعلم السبب كما
حدث معي وهنا دافع الطبيب عن المباحث وقال أنها تنفذ القانون واستأنف
الرجل قائلاً .. النهاية بوسيلة زميلي السجين تسلفت خفية ورحلت إلى الريف
لكي أضلل المباحث واضطرت إلى الإقامة عند أقاربي خشية أن
يراني أحد بعد نشر صورتي فيقدمني للشرطة للحصول على المكافأة ولاحظت
أثناء إقامتي أنهم يتهايمسون ويتكتمون أمراً فاشتد قلقي وطاف بخاطري شبح
الموت اختطف زوجتي فاشتد فزعي وبينما أحاول معرفة المستشفى التي
تقيم فيها زارتنى خالتها العجوز وهي امرأة لا تخفي سرّاً وراحت تقول :
مراتك سبع يا ولد .. عرفت تصون شرفها وشرفك .. آه المجرم كان لازم يموت
حالا .. إنما ربنا قادر ان شاء الله ينتقم منه .. ولم اعرف بالضبط ماذا تعني
وسكتت عندما دخلت قريبة لي فنهرتها قائلة .. أنا عارفة لسانك لا يسكت
فقاطعتها استحلفك بالله ماذا جرى لامراتي .. فأقسمت وأردفت أنا عائدة
من عندها الآن .. الحمد لله أجروا لها عملية لإخراج الجنين من بطنها بعد
أن فشلت المحاولات لاجهاضها دون عملية لأن الجنين مات في بطنها وعلقت
العجوز .. لازم كان يموت وهي تقاوم الوحش ابن الشيطان وصعقت فقد
ازداد الأمر تعقيداً وقلت بتوسل لقريبتى افصحى أنا على استعداد لسماع أى
شئ مهمما كان فظيعا وهنا دخل نسيبي فانسحبت قريبتى الشابة بعد أن قالت ..
لم أقل شيئاً خالتك هي التي أخبرته إن امرأته شريفة وعرفت كيف تنتقم وخيل

النسيبي أننى عرفت كل شيء فربت على كتنى فى حنان قائلًا .. إنه الآن فى المستشفى وسأعرف بعد خروجه كيف أنتقم لشرفى وشرفك فازددت هلعًا وذعرا وسألت من هذا الشيطان وأخبرنى بما حدث وتركته يذهب إلى أخته وحده بدعوى أنها مراقبة الآن إذ يتوقعون زيارتى لها واقترضت منه مبلغًا من المال وذهبت بعد أن ارتديت زى البدو مع تغيير شكلى إلى المستشفى الذى يقيم فيه المحرم واستطعت أن أتمكن من زيارته بدعوى إننى مضطر إلى السفر لليبيا ويتحتم على أن أودعه لأنه أخى الوحيد ومنحت الممرض الذى أجاز لى زيارته والبواب من المال ما يغرى على السماح لى وكان الوقت مساءً ونور العنبر مطفأ وقادنى الممرض إليه معتمداً على نور البطارية التى معه وكان نائماً وتركنى الممرض وهو يهمس بعض دقائق أرجوك فقلت بصوت لم يسمعه إلاه .. حالا .. اطمئن .. وسرعان ما قبضت على عنقه فى لمح البصر عندما فتح عينيه على ولمس يدى كانت روحه صعدت إلى المنتقم الجبار وخرجت ورحلت أعلو متوغلاً فى الأحراش البعيدة الممتدة مخفياً وراء الأشجار الكثيفة حتى استعدت قواى استطعت أن أركب سيارة تقلنى إلى قطار السكة الحديد وركبت وأنا شبه مذهول وان كنت راضى الضمير لانتقامى من جارى الصديق الذى حاول أن ينتهك عرض زوجتى التى استودعتها أمانة تحت حمايته ووقف القطار عند آخر محطة له ونهبنى الكمسارى فدلقت إلى الطريق يطاربنى شبح القتل وان كنت لم أشعر بهزة الندم بل رحت أتنفس فى طمأنينة كأنه أفرج عنى فى التو ولكنى أخذت على وجهى متوغلاً فى الجبال آنا ومتجولاً فى الصحراء أحياناً واعتزمت أن أعمل أى عمل شريف أقتات به فى أى بلد بعيد حتى إذا استقر بى المقام أفكر فى وسيلة لاستدعاء زوجتى لتقيم معى حيث أقيم ولما اشتد بى الجوع وأنا أسير باحثاً عن مأوى لمحت رجلاً يسير الهويناً فلما دنوت منه أسأله ما يجود به لسد رمقى إذ كان المبلغ الذى معى نفد كله وسألنى عن حالى فلما قلت له أننى جئت السعودية لأقضى بقية عمرى فى رحاب

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ زهدت حياة المدينة الباطلة وأريد أن أعمل
أى عمل يعيننى على الحياة فأظهر عطفه على وعرض أن أعمل مع العاملين
عنده لتوزيع تجارته وتسلل إلى نفسى بحديثه الذى بعث الطمأنينة إلى نفسى
والثقة فيه فوافقت وأسبغ على كرماء وفير العطف والمال ورافقنى إلى
متجر فى اطراف المدينة وسلمنى بعض الأقمشة لبيعها - متجولا - دون
شرط قانعا بربح ضئيل تاركاً لى ما تبقى من الربح بعد سداد قيمة القماش
الأصلى وحفزنى هذا التصرف النبيل إلى مصارحة الرجل بخفايا سريرتى
وسر هروبنى وجريمتى فطمأننى وأكد لى حمايتى مادمت أعمل معه وبعد
أيام أخبرنى أن تجارتنا تضطربنا للسفر إلى جميع البلاد العربية وهو متزوج
بأربع نساء تقيم كل زوجة فى أحد الدول ليجد مسكناً مريحاً ولأنه يأبى
الزنا ونصحنى بأن أتزوج بأى امرأة تروقنى وأترك له اختيار زوجة لى
ولكننى أبيت إذ بى طاقة تعصمنى ولا أريد مطلقاً أن أخون زوجتى وقد
ضحت من أجلى .. وبعد أن نفذ القماش الذى كان معى أخبرنى أنه يتحتم
أن نسافر إلى العراق ليحصل على بضاعة من هناك وصحبنى إلى بيته التى
تقيم فيه إحدى زوجاته فى بغداد وأضافنى فى غرفة محكمة النوافذ وأوصانى
أن أقنع بالمبيت والطعام وحذار أن أحاول رؤية أهل البيت لأن التقاليد
العربية تحرم اختلاط الجنسين واحترمت مشيئته وصنت عهده ومرت
بعض أيام وأنا حبيس الدار أنام وآكل حتى صعب على أن أكون عالة عليه
ولما صارحته بذلك قال أنه كان على وشك التحدث إلى وصارحنى بأن ممول
السعودية مسافر إلى إمريكا وهو مضطر تحت الحاح ضرورة العيش ومطالب
زوجاته أن يتعامل مع ممول آخر وإن كان لم يسبق له الاتجار ببضاعته فهى غير
السابقة ولكنها كما يؤكد لى مريحة رائجة فقلت .. أظنها ثمار أوأبقول أوأوابل
فقال .. إنها أوفر ربحاً من ذلك ولا تكلفنا غير الحرص والحيلة وسرعة
الحركة فهززت رأسى ونظرت إليه بمعنى عدم الفهم فعاد يقول .. إنها
تجارة مؤقتة ريثما يعود ممول السعودية بدل أن نجوع ونتسول وقد لا نجد

من يمد يده إلينا كما مددت يدى إليك وكنت يومئذ وفير الرزق وصورلى
ما يمكن أن نتعرض له من آلام الفقر ومساوئه وتندت عيناى بالدموع
وأنا أردد قول سيدنا على رضى الله عنه — لو كان الفقر رجلاً لقتلته —
ولم يتركنى رفيقى إلا بعد أن وافقت قائلاً فى نهاية حديثه .. ولتكن أى
بضاعة .. إنها تجارة على أى حال وقد بارك الرسول (صلعم) فى التجارة ..
وتنهذ الرجل مردداً .. لعنة الله على الشيطان .. لست أدرى هل الشيطان
تقمص كيان هذا الرفيق فسيطر على أم أنا وهو ضحايا الشيطان .. وهنا
لاح لهم أجسام من بعيد فهمس الطبيب فى حذر يبدو أننا سنقع فى المصيدة
مرة أخرى ، الله معنا .. ليتها تكون دورية فيعلق أحدهما يكون من حسن
حظنا إذ يمكن القول أنها داهمتنا وفجأة يترامى إليهم صوته فيقول الآخر
كدت أقول ذلك .. أنه داهية شيطان فى جسم انسان وكأن صاعقة تنزلت
عليهم فاخطفوا وراء الأحرار ثم تجلى صوته وهو يخاطب تابعه وكما يسميه ..
صفية لا بد أن نهى الكوخ مساء اليوم لأفتحه بزواجى سأعيدها إلى ..
وسوف املأ كأساً من دمه أحليه بالسكر لأسقيها منه قطرة وأشرب منه
أمامها ولن تعرف أنه دمه إلا بعد أن تشربه .. أنه الآن فاقد الوعى من
فرط التهمة ويقهقه ساخراً بينما يعقب تابعه ضربة واحدة من سياط صاحبه
تكفى لشل حركته إلى الأبد وتتلاشى هذه الأصوات فيطمئن الطبيب ويقول
أحدهما وهو يجذب يده مسرعاً فى الطريق لاشك أن عربته تنتظره هناك
فى مكان ما إذ مواعده بعد العاشرة مساء التسام بضاعة من الغرب .. هيا
لنذهب إلى منزل الدكتور فيقاطعه رفيقه .. أتريد أن يذهب بنا السائق إليه
فيعلق صاحبه أن سائقها صديقى وقد تبادلنا الخدمات ضده ويبدى الطبيب
عدم ارتياحه لهذا الاقتراح قائلاً .. لا أظنه يقف مكتوف اليدين سوف
يبحث عنكما ولا أريد إيزاء كما فعاد أحد الرجلين قائلاً .. اذن يعود بنا صاحبك
السائق إلى الكوخ قبل أن يصل وسأعرف كيف أتصرف ومر بذهن
الطبيب فكرة فسأل صاحب السائق أتثق فيه ويمكن أن نخدمنا وله منى

مكافأة مالية كبيرة إذا نجحت مهمته .. فأكد له الرجل ثقته في السائق :
وأثناء عودتهم بالعربة إلى الكوخ حيث كانوا كتب الطبيب رسالة وأشار فيها
بما أراد أن يقوله وسلمها للرجل لكي يسلمها للسائق ليسلمها بيده إلى المرسل
إليه .. ولم يكده يأخذ كل منهم مكانه حتى عاد إليهم فايد فأبدى ارتياحه
عندما رأى الطبيب مرتباً على الأرض كأنه فاقد الوعي وركله بقدمه
قائلاً هل انتهى ؟ أم مازال فيه بقية من حياة فقال أحدهما إنه على وشك
الموت وعلق الآخر قبل أن أقضى عليه عليه توسل أن ينتظر ريثما تعود ولعله
أراد أن يقول لك شيئاً قبل مماته قال : إذا نهوه . فلما استفاق اصطنع
الخضوع وقال وهو يتلع لهاته سأكتب لك ما تريد .. وقهقهه فايد بصوت
المنتصر قائلاً .. أنك رجل عاقل لا يصح أن تهدر دمك في سبيل امرأة
وكما خانتني فسوف تخونك .. ثم استكتبه الإقرار وغادره ليشرّف على
إتمام بناء الكوخ بعد أن اختلى بصفيه وكلفه بمهمة يقوم بها على الفور .
وبعد أن سمح للطبيب بتناول الطعام مع الحارسين وكان حمل إليهما بعض
الأطعمة .

مفاجآت

تسلمت — — مسرة — الرسالة من رجل تجهله متظاهرا بأنه لا يعرف فحوها . بعد ليلة سوداء عاشتها تحت ضباب كثيف من الخواطر السوداء وقد تخيلت كل حدث فظيع إلا ما جاء في هذه الرسالة وراحت تعيد قراءتها وكلما طالعها إزدادت هلعاً واضطراباً وكادت عيناها لا تبين الحروف من انهمار الدموع ووقعت الرسالة تحت قدميها من ارتعاش يديها وفقدت اتزانها مستسلمة للبكاء الدامى صارخة متقطعة الأنفاس — رباه رحمتك .. وسحبت الخادم الرسالة وقرأتها بعد أن استأذنتها إذ كانت تعاملها كأخت وهالها بدورها الامر ولكنها تماسكت نفسها لكيلا تزيد من هلع سيدتها وقالت بصوت يخفى عبراتها لتخفف من الصدمة .. إنه يداعبك ثم ضحكت مردفة ... أنسيت أن اليوم أول أبريل ... ما أسوأ تلك العادة التى يتعلق بها بعض الناس يكذبون أول أبريل .. وكثيرا ما تودى الكذبة حياة البعض وتذهت مسرة ... وقالت بلهجة مسحت أساها .. صحيح .. اليوم أول أبريل ولأول مرة يكذب سامحه الله أوشك أن يقتلنى وشاعت البسمة على حياها فعانقتها الخادم مقبلة جبينها وهى تقول اسمحى لى أن الومى على هذه الكذبة التى جاء بها من مصر .. . وحمدنا الله لأن أبناء السعودية لا يألون هذا المزاح المغيظ باسم الكذب ولم تكذب تستعيد بشرها حتى تسمع طرقا على الباب فلما تفتحه الخادم وتجد رسولا يعلن انتظار السيارة أمام البيت لتكون تحت تصرف السيدة للرحيل ، وتوقن الخادم أن الأمر جداً لا هزلاً عندما تطل من الشرفة وترى السيارة وكأن الكارثة تنزلت فقد كان تعلقها بسيدتها عميقاً لما توليها به من عطف وبر على أنها اضطرت أن تبلغ رسالة الرسول ودموعها تسبق كلماتها من فرط

الأسى والحزن وكان لابد أن تنفذ مسرة ما جاء بالرسالة فراححت تجمع حاجياتها الخاصة الضرورية وهي لا تدري ماذا تأخذ وماذا تدع وسألتها الخادم علام عولت ؟ قالت يجب أن أعود إلى بلدى فوراً قبل مقدم فايد فقالت الخادم بلهجة حانية صادقة لا تتعجلي يا سيدتى لا بد من التريث إذ يحتمل أن يكون أحد العظماء أغراه ليزوجه ابنته وقد يكون الشيخ الذى رافقه من أجل حالة وضع فقد أخبرنى الممرض أنه كان يتعجله . انه يحبك ويعبدك ولا يمكن أن يتخلى عنك . صدقيني .. فى الأمر سر.... وتنظر إليها مسرة بعينين دامعتين قائلة .. لا ياهاله لقد طلقنى وانتهى الأمر ولم تقرأى الرسالة . وتوسلت إليها الخادم لتثنيها عن عزمها ودعتها للإقامة معها فى بيتها وهى وان كانت فقيرة ولكن بيتها المتواضع نظيف منظم وستجد فيه الراحة ريثما يعود إلى رشده وهى موقنة أنه سيندم ويعود إليها حالا وتشكر لها مسرة أخلاقها ويصعب عليها أن تذلل نفسها وتكتب إليه رسالة راجية منها أن تسلمها اليه .

سيدى .. لتكون مشيئة الله فلا راد لقضائه .. أتمنى لك السعادة والتوفيق فى حياتك المقبلة لقد تركت الأثاث والتحف وكل ما فى البيت كما هو ولم آخذ غير ملابسى الخاصة فاذا لم يرق لك أن تعيش مع الماضى فى أحضان الحاضر قدم أثاث البيت وكل ما به هدية منى إلى العروس التى تزف فى هذا الشهر . سيان أرسلت قسيمة الطلاق أو لم ترسلها فلن أتزوج وحسبى ثمرة أيامى الهنيئة التى قضيتها بجوارك .. سأقول لولدك أن قدر له أن يواجه الحياة أنك على سفر تكافح من أجل تنمية أواصر الحب بين السعودية ومصر وسرف أعلمه كيف يحبك حتى إذا اشتد إزاره وعرف كيف يسلك الطريق وحده فسوف يجيئك ليراك فى أى مكان تكون . إن مد الله فى عمره .. اطمئن سأعنى به ليكون رجلاً ممتازاً جديراً بالانتساب اليك .

أوصيك خيراً بهالة فهي مؤمنة مخلصه تتقي الله في عملها وقد تركتها
لتحرس البيت حتى تلقاك وتركت معها الحلى التى أهديتني إياها هدية
منى لعروسك .

ودمت بخير وسعادة لنفسك ولما تحب ولمن عرفت الحب بك وذاقت
ثمأله منك ٥
(مسره)

وودعت الخادم وداع حب ووفاء راجيه منها ان تراها فى القاهرة
تاركة لها العنوان الذى يمكن أن تهتدى به إلى مقرها حيث تكون
وركبت السيارة موقنة انها ستحملها إلى المطار كما جاء فى الرسالة وتقطع
السيارة طريقا متشعب المتعرجات والمسالك وفى مفترق إحدى الطرق
يتوقف السائق ليركب رجلا بملابس الأعراب ولا يظهر من وجهه غير
أنفه ليتنفس به ويأخذ مجلسه بجوارها دون كلام وعندما تبدى اعتراضها
على سوء تصرف السائق وجرأة الأعرابي يقول السائق لاضير ياسيدتى
فأزمة المواصلات تحتم على المواطنين التعاون فتقول بلهجة حادة ...
أنا فى السعودية ولست فى مصر وهنا تحرم التقاليد هذا التصرف الشائن
أنسيت ذلك وتستشعر برعدة مخيفة تهز بدنها وتفقد أعصابها وهى
تخاطب السائق بلهجة صارمة ... قف وإلا صرخت لأنبه المارة على سوء
تصرفك فلم يأبه السائق ومضى مسرعا إلى أقصى حد حتى خيل إليها
ان السيارة سوف تنقلب وهى تقطع الصحراء كأنها تسابق الموت . .
وازداد هلعها عندما ايقنت ان هذا التيه الخفيف غير الطريق الذى قطعتة
عندما جاءت مع زوجها وقالت بذبرة الخوف .. ليس هذا طريق المطار
وكأنها تخاطب نفسها فلا السائق يجيب ولا الجالس بجوارها يتكلم كأنها فى وادى
وهما فى واد آخر ويخرج الجالس بجانبها زجاجة عطر كما يبدو من مظهرها
ويصوب منها رشاشا وهو يقول . الطريق هنا به ميكروب ويقرب
العطر إلى أنفها رغم محاولتها تحويل وجهها عنه ... ولم تلبث حتى تغيب
عن وعيها وسرعان ما تقف السيارة أمام كوخ بنى حديثا كما يبدو وسط
صحراء قاحلة ليس فيها غير نخيل متناثر فى غير تنسيق بعيدا عن الكوخ
وعلى مقربة منه نخيل تجمع كأنه كلمات مرسومه تسبح بغير صوت

مع كواكب السماء باسم الله ويحمل الرجل مسرة بين يديه ليدخلها الكوخ
الذى فرش أرضه بسجاد وينهبها وبرائحة منعشة أيقظتها في بطاء ولم
تكد تستفيق وتنظر أمامها حتى تصعق لم رأى الرجل وتشعر برعدة تزلزل
جسمها مغممة مذعورة . وبلهجة الهلع في ذهول أين أنا ؟ وفي هلع
تسأله من أنت ويتسم قائلا : أنا ظلك أينما كنت أكون . وتنفعل مذعورة
بلهجة الهلع تقول هذا الصوت له أثر في أذني لكن ليس ذلك معقول ..
فاقترب منها حتى كاد وجهه يلتصق بوجهها ورفع المنظار وخلع غطاء
رأسه وقال : الرغبة يامسرة تجعل المستحيل ممكنا فأخفت وجهها بيديها
صارخة بصوت مكتوم : أتراني في حلم .. أي كابوس هذا الذي تجسم
أمامي فقطاعها سميني ما شئت كابوساً . أو كما قلت شيطاناً .. المهم
أن تشعرى بوجودي .. فأردفت كيف حدث هذا ؟ أي من أصابني
وأعادني إلى ماضى المظلم فقطاعها .. قولى ما شئت حسبي أن أراك أمامي
ماثلة هكذا .. وسوف تشعرين بي المهم لا تغلقى قلبك بالأوهام ...
أنظري في عيني ثم كشف عن رقبتة وهو يقول : هذا الجرح الذى ضمדתه
بيدك يوم ضربنى الصديق الخمور بالمطواه لأننى ربحت ماله كله .. وبنظرة
فاحصة تأملت عيناه الزرقاوان وحاجباه الغزيرتان ذات اللون الأصفر
الداكن مثل شعر رأسه الكثيف الغزير وجفونه المنتفخة من الإدمان على
الخمر والمخدرات وبصوت مخنوق الأنفاس صرخت في وجهه . .
الآن فهمت أنك كما أنت أيها الشيطان وبلهجة فيها نبرة المقاومة والاعتداد
أردفت .. لن تنالنى إلا جثة هامدة لقد انتهى ما كان بيننا وأنا اليوم زوجة
لرجل شريف نبيل .. فظل ساكنا والابتسامة تهوم على ثغره حتى انتهت
من كلامها قال : أنه لم يحبك كحبي لك فقطاعته حب الأسد لفريسته
حتى يأكلها فكظم غيظه وهو يقول لقد سرقك منى ومن حقى أن أسترده
ماسرقة أما هو فسوف آتيك برأسه حالا .. ثم نادى على تابعه ليحضر لها
الطعام فأشاحت بوجهها والدموع تغمر وجنتيها فاقترب منها راجيا في توسل

أن تتناول معه فأقصته بيدها في عنف بغته فارتقى على ظهره وهي تقول :
أن أظافر القطعة تستطيع أن تحول أقوى وحش إلى بحيرة من دماء فضحك
في استخفاف قائلاً : إذا حاول أن يفترسها رغماً عنها ولكن اطمئني
واستعدي رباطة جأشك وهدئي روعك فلن أنالك إلا راضية مطمئنة بعد
أن أخلع رداء الشيطان الذي اضطرت إلى ارتدائه وأسير في ركب المدنية
فإذا بي أتدف بنفسى في أتون لا ينطفئ وقبل أن تتكلم يترامى إلى مسمعه
نباح كلاب وعهده بهذه المنطقة خالية من الإنس والحيوان أنها صحراء
شبه مهجورة لم تمتد يد التعمير إليها بعد ولم يجرأ الأعراب على المرور فيها
خشية وجود وحوش تسكنها من زمن بعيد ولا يعرف مسالكها غير مهربي
المخدرات واللصوص والهاربين من العدالة لذلك ارتجف ولـكنه
استجمع شجاعته لكيلا تندفع إلى الخارج فتكشف أمره . . ولم يدر ما حدث
منذ غادر الطبيب ومن معه فقد أسرع المباحث لانقاذ الطبيب بعد أن
سلمها السائق رسالته وكان لابد أن تبحث عن الزوجة بعد أن علم الطبيب من
الخادم تركها المنزل واعتزامها الرحيل وأدرك الطبيب اختطاف فايد لها وهي
في حيازته الآن ولم تغادر السعودية لعدم قيام طائرات في هذه الفترة
ولجأت المباحث إلى الكلاب البوليسية مستعينة بالحارسين لتعرف الخائىء
الذى يأوى إليها الزعيم كما يسمى ورجاله . . . ولم تمض مدة حتى حامت
الكلاب حول الكوخ وراحت تنبح نباحاً يشير على أن الضالة المشودة في
هذا الكوخ وسرعان ما حاولت المباحث مداومة الكوخ . . لكن من أين
تدخل أن جوانبه كلها من جذوع النخيل متراسه في أحكام كأنها أعمدة
ملتصق بعضها ببعض وليس فيها ما يشير إلى فتحة توصل إلى الداخل واضطروا
إلى نزع جذعين ليتمكنوا من الدخول واستغرقت هذه العملية وقتاً طويلاً .
وأشد ما أذهلهم خاو المكان ولا أثر لوجود أحد كان به وأخذت المباحث على
عاتقها البحث عن الزوجة والمجرم وأبانت المطار ونصحت الطبيب أن يعود
إلى عماله تاركاً البحث لهم ولم يستطع الطبيب أن يستأنف عمله لسوء حالته

النفسية واضطرابه واضطر أن يعود إلى البيت ولم يكذ يستقر حتى طرق الباب فلما فتحته الخادم وجدت سائلا يطلب كسرة خبز فلما سألها الطبيب من الطارق قالت سائل يطلب كسرة خبز قال أدخله وهبى له العشاء كاملا كأنه لى ويزيد . . . وتستجيب على مضض لأنها لا تطمئن إلى هذا اللون من الشحاذين إذ فيهم من ينتحل هذه الشخصية ليعرف مدخل البيت ومحتوياته ثم يسرقه . . . وقدمت له الطعام فأكل وتناول الشاى وظل فى مكانه لا يتحرك ولا يجرو على الكلام فطاف بخاطر الخادم ما كانت تخشاه وهمت بمصارحة الطبيب وقبل أن تفعل تقدم إليه الطبيب ليشعل له السيجار ويقدم إليه مبلغا من المال يستعين به على قضاء حاجته فى اليوم التالى وصارحه لولا أنه فى محنة تحول اليوم دون مساعدته فى إيجاد عمل يكفل له العيش لتمكنه الاتصال بمن يهتمهم مساعدة أمثاله على أنه يأمل أن يفعل ذلك وطلب اسمه وعنوانه لكى يتصل به إذا حانت الفرصة . . . ووجد الطارق نفسه فى مأزق . . . ماذا يقول وبدا مرتبكا وبصوت ينم عن الجدة قال . . . لن أنسى جميلك هذا ياسيدى جزاك الله خيرا وهنا ترمى إلى مسمعهما صوت المؤذن للصلاة فقال له الطبيب . . . هيا توضأ لنصلى سويا . والله معنا . . . وشعر الطارق بمشاعر لا عهد له بها تتسلل إلى أعماق قلبه وكأن نورا علويا أضاء ظلام نفسه فاندفع دون تردد متجها صوب دورة المياة حيث أشار الطبيب وتوضأ ووقف ليصلى وبعد أن انتهى من صلاته انتابته نوبة بكاء فيه نشيج واستغفار وكان الطبيب جالس على مقعد يدعو الله سرا حماية زوجته . . . وفهم الطارق مايجول بخاطر الطبيب فجلس عند قدميه وضرب يده وراح يقبلها والدموع تسبق القبلات ورفع الطبيب ليجلس بجواره وسرح كل منهما فيما يشغله حتى قال الطبيب أتحب أن تنام هنا حتى الصباح . أنا وحدى وسوف تهىء الخادم لك منامة لأنها ستتركنا بعد حين وحالتى لاتسمح لى الليلة برعاية المرضى فنظر إليه الطارق نظرة إكبار وإجلال وقال . سأمكنك حتى تخرج الخادم وقد أخرج بعد حين . . . وبلغ هذا الحديث

مسمع هاله فانزعجت ونادت سيدها بدعوى مكالمة تليفونية وهمست في أذنيه أنا لست مطمئنة إلى هذا الطارق لن أتركك وحدك وتركته لكيلا تترك له فرصة للاعتراض . . . فلما عاد إلى مجالسة الطارق دخلت عليهما لتقول . . لقد اتصل بي أخى تليفونيا وكافنى بالمبيت هنا لأنه سوف يستضيف صديقا له . فقال الطبيب انتهزى إذن هذه الفرصة وأمضى الليلة عند أختك المريضة فقد طلبتك ودار بينهما حوار هادئ لا يفهم مرماه سواهما هي لا تريد أن تتركه وحده وهو لا يخشى الطارق . . .

وإزاء إصراره أشعرته بتنفيذ أمره ولكنها تسلفت في حذر وتمددت تحت أريكة في الصالون دون أن تستسلم للنوم ولما شعر الطارق بنخلو المسكن إلا منهما قال له . . لقد استجاب الله لك عندما دعوته أن يكون معك قال الطبيب أنى أدعوه أن يكون معها إذ أشد ماهى فى حاجة إليه الآن . . قال الطارق . . أتعرف لماذا جئتك ؟ قال الطبيب تطلب كسرة خبز . . فهز الطارق رأسه وهو يقول بصوت خفيض احمد الله الذى تاب على وردنى إليه فخيّل للطبيب أن ماقالته هاله حقا وأنه عاد إلى إيمانه ودينه لكنه نظر إليه فى هدوء وقال . . حفظ الله لك ولنا الإيمان والدين فقاطعه الطارق . . لست من أجل كسرة الخبز جئتك ياسيدى . . جئت لأخذ رأسك وأقدمها فى طبق من البللور إلى زوجتك . . فاصفر وجه الطبيب وغالب انفعاله وهو يقول ماذا تعنى ؟ . . فضحك الطارق طويلا ثم تمالك نفسه وقال : الطعام الحلال الذى أكلته والصلاة التى رفعت الحاجز الذى كان قائما بينى وبين الله ومسلكتك معى النبيل الكريم كل ذلك أزاح الستار الكثيف الذى كان يفصل بينى وبين الله . فلما تنزل على نوره هنا تبدد ضباب الاجرام . . . وعدت كما ولدتنى أمى طاهرا مبرا من كل سوء . . صدقنى ياسيدى . . لقد جئتك لاحمل رأسك إلى زوجتك حيث يحبسها شيخنا هناك فى كوخ ابتذناه خصيصا لها لفترة وجيزة حتى يتخلص منك

ويعقد عليها . . . وحاول الطبيب أن يتفكه ليهون من هول الموقف فقال . . .
 هاهى رأسى أيها الأَخ مادامت ستحظى هذه الرأس ببقاياها . . . ثم لزم الجِد
 وأردف . . . ولكن هل لديك الشجاعة للحصول على هذه الرأس ... قال
 الطارق . . . الأمر لا يحتاج إلى شجاعة إنما يحتاج إلى دهاء وشيطنة قال
 الطبيب ولماذا أحجمت . . . قال الطارق . . . قلت لك لأنك مزقت الستار
 الذى كان يفصل بينى وبين الله فرفع الطبيب وجهه إلى السماء وقال :
 سبحانك ربى بغيرك لا ينتصر الحق ثم تكلف بسمة ليخفى أساه وقال هب
 أن الخادم أغلقت الباب فى وجهك دون علمى فكيف تصل إلى تنفيذ
 ماتريد . . . قال : المؤلف لا يرد السائل . فإذا دخلت الخادم تسالت
 فى سرعة واختبأت فى أى مكان خفى بالمسكن فإذا خرجت ولم تجدنى
 ستظن أنها ابطأت وأنى عرجت على مسكن آخر فاذا أويت إلى فراشك
 واستغرقت فى النوم قربت مخدر من أنفك لكيلا تستفيق . . . وهنا أقتلك
 بمسدس ناولنى إياه الشيخ بغير صوت وفى الصباح أقف فى الشارع مع
 المتجمهين لاشيع بين الناس أنك انتحرت لهروب زوجتك مع عشيق لها
 وبعد تحويل جثتك إلى المشرحة سأرتدى زى ممرض أعده لى الشيخ فإذا خلت
 المشرحة إلا منى قطعت رأسك ليقدمها الشيخ لزوجك وهنا انتصب الطبيب
 وعانقة قائلاً . . . لا من أجل عدم تنفيذ قتلى أبارك ولكن لأنك عدت إلى
 الله ولك منى مبلغا كبيرا تتاجر به لتعيش عيشة الأشراف والآن ما عساك فاعل
 لتحمى نفسك من شيخك قال موعدى معه بعد منتصف نهار اليوم التالى
 وحتى هذا الوقت أكون أرشدتك إلى طريق إنقاذ زوجتك فى هذا الوقت
 بدأت المباحث فى مدهامة الكوخ الذى كان يقيم فيه فايد ومسرة استطاع
 أن يخدرها بالعطر المخدر الذى يحمله دائما معه وحملها إلى مخبأ تحت أرض
 الكوخ أعده للطوارئ ولا يمكن اكتشافه وبعد التأكد بوسيلة جهاز لاسلكى
 ينتقل الأصوات عن قرب أو بعد من انصراف المباحث يعود بها إلى داخل

الكوخ وعندما حاول تنبيهها لاحظ أن تنفسها غير طبيعي وقلبها تختلف دقاته بين الضعف والسرعة وبدأت كأنها محمومة وبعد أن حاول تنظيم خفقات قلبها بالتدليك فتحت عيناها عندما أحست بوهج أنفاسه يقترب من وجهها واعتدلت مذعورة وجلست القرفصاء لتحمي نفسها فلم يتراجل قائلاً . . مسرة انقضى نفسك وانقذني معك لم أعد أحتمل الحياة بدونك فقاطعته بلهجة جافة صارمة أنك تطلب المستحيل لم أعد أملك نفسي فأحمرت عيناه وانتفخت أوداجه وكاد يقبض على عنقها لولا أنه قاوم غيرته وحقده وقال في إصرار : إذن حكمت على نفسك بالبقاء هنا حتى نهاية عمرك . . لن ترى غير وجهي ولن تسمعي غير صوتي . . تحت إرادتي والأيام كفيلة بخضوعك لمشيئتي . . . لست فابد العاطل الذي عرفته . . أنا الآن من كبار الأثرياء . . ونزع رباطا من على وسطه وبسطه أمامها فتناثر منه الوف الحنفيات فلم تنظر إليه وظلت تنظر بعيداً كأنها ترقب مقدم زوجها متناسية أنه غرر بها فعاد يقول ليخرجها من سروحها غداً سنرحل من هنا لنعود إلى وطننا فقالت بلهجة حاسمة لن أرحل معك إلا جثة هامدة قال : إلى هذا الحد تكرهيني قالت إلى أقصى حدود الكره والاحتقار أمقتك بقدر ما أحبه رغم كل شيء أنا أعرف أن عنقي الآن تحت حبل المشنقة وأنت جلادى والمحكوم عليه بالإعدام لا يهاب جلاده لأنه موقن بأنه سيموت حتماً . . وهنا لم يمالك نفسه في غضب وقد أحتقن وجهه من فرط الغيظ : قائلاً حذار أن تمزقي ما تبقى من أعصاب احتمالي بعنادك وحذار أن تثيرى عاصفة التحدى فترغميني على أن أخضعك لرغبتى فتحكمى عقلك ثم استلقى على ظهره إذ شعر بالنوم يسيطر عليه وكاد الليل يمضى وهو يغط في نوم عميق ووجدت الفرصة سانحة لتهرب وراحت تبحث عن مخرج فلم توفق ومضى الليل وفي أثره منتصف نهار اليوم وهو لم يزل نائماً كأنه من أهل الكهف . . ونفذ شعاع الشمس المتوهج من بين أعمدة النخيل القائم عليه الكوخ فنبهه فتحرك وتمطى وتشاءب وحول وجهه نحوها فإذا هي

ملقاة على الأرض والدم يسيل من ذراعها والمطواة التي كانت معه بجانبها
وأدرك أنها حاولت الانتحار بقطع شريانها ولكن يدها لم تصب الشريان
وإن كانت جرحت الذراع وصرخ مدعورا . . أتموتين في الوقت الذي
أحببتك فيه . . وأوقف التزيف برباط رأسه ولم تكديعي ما حولها حتى
تراعى إلى مسمعه بصوت الصغير الذي سبق أن أوصى تابعه بأن يكون
رسالة تنبيه له عندما يعود بعد الانتهاء من مهمته التي كلفه بها وفتح الكوخ
بطريقته التي لا يعرفها سواه وقبل أن يتكلم قدم إليه التابع رأسا ملفوفا
بقطعة من القماش على طبق ثمين قائلا : ها هي الرأس لقد كلفني هذا
العمل جهداً وصعوبة فوق التصور فوعده فايد بمكافأة مجزية ونزع
القماش ليرى الوجه ولكنه لم يستطع إذ أنتابته شعيرة ردت بصره على
أنه تماسك نفسه واسترد رباطة جأشه وحمل الرأس ودخل على مسره
قائلا بصوت تنبض نبراته بحرارة التشفى المكتوم . . ها هو ملاكك
وقتيك ووضع الرأس في زهو كأنه انتصر في معركة حربية وحمل رأس
قائدها لياهى بالنصر واستطرد: لقد حطمت الحاجز الذي كان يفصل بيني
وبينك وأرى من حقلك أن تلقى آخر نظره قبل أن تأكلها وحوش الصحراء
وسكت ليسمع ماذا تقول ولكنها لم تتكلم وظل نظرها عالقا بالوجه الذي
انتفخ انتفاخاً اضاع معالم لمحاته وكسته الدماء فلم يظهر لون بشرته . . ثم
زاغ بصرها وصرخت صرخة فقدت معها وعيها وبانت عليها أعراض الجنون
في التو وراحت تخط رأسها بحائط الكوخ ممزقة ثيابها محاولة أن تنشب
أظافرها في عنقه كلما اقترب منها . . وفجأة غمرها دم الإجهاض ووقف
مذهولا لا يدرى ماذا يصنع بهذه المجنونة أتركها حتى يقضى الله بقضائه
فيها وبجانب هذه الحيرة شعر بارتياح لتخلصها من الحنين الذي كان يربطها
بالطبيب وبذلك أصبحت له وحده وتحولت رغباته الغائرة إلى برود
وبات وهج عواطفه الملهبة رمادا وتحول دون وعى إلى طفل وقد بدت مسره
في ناظريه غير مسره الزوجة التي عرفها وبانت كأنها أمه فلم يحاول أن

يقاومها إذا أقبلت عليه لتضربه في عنف أو تحبظ رأسها برأسه أو تنشب أظافها في عنقه شاعرا بلذة وهو يرى الدماء تسيل من رقبتة متمنيا لو أن ذلك يعيد إليها عقلها محاولا جهده أن يلاطفها برفق وحنان عساها تنسى رأس الطبيب القتل ولكنها لم تعد تذكر أى شيء غير هذه الرأس الماثلة أمامها رغم أنه أخفاها في حفرة بعيدة عن الكوخ . . ومع أن روح الإنسان الملائكى تنبت في صدره واكتسحت روح الشيطان ولكن مع الأسف بعد أن أصبحت مسرة جسما آليا يتحرك دون وعى ويتكلم دون فهم قلبا ينبض حرارة الدم يسرى في شرايينه أما المخ فقد تعطلت سيطرته ولم يعد يربطه بالحياة غير العصب المتصل بالقلب الخاضع لمشيئة الله . .

لقد ظن أنه بقتل الطبيب سينتصر وينالها فإذا به يفقدها ولا يملك شيئا منها غير ما آلت إليه في شبه آلة تتحرك بلولب كأنه ميكانيكى وفقد بدوره نفسه فبات آدميا لا حول له ولا قوة وباتت نظراتها الزائغة الشاردة توقظ الرعب والفرع في أعماقه وتحوله من عملاق مخيف مرعب إلى طفل يشتهها ويتمناها ولا حيلة له غير الخضوع لما قدر عليها وعليه وخيل إليه أن الساعات تمر بطيئة مملة وقد توقف عقرب ساعة تفكيره فلم يعد يفكر في شيء غير رد عقلها لكي تعيش معه في أى مكان . . . أما هي فلم تعد تعرف ما الزمن وما الحياة وما الموت . . لقد مزقت الصدمة الإدراك الذى يميز بين مختلف ما يبدو أمامها وأصبحت الدنيا في ناظرها باهتة جرداء لا لون لها ولا بهاء خلاء مطلق وسكون شامل صعب وضجيج وازدحام ودماء تصبغ كل ما يترأى لها . : اشتباك بين الوجود والعدم يتحرك كأن موتور يحركها والموتور الذى يحركها لهب مشتعل في الرأس وأنفاسها كلمات ترددها في هدوء كأنها تعنى ما تقول أيقظ أنه قتلك ؟ لا أنت لم تزل حيا . : وستظل حيا وكأنه ماثلا أمامها فتسأله أعرف أنك مشغول بمرضاك الله معك . . وينظر فايد إلى حيث تنظر وكأن نورا علويا انطلق كالصاروخ نافداً إلى أعماق قلبه فاستشعر برهبة وحسية وإذا به يستغرق بحسه وخوابره

فِي النُّورِ الإلهي الذي ملأ الكوخ ولا يدرى من أين انبثق مع أنه محكم
السقف والجوانب ويعاود النظر إليها فإذا هي ساكنة تتنفس في بطن فلهل
رَبِّتَحَسَّ نبضها فيزداد فرحاً لعدم إنتظامه ويفسره بعدم تناولها الطعام
منذ جاء بها وعند ما بهم بإعداد ما لديه من طعام يتذكر الأرنب الجبلي الذي
اصطاده وكان كلف تابعه بإيقاد النار لكي يشويه وبلغه الصغير المتفق عليها
بينهما يطرق التابع الكوخ ثم يقدم له الأرنب وفي سرعة أعد لها وجبة شهية
وراح يلاطفها وينبها لتناول الطعام ولم يدر كيف تسلل رجال المباحث
وكيف اهتموا إلى معرفة الباب السري . . ولم يروعه مدهمة المباحث له
بقدر ما روعه رؤية الطبيب الذي قدم إليها رأسه .

وما هي إلا ساعات حتى كانت مسرة تحت رعاية زوجها الطبيب وأودع
فيهايد السجن ريثما يحول إلى جمهورية مصر العربية لحاكمته وفقا لقانونها .

في سبيل الاصلاح

على أثر ما نشرته الصحف من أنباء حوادث فايد التي قام بها في مصر والسعودية مسوقاً برغبة طائشة للأخذ بثأر لا أساس له . . قرأت - انسجام - تفاصيل حوادثه وساءها إنها هي التي دفعته إلى ذلك الإجرام ولولاها لما عرف زواج مسرة بالدكتور مؤنس وشعرت بالندم وتبكيك الضمير ولاعتقادها أن الأمر لم يعد يهمه ظناً منها أنه نسيها ولم تدر أنها نهت حقه واعتقاده إن مسرة خائنة وهي على ذمته وتركز هذا الظن في ذهنه وغمر مشاعره بضباب كثيف من الكراهية للطبيب وضرورة الانتقام منه ومع أنه كان لا يأبه للشرف والكرامة وهي على ذمته ولكن إعراض مسرة عنه وإيثار الطبيب عليه نبه فيه إحساساً جديداً لم يكن يشعر به من قبل . ووجدت انسجام نفسها مسوقة بدافع تأنيب ضميرها إلى ضرورة التفكير عن نقل خبر الزواج في صورة غير مشرفة لاتنتمى إلى الشرف والكرامة بصلة ولم تشأ انسجام إن تبادله غدره حينما تنجى عنها وسافر إلى السعودية بالعقوق . . فراح تزوره في السجن وفتحت زيارتها رتاج نفسه الذي أغلقها على همومه التي لا تحمد وشعر بحنين إليها ورغبة صادقة في التفكير عن غدره بها دون مبرر وخصوصاً بعد أن تنكر له كل معارفه من الجنسين وكان في الأمس معبد آمالها وقبلة مشاعرها يوم كان بيته ملهى لهم وبدأ يستشعر بلدة وفاء انسجام في وقت عزا فيه الوفاء وفتح السجن أمام بصيرته آفاقاً من الفكر والحس لا عهد له بها فيها منطق وفيها فلسفة وفيها تأمل حتى إذا غمرته خواطر هذه الانفعالات الطارئة تخاذل من فرط التجسر والألم واستسلم لتفكير عميق فيه رغبة صادقة للتوبة بعد أن تسال نور الله إلى قلبه في الكوخ وها هو يواجه الحياة على حقيقتها في السجن فهي على سعتها لا تختلف عن السجن إطلاقاً كما أن البشرية كلها تحولت بمنهايمها الموزعة على ملايين الملايين إلى هؤلاء المساجين بما تكنه

تنفوسهم من أسرار وما تخفيه جوائنهم من مشاعر لا يعلم بحقيقتها غير الله . .
 ومر بخياله فيما مر — مسرة — واستعاد ذكرى كل ما لحق بها من سوء منذ
 تزوجها حتى أصيبت بالجنون وأدرك أن الشر مهما طال لا بد أن يتحول
 إلى لبيب يحرق صاحبه وراح يقضي أيامه تأثماً بين خواطر الماضي البغيض
 والحاضر الآليم وينتظر في شيء من الأمل وشيء من اليأس نجاح قريب له في
 الانتخابات له نفوذ وقد أرسل إليه انسجام ليطلب من إدارة السجن تخفيف
 العمل عليه لضعفه فيحول من العاملين في الجبل إلى العاملين داخل السجن
 وعادت إليه انسجام بعد مقابلة القريب وتحدثت في غير هذا الأمر لكيلا
 تقطع جبل الأمل وتزيد آلامه ولكنه سألها عما فعلت ؟ وأرادت التهرب
 بعدم وجوده ولكنه أبدى استعدادة لقبول الرفض قائلاً : لقد تعودت جحود
 الأصدقاء وعقوقهم فلنزد صفحاتهم صفحة ولكل منهم أسلوبه فقولي
 ما أسلوب اعتذاره فإني أجد في اختلاف أساليبهم ما يعينني على تفهم ما أجهل
 من خفايا النفوس واضطرت إزاء إلحاحه أن تصارحه قائلة : لقد كان
 صريحاً فلم يماطل أو يتهرب شأن الآخرين فقال . . آسف . . لو أنه اقترف
 جرائمه وداخل حدود وطنه لا غفرت الدولة له ذنوبه بعد حين وقد يمكن
 تقويمه أثناء ممارسة العمل داخل الجمهورية لكن الخطب الجلل يقترف
 جرائمه في بلد آخر وبذلك شوه سمعة بلده وذلك جرم لا نهاية لفظاعته إذ
 المفروض أن يمثل كل مواطن وطنه تمثيلاً كريماً شريفاً في أي بلد يحل فيه
 حتى ولو كان من السوق . . لقد أساء إلى وطنه لاقتراف جرائمه في بلد
 يتخذ وطنه مثلاً أعلى له . . وهنا أطرق فايد ملياً ثم قال : معه حق وهل كان
 في وسعي يومئذ السيطرة على عقلي وهو مشغول للشيطان . . لا عتب عليه فهو
 مواطن صالح مؤمن ولعله يخشى معرفة قرابتي له . . ولكي تخفف عنه وطأة
 اليأس قالت : لا يأس مع الحياة وسوف اتصل بسيدة كريمة قمت على
 تمريرها وزوجها محام مرموق واعتقد أنها لا تتردد في مخاطبته ليتولى الدفاع
 عنك وسوف أعمل المستحيل لكي أوفر له الأجر المطلوب وغادرته بعد إنتهاء

الزيارة وفي نيتها أن تذهب إلى زوجة المحامى وفوراً وفي طريقها أثناء مرورها حسب إشارة المرور سمعت صوتاً يناديها من داخل سيارة واقفة وتلفتت حوالها . . فإذا بمسرة راكبة عربية زوجها ودهشت انسجام إذ لم تسمع نبأ عودة الطبيب من السعودية ورأتها على أحسن ما تكون صحة ونضارة وأفسحت لها مسرة مكاناً بجانبها في العربة لتوصلها إلى حيث تريد وكأن ليلة القدر تفتحت أمام ناظري انسجام فاندفعت تتحدث حديثاً مبعثراً لكى تخلق مناسبة تجيز لها التحدث عن فايد ومآله الأخير على أمل أن تعرف أحسنيس مسرة بالنسبة إليه بعد الذى حدث ولما لزمتم الضمت قالت انسجام لقد علمت من سيدة أقوم على تمريضها في المنزل أن زوجها وهو صديق فايد يكتب له ليقدم له محامياً يدافع عنه والمطالبة بتقديم أى طبيب نفسى بدعوى أنه أصيب ببلوثة عقلية فاجأته في الشهور التي اقترف فيها جرائمه ولها أسبابها سوف يعرضها المحامى في المحكمة وخيل لانسجام أن رغبة مسرة في عدم إثارة حياتها الخاصة المتعلقة به ومع الطبيب بطريقة تدفعها للإسهام في هذا الاكتتاب على شريطة ألا يذكرها المحامى بخير أو شر تدفعها للإسهام في الاكتتاب ولكن مسرة رمتها بنظرة أسف ومرارة قائلة : دعيه يتعلم في السجن كيف يكون رجلاً فإذا خرج من السجن أعدك أن أقدم له بمعاونة زوجى مبلغاً من المال يفتح به متجراً ليعيش عيشة الشرفاء وفي أسف مرير شكرتها انسجام وفي منتصف الطريق تركتها لتذهب إلى زوجة المحامى التي سبق أن شملت انسجام بعطفها وكرمها لذلك لم تجد انسجام مشقة في التأثير عليها كي ترجو زوجها ليدافع عن فايد مبدية استعدادها لدفع أجر أتعابه بعد إصدار الحكم ريثما تهين له المبلغ المطلوب وتصارحها السيدة بأن زوجها يفصل بين المجاملات وبين العمل لذلك قدمت إليها مبلغاً من المال مقدمة أتعابه لكيلا يرفض العرض وكان المحامى شريفاً تعود أن يقيم دفاعه دائماً على الحق والإنصاف منزهاً عن المطامع وبعد دراسة القضية وجد أنها قضية مجتمع أكثر منها قضية فرد فقد ولد فايد من أبوين فقيرين ورغم أن والده من أسرة

تنتمى إلى إقطاعى من كبار الإقطاعيين لكن جده تزوج بجمته وكانت عاملة
فى إحدى حقوله فأعجب بجهاها وشبابها فلما أنجب منها ولد طلقها تاركاً إياها
فى أحضان الفقر ولم تجرؤ المسكينة على مطالبة بحقوق ولدها الشرعية خشية
أن يطرد والدها وأخواتها من العمل فى عزبته وليس لهم عمل سواه فلما مات
وطالبت بميراث ولدها وجدت أنه كتب تركته كلها لأولاده من زوجته
الأولى التى تنتمى لأسرة تماثله فى الثراء والوجاهة . . وعاش الابن يحمل اسم
أبيه فقط وكان لا بد أن يعيش فراح يستغل اسم والده العظيم الذى لا يملك
سواه فى النصب والاحتياى فى زمن كانت أسماء العظاء والأثرياء والإقطاعيين
لا تقل قيمة عن المبالغ الباهظة وهكذا قدر على فايد أن يدفع ضريبة سوء
تصرف جده الذى عاش فى زمن السيطرة فيه للإقطاعية . . ولم تكن الإقطاعية
وقفاً على المال فقط بل كان بجانبها إقطاعية الأدب وإقطاعية الفن وإقطاعية
التجارة وكان حتماً أن يكون فايد حفيد الإقطاعى الكبير ضحية تسالى الحقد
إلى قلبه فأفسد عليه كل ما يتصل بالمثل والدين والشرف والكرامة وراح
يسعى للعمل بأسلوب جده يوارى الجهالة بالذهب ويبتاع الشرف والذمة
والضمير بالهدايا والمرأة فى حسابانه متعة وهل يمكن أن يكون غير ذلك وقد
عرف ألوان اللهو قبل أن يتفهم التزاماته نحو دينه ونفسه تحت تأثير الصبية
المشردين حيث لا وازع ولا رادع ولا رقيب ولقد تطور المجتمع اقتصادياً
وسياسياً وأدبياً ولم يزل عاجزاً عن التطور الخلقى حيث يبتعد عما تسال إلى
مجتمعنا من الأضاليل باسم المدنية والنهضة الحديثة لقد استردت الدولة من
الإقطاعيين أموالهم ولم تحاول دراسة شئون أسرهم لكى تعرف على أى صورة
يعيش أبناءهم وكيف يستغلون فراغهم أترامهم عاملون أم لاهون ؟ بلغوا
مرتبة من العلم تخول لهم العمل فى أى ميدان أم تدفعهم البطالة إلى اقتراف
الإثم والجرائم للحصول على المال بعد أن جف معينه من أيديهم إن الصحف
تطالعنا كل يوم بجرائم ارتكبتها طلبة من الجامعات والمدارس الثانوية بعضهم
ينتمى إلى أسر تنتمى للإقطاعيين بالاشتراك مع المنحرفين والمشردين من أبناء

الطبقة الفقيرة الذين دفعتهم الحاجة الملحة لسد رمقتهم والتعلق بمظاهر حرموا منها بسبب التفرقة الطبقة . وفائدة من هؤلاء كان من الحائز أن يكون إنساناً كريماً نافعاً إذا لم يكن جده على والده بالحرمان المطابق فماذا نرجو منه غير أن يكون مخلوقاً تافهاً مريض النفس معلول الضمير سقيم الروح وكان لا بد أن يتفث عن حذره وضعيفته بطرق النصب والاحتيايل والتظاهر بمظهر الاسم الذي يتعلق به لينال عن طريقه كل ما يتمنى وهو كأي عاطل بدأ يعمل وهو لا يعرف كيف يعمل فافتقاده سبل العمل وعدم تدريبه على تحويل طاقته إلى عمل مثمر دفعه إلى استغلال طاقته فيما يستطيع وهو لم يمارس غير التفكير في جلب المال والمحافظة على المظهر لاعتماده أن الثروة الحصن الخالد ولا ضرورة لتلقيح الذهن بمحصل واقى ضد أحداث الزمن فيا حبذا لو أقام الشعب نفسه ولياً على أبناء الإغطاعيين الذين تخلت عنهم الأبوة النابضة باسمي المشاعر منذ الصغر ولا سبيل إلى ذلك إلا بترويضهم على التعاون الشعبي على ضوء الحب المتبادل كان هذا دفاع المحامي مستشهداً في نهاية دفاعه ببراهين تثبت صحة دعواه مختمة دفاعه باعتباره فائدة مريضاً أكثر منه مجرمًا وعلى الدولة أن تعمل على علاجه داخل السجن أولاً وذلك باسناد عمل إليه يمارسه عملياً لكي يتأهب لاستقبال حياة أفضل .

وظلت انسجام قزور فابسه في السجن مخنمة عنه ما يعانيه في خلال الملاحظات الخاطئة التي تمنحها معه كل أسبوع ريثما يصدر الحكم النهائي . وقد أوشك بمفضل حنائها أن ينسى كل شيء يتصل بماضيه عدا مسرة فكلاما نقص عمره يوماً ازداد حنينه إليها راجياً أن يتخلى عما بقي من حياته لقاء يوم واحد يراها فيه — فإذا طافت بخياله طاف معها ابنها الذي تبنته أخته رغم حرص انسجام على ألا تذكره بوالده خشية أن تثير في نفسه ذكرى مسرة التي كان مجرد ذكر اسمها يدفعه للاستغراق في ذهول مخيف تدب بظنه الرائي أنه بداية الانتقال إلى مرحلة الجنون . . ولما علمت أخته من الصحف يتأيد الحكم الابتدائي ولا بد أن يقضى خمسة أعوام في السجن أثرت الصدمة

على قلبها المريض فساء حالها إلى درجة اضطرت معها أن تدعوا ابنة خالتها التي زوجها لتقريب زوجها لكي تكون قريبة منها وأوصتها بابنها اليتيم إذ كانت أشاعت في القرية أنه ابنها وساعدها على تصديق ذلك انتقال زوجها من بلد إلى بلد وكانت استشعرت بقرب منيتها أو صحت قريبتها بتربيتها وتعليمه ليكون رجلاً عظيماً شريفاً واستودعتها وصيتها لتعمل بمقتضاها بعد وفاتها وكأن الله أوصى لها بذلك فماتت بعد أيام وانتقل الطفل إلى بيت ابن خالتها ليعيش مع أولادها وعارض زوجها قبل أن يعلم بالثروة التي آلت للطفل ليشتعر بالفارق الهائل بين الحياتين فقد كان مشمولاً بحنان أمه الوفير مع رفاهية بالغة ثم أصبح يعامل كالذخيل الغير مرغوب فيه رغم استغلال الإيراد الذي خصص له لشئون الأسرة كلها دون أن يحظى هو بغير ما يسد رمقه ويستر عورته وكثيراً ما عمد الزوج إلى إيذائه وتحرّض أولاده على معاكسته في قسوة عساه يخرج لغير رجعة وأخيراً اتفق الزوج مع القرية على أن يسلمها للشرطة كأنه لقيط وقد حارلوا إيواؤه وتربيته ولكن غلاء المعيشة لم تعد تسمح بضم ولد إلى أولادهما الكثيرين وعارضت الزوجة في بادئ الأمر خشية افتضاح سر الوصية ولكن الزوج يطمئنها مؤكداً لها أنه أشاع في البلد أن الثروة التي تركتها تسلمها شقيقها بصفته الوصي على ابنها وبقي أن يشاع بأن الأخ تسلم الطفل ليكون تحت رعايته في القاهرة ووافقت الزوجة وسرعان ما نفذ الزوج رغبته وسلم الولد للشرطة .

وفي خلال هذه الفترة كانت مسرة سعيدة بحياتها الزوجية لولا ما يعكر صفو هذه السعادة بحرمانها من الذرية رغم اهتمام زوجها بعلاجها ترضية لها وإن كان في قرارة نفسه لا يأبه بذلك قانعاً بها راضياً بما قسم الله ولما طغى حنينها إلى الأطفال طلبت من زوجها أن يساعدها لكي تتبنى أنثى أو ذكراً من مؤسسة الأيتام وخصوصاً بعد أن أثبت الفحص الطبي الدقيق مع الأشعة والتحليل أنها طبيعية ولكن العقم نتيجة ما حدث لها فقد أثر على جهازها

التناسلي ورفض زوجها لاعتقاده أن البتة التي لا يسرى في شرايينها دم الأبوين لا يمكن أن تكون طابغاً لعواطفهما ولم تقتنع مسرة بذلك لاعتقادها أن الحب الأكيد كفيلاً بتوليد الكهرباء التي تصل بين القلب والقلب وتقرّب الروح إلى الروح وأخيراً اضطر أن يحقق رغبتها ليخفف لطفة الأمومة الكمينه في أعماقها مشروطاً أن يتبنى ولداً لكي يعلمه ليصبح طبيباً كي يعاونه عندما يتقدم به السن ولم يمرّ أيام حتى تسلمت مسرة الولد بعد أن اختارته بدافع إحساسها الحق من بين عشرات الأطفال الذين عرضوا عليها ودون جهد أنس الطفل إليها لما تشمله به حنان غامر وتدلّيل لم يألفه من قبل وعناية بالغه ولم تجد مسرة مشقة في تقرّيبه إليها متخيلاً أنه ولدها فلو عاش ابنها لكان في مثل سنه وزاد اهتمامها به ما سرى في أعماقها من أحساسيس لا عهد لها بها وبجانب ارتياحها توليها شعور غامض وزاد من غرابة هذا الشعور أن الطفل قريب الشبه منها إلى حد يلفت النظر حتى أن بعض المترددين يظنون أنه ولدها وبصراحونها بأن زوجها مولع بها إلى حد أن تأثيرها عليه أقوى وقد تحدث إليها زوجها وهما في خلوة مؤكداً هذه النظرية . . ومضى الصغير في طريقه متفوقاً في دراسته نموذجاً طيباً للصبيان والشبان حتى أصبح شاباً يافعاً ولفرط اهتمام مسرة به بدأت الغيرة تدب في قلب الزوج رغم تعلقه به إذ لاحظ أنها توليه عناية أكثر من عنايتها بزوجها وبعد أن كان الزوج يكمّ غيرته بدأ ينوه تلميحاً عساها تخفف من عاطفتها التي تحولت إلى شغف ظاهر فلما تبادت اضطر أن يصارحها بأنه يخشى أن يكون تعلقها الشديد بالولد سبباً في هدم صرح الحب الذي شيدها على أعمدة عواطفها الخالصة القوية الصادقة وبدأ يأخذ عليها من حين إلى حين إيقاف مشاعرها وعنايتها على الولد وإهمالها شئون التي كانت تهتم بها من قبل وكانت تواجه لوم زوجها بهدوء لاعتقادها أنه يبالغ في هذا الزعم مؤكدة له أن حبها يزداد يوماً بعد يوم غير أن الولد في حاجة إلى العناية ليكون جديراً بالانتساب إليهما على أنها كانت تشعر في قرارة نفسها بحب لا يصدر إلا من قلب أم لابنها معللة ذلك إلى طول حرمانها من الأمومة

وفقد ابنها ورغم مصارحتها زوجها بذلك فانه يشعر بأن الولد بات غريباً
له بدل أن يكون ربيبه وصفيه لاعتقاده أنه ملك من عاطفة زوجته
أكثر مما كان يتصور وندم في قرارة نفسه على استجابة رغبتها وتمادي في
التفكير إلى حد تمنى لو استطاع ان يتخلص منه دون أن يضره أو يفضيها
ولكن ذلك بات مستحيلاً لان الطفل بات يحمل اسمه في عرف المجتمع
فاذا ألغى ذلك قضى على مستقبله قطعاً ويؤثر على زوجته تأثيراً يعود
عليهما بالشقاء حتماً واضطر أن يتحمل على مضض حتى يتم تعليمه العالي
ويرحل عنهما لمواجهة حياته العملية وسوف يسعى حينئذ لكي يعمل
في بلد بعيد عنها . . وكلمتا مرت الايام وتقدم عمر الولد وزاد نضجه العقلي
ونموه الجسماني ازداد تعلق مسرة به وازدادت الغيرة في قلب الزوج حتى
أصبح الولد شاباً وسيماً كامل الرجولة مع تقدم سن الزوج وظهور سمات
النشيوخوخة لسبب ما كابدة في شبابه من معاناة وتفكير مضني وكفاح
مرير وساءل نفسه ا تكون زوجته لاهية عنه لهذا السبب تكون من الطراز
النسوى الشاذ التي لا تقيم وزناً لخلال كل عمر وفتنته ولا تفهم من أسرار
الأعمار غير بريقها اللامع في الشباب؟ وشوه هذا التفكير كله مشهد طبيعي
في ناظرية فاذا ابتسمت زوجته للولد ظن لبسيتها دعوة سافرة ليقرب منها
وإذا قبلته قبله أم لولدها أثناء ذهابه وإيابه أثارت القبله خيرته وإذا دخل
عليهما وهما يتحدثان بصوت خفيت لكيلا تسمعهما الخدم فسر حديثهما
الهامس بالمناغاة وهكذا سول له شيطان الغيرة الشك في كل تصرف يصدر
عنها أو عن الربيب وتحول البيت الذي كان يحبهما فردوساً أرضياً إلى جهنم
يشعل في أرجائه ليل نهار لذب النكد لأتفه الأسباب وظلت عواصف النزاع
قائمة مع صبر الزوجة واحتمالها واعتقادها بأن الأيام كفيلة باكتساح هذه الغيرة
وإقناع زوجها بأن تعلقها بالربيب لوجه الله وتدعيما لعواطفها المشتركة
وتقديساً لواجباتها كأم ومرت الأيام تبعاً على هذه الصورة الكثيرة المائلة
بأوهام الزوج وظنونه السيئة وهو اجسه الخاطئة ومعاناة الزوجة وحيرتها

بين ربيب تحرص على ألا تشعرة بما يخامر الزوج اكيلا ينفر منه أو يحقد عليه وبين زوج تحبه وتؤثره على كل شيء في الحياة وتعمل على مرضاته . . . وفجأة مرض الربيب وازم الفراش وكان لازماً عليها أن تضاعف من عنايتها ورعايتها ساهرة عليه لتخفف من ارتفاع الحرارة بالكمادات ولم تشأ أن تعطل زوجها عن عمله معتمدة على عنايتها وخبرتها ولما قاربت الحرارة درجة الأربعين راح يهذى مغمغماً . . . أماءه إني أحبك أريد أن أعيش من أجلك يا أحب الناس إلى وبكل عواطفها قبلته من جبينه الملهب قائلة . . . مستعيش يا حبيبى وبشفتين مرتعشتين مبللتين بالدموع قالت : إن الحياة بدونك لا تطاق وسكتت عندما سمعت زوجها يقترب منها إذ عاد من الخارج على غير ميعاد واستمع إليها وفي انفعال من فقد أعصابه قال : سيعيش لك وتعيشين له اطمئني وطلقها بصوت مرتجف ثم تركها وجمع ملابسه وحاجياته الخاصة وخرج دون أن يتكلم وأخرستها المباغثة فلم تستطع الكلام ولم تقو على الحركة ولم تنظر إليه ولم تدرك ماذا تفعل وظلت تنظر للمريض بعينين دامعتين ثم ارتمت على حافة سرير المريض تبكي بغير صوت . .

ظل فايد — في سجنه يحتر ذكرياته ويعيش عليها وقد انمحي ذهنه كل ما يتصل بماضيه غير ما يتعلق بمسرة وولده وكلما تعاقبت الأيام تضخم الحنين لرؤية والده ولم يعد يتخفى أى شيء سوى أن يراه قبل أن يموت ولقد اجتاحت مشاعر الوحدة والتأمل كل ما كان يعلق بخاطره بل غسلت أدران نفسه وحوات أحاسيسه إلى حنان صرف على أثر حديث جرى بينه وبين زميله في الزنازة الذى لا يؤرقه غير ما يعود على ولده من أثر سجنه في الحياة إذ بات في نظر المجتمع ابن سجين لا يؤمن . . واستعاد ذكرى اختطاف والده وكانت أخته في زيارة له فاتفق معها يومئذ على أن تكتب لزوجها أنها حامل في خمسة أشهر وقد نصحتها الطبيب بالبقاء في القاهرة تحت العلاج حتى يتم الوضع وكان زوجها عجوزاً ففرح بولده وعادت إلى بلدها تحمل رضيعها معتمدة على الرضاعة الصناعية لضعف

صحتها كما قالت للزوج والمعارف . . . وعلق بذهنه العار الذي سوف
يلتزمه للأبد وحمد الله على أن أخته تبنت الولد ولكن مسا من اللهب
حرك مشاعر الأبوة فصعب عليه أن يحرم من ابنه ويفقده وهو حي واستسلم
للبناء بلوعة المنكوب لأول مرة وهل تخفف الدموع تعاسة من تفوق
شقاوته الأشقياء ويحاول زميله أن يرفقه عنه بتلاوة تعاويذ الاستغفار قائلاً له
أن حبل الإعدام ليس في يد الجلاد ولكنه في يد ولده وراح زميله يرجو
الله ألا يرث ابنه منه شروردها ارتجف فايد وردد دعاء الزميل ولكن شبه
مس من الطمأنينة مر بقلبه إذ أيقن أنه لن يكون قطعاً على مثاله لأنه نشأ
في بيئة صالحة فأخته لم تألف الشر مثله لأنها نشأت في بيئة عرفت بالتقوى
ولم تخرج منها إلا إلى بيت زوجها التقى الورع ولما أعياه الفكر استلقى حيث
قدر عليه أن يستلقي على الأرض الباردة المفروشة بفرش يكفي الأضطجاع
عليه بعض دقائق ليترك خشونته على الجسم المتعب المكثود .

لم تحاول مسرة أن تستعيد زوجها بعد أن طلقها وخاب ظنها فيه بعد طول
العشرة الطويلة وخضعت المسكينة للحكم الجائر ووجدت في ربدها عزاء
عما أصابها وسأوة أنستها إلى حد ما بعض ما ألم بها من جراء غيرة زوجها
وعجبت كيف تسلسل الشيطان إلى قلب الملاك بهذه السهولة ؟ كيف استطاع
الشيطان التفريق بينهما في لمح البصر وحمدت الله الذي خلقها معيناً للصبر لا ينفد
وصح عزيمتها على أن تصون شرفها وشرف زوجها مهما كلفها ذلك من
معاناة ولم تحاول أن تستغل فرصة طلاقها وغدر زوجها أن تخبره بالتضحية
الهائلة التي قامت بها طوعاً من أجله يوم زارتها أخته على أمل أن تلقاه
لتخبره بالخسارة الفادحة التي أصيب بها والده بعد هبوط سعر البورصة
وأبت مسرة أن تخبره راجية من أخته في إلحاح أن تكتم عنه الأمر لكيلا
يتأثر وقد يؤثر ذلك على تفكيره أثناء عمله وخصوصاً أن أرواح المرضى
بين يديه وقدمت للأخت المبلغ المطلوب ليسترده الوالد مكانته واعتباره
في السوق واستحلفتها ألا تخبر زوجها بذلك ولم يشأ والد مؤنس أن يكون

أقل منها نبلاً وكرماً بعد أن أخبرته ابنته بما جرى فكتب مستنداً عليه بالمبلغ ووضعته في غلاف محكم بعد أن أرفقه بوصية تحتم تسديد المبلغ إذا توفي فجأة قبل سداد المبلغ وسلمه لزوجته وأوصاها أن تسلمه لولده مؤنس إذا قضى الله بقضائه فيه ومضى بعض الوقت دون أن تعلن مسرة طلاقها كما لم يشر الدكتور إلى ذلك وساعده على كتمان الأمر عمله المتواصل ليل نهار في المستشفى لعلاج جرحى الحرب وكلما سأل الولد عن أبيه حيث حدث الطلاق وهو محموم إلى درجة لم يتنبه لما يدور حوله . . قالت له أن الجرحى تتطلب بقاءه بجانبهم ليل نهار وقنع الولد بزيارته في المستشفى كلما سنحت الظروف فكان يقابله كما عوده دون أن يشير إلى طلاق مسرة قانعاً بالسؤال عن صحتها وحالتها إذ فهم من سياق حديث الولد الموجز أنه لا يعلم شيئاً عن فراقهما . . وتوفي الوالد فجأة وعندما فض الدكتور مؤنس خطاب والده ذهّل كيف حدث هذا مع أنها كانت مطلقة . . وعرض الأمر على أخوته لتسديد المبلغ بعد بيع عقار يكفي لسداده ويزيد ولكنهم رفضوا واتهموه بالتواطؤ مع أمه للحصول على المبلغ المذكور . . واضطر أن يرد المبلغ إلى مسرة مهما كلفه الأمر وأرسل إليها شيكاً بنصف المبلغ بعد شهر مع النصف الآخر نقداً مشفوعاً بمستند أبيه واستراح ضميره لكيلا يكون أقل منها مروءة ولكنها أعادت إليه المبلغ والشيك وكتبت إقراراً على نفسها بأنها تسلمت المبلغ كله من أبيه قبل وفاته ونسى أن يمزق المستند ووقع الطبيب في حيرة وارتباك لا يدرى أيهما أصدق والده أم هي على أنه تأكد من والدته أن والده كان يحمل هم الدين لآخر لحظة في حياته وقبل وفاته بدقائق كان يدعو الله أمام أمه أن يفرج كربته ويوسع رزقه ليرد إليها المبلغ ولكي يبرىء ذمته حنظ المبلغ باسم مسرة في البنك في هذا الوقت استجابت — انسجام — لرجاء فايد وسافرت إلى أخته لكي ترى ولده وتطالب منها مبلغاً من المال ولشد ما أذهلها وفاة الأخت

وعدم وجود الإبن ورغم محاولاتها العديدة للتعرف على متمره لم تهتد وأخيراً استطاعت أن تتعرف على قريب زوجها المتزوج بابنة خالتها وأنكر معرفة شيء عن الولد وساعد هما على ذلك انتهما إلى شارع آخر لا يعرف سكانه أى شيء عن ماضى هذه الأسرة إذ بعد أن آلت إليها ثروة الولد . . . ظهرت بمظهر الثراء . . . واضطرت أن تتصل بالشرطة على جيران الأخت بعد وفاتها وعدم وجود أحد يرعى الصغير بعدما انصهوا بالشرطة للتصرف ففعل لها أن جميع اللقطاء ترحل فوراً إلى مؤسسة الأيتام بالتماهرة ولم تحاول متابعة ذلك لأن الطفل ليس لقيطاً .

بعد الافراج

على أثر إعلان رئيس جمهورية مصر العربية محمد أنور السادات قراراً بالإفراج عن المسجونين الذين قضوا مدة حدها سيادته كان فايد من بين هؤلاء وقد استفاد أثناء إقامته في السجن من زميله الذى كان يجيد تلاوة القرآن ومعرفة الأحاديث النبوية وتفهم مرماها ومغزاها حيث كان من الإخوان المسلمين الذين سجنوا بتهمة التحريض على إنقلاب الحكم ضد الثورة أثناء رئاسة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر وقد أدرك فايد فيما أدرك من أحاديث زميله الدينية أن النفس البشرية ليست مجرد شر مطلق إذ التقويم والتوجيه واستيعاب بواعث الخير من أقوى سبل تحول الشر المرذول إلى خير مقبول وبفضل ما تسرب إلى نفسه من تأثير زميله استقام تفكيره واستنار قلبه بفيض من الإيمان اللامدرك . .

وخرج من السجن لا يملأ فراغ ذهنه غير التفكير في البحث عن ولده بعد أن علم من إنسجام فشلها في معرفة مقر الولد وسرعان ما توجه إلى ابنة خالته التي زوجها أخته إلى قريب زوجها حيث كانت تقيم فلم يجدها وبعد الاستقصاء والتحري توصل إلى معرفة مقرها فلما رآته أدركت في قرارة نفسها سبب مجيئه ولكنها تجاهلت على أنه لم يترك لها فرصة للاسترسال في التجاهل .

وطالبها بولده بعد أن اصطنع إرسال رسالة من أخته تخبره أنها أوصت ابنة خالتها برعاية ربيبها وسلمتها جميع المستندات الخاصة بما تملك وقد تنازلت عنها للريب على أن يكون ولياً له بعد أن يتسلمه من ابنة الخالة عندما يحضر إذا قدر الله وفاتها قبل أن تلقاه ولم يستطع الحضور أثر وفاتها لأمر خارجة على إرادته والثقة بأنها كفيلة بتحقيق الرصية وجديرة برعاية ولده . . وأدرك من ارتباكها واطراقها مفكرة فيما عساه أن تقول إنها تخفى أمراً فتكلف

الهدوء وقال : لست فى حاجة إلى المصاغ وأثاث البيت ولك نصف ماتركت من المال لقاء عنايتك بولدى . . . وقد نجحت لأتسلمه لاشك أنه أصبح شاباً يافعاً يعاون زوجك فى عمله أليس كذلك ؟ وازاء تصميمه وخشية افتتاح حقيقتها أمام الحيران أخذت عليه عهداً ألا يضر زوجها وصارحته بأن زوجها سلم الطفل إلى الشرطة ليسلمه إلى أخته المقيمة فى القاهرة إذ لا شك أنها على صلة به ولعدم معرفتهما مقره اذ لم تخبرهما أخته التى توفيت وغادوها متجهاً إلى اختها التى أساءت استقباله لاعتقادها أنه أصبح من محترفى الإجرام وأكدت له أنها لم تسلم الطفل ولا تعلم أى شئ عنه . . . واضطر أن يتصل بالشرطة ليتأكد من تسليم الطفل فى التاريخ الذى ذكرته ابنة خالته بعد أن حاول التأكد من زوجها ولكن الزوج حاول الاختفاء فى مكان ما لكيلا يقابله معتمداً على زوجته التى ادعت أنه سافر إلى السودان للوقوف بجانب أخته التى توفى زوجها السودانى ولرعاية مصالحها بعد تسليم ميراثها عن زوجها الثرى وقد اعتزم أن يحضرها وثلوثها لاستغلالها فى مصر وقد لفقت هذه الأكذوبة لكي توهمه بأن الثروة التى يملكها زوجها حالياً هى مما ادخرته أخته عنده قبل وفاة زوجها كلها فجاءت القاهرة فى كل عام . . . وشغله التفكير فى الحصول على ولده عن التحرى لمعرفة صحة ذلك وبعد البحث فى دفتر الأحوال الخاص بالعام التى توفيت فيه الأخت عرف أن الولد حوّل إلى مؤسسة الأيتام فى القاهرة وتلّبع إجراءات التحريك حتى انتهى إلى أن هذا الطفل تسلمته حرم الدكتور مؤنس . . . وظن أن الممرضة — انسجام — هى التى نهبت مسرة إلى وجوده فى المؤسسة فهرع إليها فى الحال وقد عاوده شيطانه وكاد يفتاك بها لولا أنها أقنعتته بتجاهل ما أفضى به إليها ثم رافقته إلى المؤسسة لتتحرى من المسؤولين عن مصر الطفل الذى حول فى التاديب الذى ذكره فايد وعلمت بعد الحوار الذى جرى بين المختص الذى ظل فى المؤسسة طوال هذه السنين ربيها أن الاختيار وقع عليه من الدكتور مؤنس إذ كانت حرمه تريد أن تنبئ بنتاً ولكن الدكتور صمم على أن يكون ولداً وقد اختير هذا الطفل من بين عشرات الأطفال التى عرضت عليهما لسيماً أعجب بها الدكتور مؤكداً فى حديثه أن هذا الطفل رغم أنه لقيط كما قيل

ولكنه من أصل طيب ينتمى إلى أمه أو أبيه أو هما معاً وازداد إيماناً فأيده الله
لاعتقاده أن الله رد الطفل إلى أمه من حيث لا تدري وفكر في وسيلة تبيح له
روياً الولد دون أن تشعر مسرة بذلك وأخير أخذ تصريحاً من الشرطة لكي
يقابل الوالد بدعوى أنه خاله ويريد أن يتسلمه متجاهلاً مآل الطفل مؤيداً صحة
دعواه بشهادة ميلاده وتاريخ وفاة أخته وإقراراً من ابنة خالته بتسليم الطفل
منها مدعية بأنه ضل الطريق في التاريخ الذي سام فيه للشرطة وهي لا تدري
وفوجئت — مسرة — ذات صباح بحندى موفد رسمياً بمرافقة فايد
لتسليم حسام عبد الرؤوف الذي تسلمته من مؤسسة الأيتام في تاريخ ذكر وفق
تسليمها إلى خاله فايد وعندما وقع نظر مسرة على فايد الواقف
بجوار الحندى روعت وأيقنت أنه دبر لها مؤامرة جديدة وقد ادعى قرابة
ربها ليحرمها منه ورغم إيمان مسرة بأن أخته عاقر بدليل أنه مضى على
زواجها قبل زواج مسرة عشرين عاماً دون أن تنجب ولكنها لم تستطيع
التصريح بذلك تشير إلى دلائلها الزوجية بفايد فيما مضى وحيال
إصرار مندوب الشرطة مع عدم وجود ما تستشهد به اضطرت أن تخضع
تاركة لحسام الذي أصبح شاباً وسيماً يغرى النظر على التطلع إليه حرية
البقاء معها أو الذهاب مع خاله والشاب واقف مذهول لا يدري معنى هذا
الحوار الذي يسمعه واضطرت مسرة أن تقول في إيجاز . . . كان خالك على
سفر في الخارج ويبدو أنه حضر واتصل برالدك الذي عارض في الذهاب
معه وقاطعها فايد . . لأسباب عائلية ستعرفها يا ولدى في الوقت المناسب . .
المهم تعال معي الآن لكي تسلم الميراث بدلا من الذي آل إليه أثناء غيابه
حيث إنني مضطر إلى العودة للخارج ولزمت مسرة الصمت والشباب
ينظر إليها لتوصي إليه بما يجب أن يفعله فقالت . . . إذهب معي يا ولدى
ونظرت إلى فايد في توسل ورجاء . . أترى تطول غيبته أو يعود فوراً ؟ . .
فقال فايد . . . إطمئني . . لن أجرمه منك وعانقها الابن عنق الابن لأمه في
حرارة وعمق مقبلا وجنتيها ويدها وانصرف مع فايد ونظره عالق بها

وذهبوا إلى الشرطة لإجراء اللازم نحو تسلم الشاب وإخلاء الأسرة التي
تبنته من المسؤولية أمام القانون .. وعاد فايد بعد أن سمح لابنه بالعودة إلى
أمه قبل أن يصارحه بأي شيء على أمل أن يعود إليه بعد أن يسافر لتسليم
الميراث وسافر إلى ابنة خالته لاسترداد مصاغ أخته ومالها ومستندات
عقارها وأفهمها أنه لم يطالبها ريثما يتمكن من تسلم ولده بصفته الوريث
الشرعي لأخته بحكم شهادة الميلاد الموجودة تحت يديه واضطرت أن تصارحه
إيزاء بإصراره بأنها تصرفت في المصاغ والمال لتربية أولادها وبدل أن
يثور غفر لها وقال سأفرض أنني صرفت في سبيل الحصول على ابن أختي
هذا المال ليبارك الله في حياته ويحفظه من كل سوء وأثناء ترده على حسام
في منزل مسرة استطاع أن يذبه مشاعر البنوة فيه دون أن يشعر فبات يستقبله
استقبال الولد لأبيه . وفي يوم ما كان فايد يتسلى بقراءة صحيفة عند الحلاق قرأ
في إحدى الصحف التي ظهرت منذ شهور الملقاة على المنضدة للتسالى ..
خبراً جاء فيه أن طبيباً معروفاً طلق زوجته بعد قصة حب من أجل تعلقها
بربيبها الشاب وكان حتى هذه اللحظة لا يعلم عن أمر طلاق مسرة شيئاً إذ
حرصت على ألا تقابله أثناء زيارته لحسام وكان يعمد إلى الزيارة في الوقت
الذي فرض أن يعمل فيه الطبيب ولم يحاول من جانبه أن يراها حرصاً
على سعادتها بعد أن تنبه ضميره ، وضمناً لمستقبل ولده إذ لا يمكن أن
يتمتع بالراحة والسعادة كما يتمتع بها الآن في هذا البيت إذ المال وحده لا يكفي
لتوفير الحياة السعيدة التي يتنعم بها وشعر برغبة ملحه لمعرفة هذا الخبر فرافق
أبنة لمشاهدة فيلم لكي يتحدث إليه بعيداً عن أمه ... وسأله أتحب والدك الدكتور
يا حسام قال : كل الحب يا خالي .. فعاد يسأل أيهما أحب إليك .. أمك مسرة
أم أبيك الدكتور ؟ قال حسام لكل منهما حب خاص ، قال فايد : لا بد
أحدهما أكثر حباً ... فأطرق حسام لحظة ثم قال .. أمي مسرة .. ونظر إليه
فايد وقد غلبه إيمانه في وصيه لولده أن يبارك هذا الحب فقال : وهل تراها
تحبك أكثر أم تحب زوجها ؟ ... فأطرق الابن لحظة ثم قال أعتقد

أن حب الزوج له طابعه الخاص وحب الابن غريزي طبيعي ولا يمكن التفرقة بين الأم والابن لأن الدم الذي يسرى في شرايينه منها والنور الذي يسرى في روحها هو الذي يربط بينها وبين ابنها . . وقد يقوى هذا النور أو يضعف حسب استعداد الأم على أن أمي تحبني أكثر مما تتصور .

فاستدرجه فايد . . هل يقضى والدك الدكتور رقت فراغه في البيت ؟

قال حسام : وهل للطبيب وقت فراغ في هذا الوقت العصيب يا خالي . . خصوصاً أبي الدكتور إن حياته لا تعرف الفراغ أبداً دائماً مشغول . مشغول مجند لعلاج جرحى الحرب ليل نهار . . . فقاطعه فايد . . إذن لا يحضر الا وقت تنارل الطعام والمبيت أحياناً فعقب حسام وهل للجندى مواعيد للأكل والنوم . . إنه مرتبط بمفاجآت غدر الأعداء ولذلك فهو على استعداد دائم لاستقبال الجرحى . . وقال فايد في خبث هل معنى ذلك لا يحضر . . قال حسام الآن هو مجند على الجبهة قال فايد . . منذ متى لم يحضر . . قال حسام . . لا أدري بالضبط لأنني أتدرب عسكرياً للتطوع رغم أنني وحيد . . وقد يكون حضر وأنا خارج البيت ثم أراد أن يحول مجرى هذا الحديث فسأله . . هل لك أولاد يا خالي . . يسرني أن أتعرف عليهم فقال فايد . . ولد واحد في مثل سنك وسوف تعرفه عندما يحضر لأنه تطوع منذ شهور رغم أنه لم يتم العشرين من عمره . . فقال حسام . . لقد عرفت كيف تحسن تربيته بدليل أنك غرست فيه حب الوطن والرغبة في التضحية بارك الله فيه وفيك . . أنا أحمد الله لأن أبي الدكتور وفقه الله في تربيته كما عنيت بي أمي عناية لم أعهد لها في الأمهات الأخريات كما أشاهد أمهات رفاقي اللاتي أعرفهم فغمغم فايد كأنه يخاطب نفسه . . لهما الشكر فعقب حسام الشكر وحده لا يكفي أنا مدين لهما بحياتي وهنا قدم له فايد قصاصة الخبر الذي اقتطعها من الصحيفة وقال له . ما رأيك في هذا ؟ أممكن لرجل مثل أبيك أن يطلق زوجة مثل أمك بدعوى أنها عاشقة لريب لها ؟ ؟

فنظر إليه حسام نظرة كبرياء كأنه ينظر بعيني أمه وقال إذا كانت مثل أمي . . .
تعالى عن الاتم عندما طلقها وسرح فايد بذهنه بعيداً متخيلاً يوم ولد ويوم
استولى عليه خفية بمساعدة انسجام وهو اليوم شاباً وسيم الطلعة تاضج الفكر
طاهر العاطفة بفضل رعاية أمه ووجد نفسه مسوقاً إلى مصارحته فقال : اصغ
إلى ما أقوله لك يا ولدى بعقل يتفهم حقيقة صراحتي دون اندفاع ، مسرة أمك
هذا حق . . . ولكن وسكت متردداً خشية أن يصدمه إذا عرف أن الدكتور
ليس والده . وأشعل السيجار ليفكر كيف يصارحه . . فقال حسام . . . ولكن
ماذا يا خالي . . فاستجمع فايد شجاعته وقال الدكتور ليس والدك ، فريح حسام
وقال . . الدكتور ليس والدي . . وسرح بخياله مستعيداً ذكريات طفولته
حتى أصبح هكذا فقال . . هذا افتراء يا خالي صدقني . . إنه والدي إذلا يمكن
لزوج أم أن يعامل ابن زوجته كما عاملني في طفولتي وصباي وحتى الآن لقد
كنت عنده البارحة في المستشفى فلقيني لقاء الوالد الحنون بولده الوحيد . . .
فعاد فايد يقول . . أقسم لك يا ولدى وسوف أبرهن لك . . لقد تزوجت أمك
في باكورة صباها برجل أنجبت منه ثم خان الحظ زوجها أو على الأصح
سيطر الشيطان على عقل هذا الزوج فسيره في طريق شائك معوج وسوف
تعرف تاريخ هذا الزوج أعني والدك في الوقت المناسب . . المهم اغفر لأبيك
ما تقدم من ذنبه فقال حسام أظن من حتى أن أعرف والدي إذا كان ما تقوله
حقاً قال فايد . . ستعرف من والدتك كل شيء عنه إذ قد تشك فيما أقول
فتنفس حسام الصعداء وقال . . حمداً لله إن الله لم يحرمني من أمي وحسبي هي
وإن كنت أتوق لمعرفة أبي فقال فايد إذا كنت تعاهدني على أن تغفر له وتحبه
كما كنت تحب والدك الدكتور فقاطعه حسام أكذب عليك إذا
أكدت لك ذلك أن حبي لوالدي الدكتور حب عمري كله منذ نشأت تحت
رعايته ولا يمكن أن أجازيه بالعقوق أو الخحود وسيظل حبه يحتضن حب أمي
في أعماقي حتى نهاية حياتي ويوسفني أن أعترف لك يا خالي في شيء من
المرارة والأسى أنني لا أستطيع أن أحب ذلك الرجل الذي تزعم أنه أبي حب

الإبن لأبيه فقد ملأ فراغ قلبي وملك مشاعري حبي لأمي وأبي الدكتور وليكن ما يكون . . . وهنا أطرق فايد وقد دمعت عيناه وقال . . . له الله يا ولدي فاستطرد حسام على أن ذلك لا يمنعني من معرفته ورؤياه لأعرف على الأقل سبب طلاق أمي منه . . . وأنهى فايد حديثه بأن والده تاب إلى الله وسلك طريقه ووعدته بأن يتيح له فرصة مقابلته أمام أمه على أن يساعده لتغفر له وليكن شفيعاً له عندها والله يتولاه برعايته ولم يعن حسام معرفة التفاصيل قدر عنايته بصحة إنتسابه لأمه مستشعراً بأحاسيس صافية لا يعكرها ضباب مخاوف الأوهام واستأذن خاله لكي يذهب إليها خشية أن تقلق عليه ولما وجدها تدعو الله بعد صلاتها وفي عينيها أثر التهاب يبدو من فرط البكاء فأقبل عليها مطوقاً عنقها بذراعيه على غير عادته وعندما هم بتقبيلها ردتته عنها في حياء وهي تنظر إليه نظرة أم تنهى ولدها عن أمر ما . . . ولكنه لم يرتدع كما كان عندما يحاول أن يقبلها شاكراً لما تحقّق ما يريده وكانت تحجم كلما راودتها نفسها بتقبيله خشية أن تنبه أحاسيس الرجولة إذا لمستها نعمة الأنوثة الرقيقة وكانت تحاول دائماً أن تكبت عواطف الأمومة خوفاً من زوجها ومع ذلك لم تسلم من هواجس ظنونه ولم يمنعها ذلك من شكر الله الذي تفضل عليها بهذا الولد الذي يحبها حباً أشبه بالتقديس والعبادة ولم يكده يستقر بجانبها حتى سرد عليها الحديث الذي جرى بينه وبين خاله وسألها رأيها فيما زعم وكان ميعاد تناول العشاء تأخر لتأخره في الخارج فقالت له . . . تعال نأكل أولاً ثم نتحدث فيما تريد وحاولت أن تشغله أثناء تناول الطعام بأحاديث أخرى تتعلق بدراسته ثم تكلفت الرغبة في النوم لصداع شديد ألم بها ولجأت إلى فراشها بعد أن قالت : لم يبق على الامتحان غير أيام معدودة فلا تشغل ذهنك الآن بغير دراستك . . . وعندما خلّت بنفسها واستعادت حديث حسام خيل إليها أن فايد عمد إلى مكاشفة الولد بعدم إنتسابه إلى الدكتور ليجعل منه قنطرة يعبر عليها ليصل إليها وإن كان لا يزال يلبس مسوح الحال وفي الصباح لاحظ ولدها عليها الوجوم السروح والشحوب فأقبل عليها حانياً قائلاً... لا تفكري في الماضي يا أماء..

حسبك أنا .. أليس كذلك؟ لقد غفرت لأبي إن كان حقاً ما صارحني به خالي لأنه تاب إلى الله وسوف يؤدي فريضة الحج ليستشفع بالرسول صلى الله عليه وسلم كي يقبل الله توبته فاغفر لي وقد أوصاني خالي به خير أو هناتسلت حرارة أنفاسه إلى أعماقها فنبهت يقينها واحساسها العميق وشعرت بصدق ما يقول واندفعت تنفس عن حبها له بتقبيله على عاتقها كأنها تبصم على رأسه وفوق الجبين على الخدين والشفتين والعنق والكتفين خاتم الأمومة راجية الله أن يطيل عمرها حتى تراه أسعد مخلوق بزوجة صالحة وذرية جديرة به وغمر حبها قلب أبنها فشعر أن فيضاً من نور الله ملأ كل جالحة فيه .. وفي الوقت الذي يعلم فيه فايد أن حسام لا بد أن يكون في المنزل ذهب إليه وقابله كما تعود أن يقابله وحاولت مسرة ألا يراها فشغلت نفسها ببعض المهام في غرفتها الخاصة وأدرك فايد أنها عن عمد لا تريد رؤياه فتعال لحسام أن والدك في انتظار السماح له بمقابلته لكن يتحتم أن أسمع من والدتك التصريح له بالمجيء الآن واستدعى حسام والدته قائلاً .. خالي يريد أن يأخذ رأيك في أمر يتعلق بي فأرجو مقابله وأبدي دهشته مردفاً .. ما سبب تجنبك ليأيه مع أن المفروض أن ترحبي وتفرحي ببقياه لأنه الأخ الوحيد لك فلم تعقب وارتدت ملابسها في احتشام كأنها ستصلي ورافقت ابنها وودرن أن نجلس سألته .. خيراً إن شاء الله .. فتعال لها .. ابنك يريد أن يرى والده فما رأيك فأخذت وقالت إذا كان حياً .. حسبه خاله .. فنظر إليها قائلاً .. يجب أن يعرف ابنك الآن كل ما يتعلق بأبيه وبك .. لم أشأ أن أصارحه بكل ما يجب أن يعلمه إلا على مسمع منك لكيلا يرتاب ويواجه الواقع .. وأنا معك أن والده الذي كان زوجك فيما مضى مات شيطانه وتذبه ضميره واستعاد دينه وبات جديراً بأبوة ولدك وولده .. وتدخل حسام وسأله ولماذا افترقا وأمي خير مثل للزوجة الصالحة والأم المثالية الكاملة .. فقاطعه سأترك أملك تقص عليك هذا الماضي وصدقها فيما تقول فهي لا تكذب أبداً .. واتجه حسام إلى أمه قائلاً أرجو أن تسمح لي بمرافقة والدي

لكى أراه فلزمت الصمت .. فعاد فايد يقول . . أما زالت ناقمة عليه
علق حسام أن قلب أمى أسمى من أن يحقد على كائن مهما كان فما بالك
بأبى الذى أنجبني . وهزت هذه الكلمات مشاعر مسرة وهمت بالكلام
ولكن الكلمات وقفت فى حلقها وانتهزت فرصة آذان الصلاة فاستأذنت
لتؤديها فلما انتهت منها لزمت الصمت قال فايد .. إذن لابد أن أضع
حداً لبلبة ذهن ابننا لكيلا يضيع وقته فى التفكير فيما لا طائل منه وأخرج
من محفظته ورقة ميلاده قائلاً فى شجاعه واعتداده .. أنا أبوك يا حسام
وقدم له ورقة ميلاده مردفاً . . عندما اختلفت مع أمك لأسباب خارجة
عن إرادتي أخذتك خلسة وسلمتك لأختي فى الصعيد أما كيف
عدت إلى أمك فسوف تعرف فى فرصة أخرى أمك أيضاً إذ
الذى يهمنى الآن أن تغفر لى أمك ماضى من أجلك لا من أجلى
وسكت ليسمع منها ما يطمئن ولكنها لزمت الصمت إذ غمرتها مخاوف
مبهمة على نفسها وعلى ولدها وقالت غفر الله لك فانتصب واقفاً وقبل ابنه
قبلات الأبوة الحانية الخالصة ثم قال . . اترككما الآن ولنا لقاء آخر تكون
فيه أمك أوفر سماحة وعلى أثر انصرافه شعر ابنه بأنه شد مشاعره إليه وطوق
أمه مقبلاً ثم قال لماذا لم تخبرينى بأن الدكتور طلقك لاعتقاده أنك .. ولم يستطع
إتمام الكلام فقالت .. أنا لا أعلم أنك ابني بحق إلا من حديثك البارحة ويعلم
الله كم كنت حريصة على أن أتق الله فى والدك الدكتور ويجب أن تعتبره
كذلك إلى نهاية عمرك ولعلك تذكر كيف كنت أحرص على ألا يؤثر مشاعره
عندما اكتملت ونضجت خشية أن يطغى شيطان الشباب عليك لعلمي أن
الحاجز الطبيعى الواقع لوجوده بيننا لأنك لست ابني كما كنت أظن حريصة
ألا أظهر أمامك عارية وذلك لا يضير الأم إذا حدث أو أراك عارياً ومع ذلك لم
أنج من أقارب المرجفين فقد اتهموني بأبني فتنت بك بعد أن انتشر خبر طلاقى
دون علم الدكتور أو علمى وكم بالغوا فى الأراجيف مما جعل حياتى تثير الأسى
والألم فى نفسي دون أن أشعرك بذلك حريصة على ألا تسمع ما يريب لتعيش

في هلع وأمان ولما استعادت هلع نفسها بجواره توسل إليها أن تسمح لو والده
أن يتردد عليه وبذلك تضيف إلى ما أثرها ما يجعل الحياة في ناظره مؤكدا صلته به عن
قرب سوف تشعره بضرورة التزام كل ما يرضى الله وبذلك ترد له اعتباره
وتعيّنه على التعلق بأنبل المثل وأسماها وعندما كرر رجاءه لم تدعه يسترسل
قائلة : أنا لا أستطيع مطلقاً أن أقبله في بيتي . . قابله أنت في الخارج كما تشاء .
ماذا يقول الناس عنى ؟ ألا تفكر في سمعة أمك وكرامتها ؟ قال . . أنه أبى . .
قالت لقد غفرت له من أجلك ولكن رؤياه تنقلني إلى الماضي البغيض وبدأ
عليها الإعياء وجففت دموعها وهي تنظر إليه مردفة بصوت تخنقه العبرات
أهون عليك أن تراني أشوى أمامك على النار كما تشوى اللحم على السفود
ترفق بي يا حسام إذ رؤياه تشعرني بلهب محرق يكفي أن أعيش معه بعض لحظات
ليحول مشاعري إلى رماد فلا أشعر بوجودى . . أنا لم أقص عليك كل
ما حدث بالتصريح واكتفيت بالتلميح لكيلا أبذر في نفسك بنور الكراهية له فقال
بصوت ينم عن الأسى يا أمى يا أحب مخلوق لى لقد فعلت من أجلى
أكثر مما تفعله الأم من أجل ابنها وسأفعل أنا من أجلك ما يفوق طاقة الأبناء من
أجل هذا المطلب قالت ذلك فوق احتمالى فرقع عند قدميها راجياً في إلحاح
متوسلاً بقبلات رأسها ويديها وظل نقاشهما كل منهما يحاول أن يقنع الآخر
وأخيراً أتفقا على أن ينتقلا إلى مسكن آخر لكيلا يعرف الجيران الجدد كل ما
يتعلق بحياتهما وبعد أن انتظمت حياتهما في المسكن الجديد استأذن حسام والدته
في استقبال والده فوافقت على مضض على شريطة ألا تقابله وألا يتعدى غرفته
الخاصة ولم يشأ أن يرغمها على مقابله لما يبدو عليها من ألم وضيق لمجرد ذكر
اسمه ومضى اليوم حتى انتصف الليل فاستأذنها أن تسمح لو والده بالمبيت معه
إذ لاحظ عليه انحرافاً واضحاً وقد زادت برودة الجو من توعكه وبعد معارضتها
وافقت على ألا يتعدى حدود غرفة ابنه وفي اليوم التالى عز على
حسام أن يرى أمه دامعة أبداً شاحبة الوجه وبدت كأنها تفتات آلاما مبرحة
وكانها مريضة منذ مدة إذ بدا عليها الذبول وضمور وجنتيها وأيقن أن محبته
والده هو مبعث هذا الأسى الذى سيطر عليها فحز ذلك في نفسها ووجد نفسه

مشدوداً إليها بعواطفه يود لو يفدى ما ألم بحياته وتحير فيما يجب أن يفعله فهو ملزم برعاية والده المنكوب الذي فقد العون والرعاية وأضطر أن يصارح أمه بذلك راجياً منها أن تتجاهل وجود والده ريثما يسترده عافيته بعد الوعكة التي طرأت عليه وغامت عنها بالدموع وهي تقول بأنفسها ألمها المكبوت والألفاظ ترتجف بين شفيتها المرتعشتين المبللتين بالدموع : : لتكون مشيئتكم يا ولدى وبحرارة الحب العميق طوقها بذراعيه وظل يغمرها بقبلاته التي لم ينقطع عنها إلا على صوت أبيه وهو يناديه فأيقن أنه صبحا من نومه وهرع مسرعاً ليعده له الشاي بنفسه وأثناء تناول والده الشاي أشار إليه ليقرب منه قائلاً : أن أملك غير مرتاحة لوجودي هنا بدليل أنها تتجنبني وتهد متحسراً وغمغم بصوت خفيض ينم عن الحزن والأسى إلى هذا الحد تكرهني لشد ما أنا حزين لهذا يا ولدى ، ولا أكتملك أننى كرهت نفسي بقدر ما كرهت الحياة ولولاك لما تعلقت بها حتى الآن . . لقد كنت أأمل أن أراك قبل مماتي وقد حقق الله أملى ورأيتك على صورة لم تكن في حسابي فرحياً بالموت إذا حان : : فارتاع الابن وقال أتشعر بتعب يا أبى ؟ قال : أنا مصاب منذ سنين وهوداء مزمن لا علاج له يا ولدى وماذا تنتظر ممن اتخذ الشيطان رفيقاً منذ بدأ يستقبل الحياة بغريزته بلا رادع ولا وازع ولا رقيب . . بوركت يا ولدى وبوركت أملك وحفظكما الله من كل سوء . . أشعر بقلبي يخنق فدعني أخرج لكيلاً أعكر عليكما صفو حياتكما وقد أعثر على مأوى آخر أجده فيه صديقاً رحيباً فاشد هلع حسام وأقبل عليه حانياً مشفقاً قائلاً ستجد في صدري كل ما يعوزك من حب يا أبى فربت والده على كتفه وهو يقول : أشعر بذلك ولكنك لم تنزل في حاجة إلى من تقوم على خدمتك وتسهر على راحتك لتواصل دراستك إذ لن ينفعك غيرها بعد أن تفقد الراعى والمعين بعد أمد قصير أو طويل مد الله في عمر أملك من أجلك يا ولدى . . إن جميع الكنوز التي يدخرها الإنسان تفنى بالصرف مع الاستهتار أو إذا امتدت إليها يد اللصوص . . أما الكنز الذي يحتفظ به الإنسان في رأسه . . فإنه لا يفنى . لأنه كنز العلم والإيمان وهما

في حماية الله ورعايته وسكنت إذ بدا التأثير على وجه ابنه حيث تندت عيناه بالدموع وهو ينظر إليه مشتملاً وجذب يده مترفماً قائلاً : لن اتخلي عنك يا أبي ولا تسيء الظن بأبي إن لها قلباً كبيراً وروحاً رحيماً ولكنها تحذر القوالين والزمن وحده كفيل بتضميد جراحها فاطمئن . . . فقطعه الوالد . . . من الخير لها ولك أن أبرح هذه المارفتال حسامني إصرار لن تبرح إلا لتزاول عملاً فاغتصب الوالد ضحكاً منغممة بالأسى وغمغم . . . أي عمل هذا ؟ وصحني كما ترى لا تساعدني على العمل فقال حسام أعرف ذلك ولكنه إشراف . . . والصدفة هي التي ساقت لك هذا العمل فقد حدث أن استدعاني زميل لي لمرافقته إلى رجل صديق لوالده لينمض له الأمر في بيع الخبز الذي كان يملكه والده ليقضى فيه وقت فراغه بعد عمله الحكومي ثم نقل إلى بلد بعيد واضطر أن يبيع الخبز الذي كان يملكه ليقضى فيه وقته وكلف زميلي بالبحث عن مشتري من أصدقاء والده ولقد أشغلني تفكير زميلي وحيرته وكان من الطبيعي أن أخبر والدتي بما جرى حيث تعودت أن أنقل إليها كل ما يطرأ على طوال اليوم وقلت لها فيما قلت أخش أن أكلف والدي بشراء الخبز لحسابه ولكي يشرف عليه فيفسر ذلك بالرغبة في الحصول على ماله من ميراث أخته . . . ولم تدعني أسترسل في حديثي وقالت . . . اشترى الخبز يا ولدي من مالي الخاص وقدمه هدية مني لوالدك لكي يقضى ما تبقى من عمره شريفاً موفوراً الكرامة من أجلك وسلمتني المبالغ المطاوب وغداً أرجو أن ترافقني لإجراء اللازم ولتسلم الخبز وسوف أكون بجانبك في وقت فراغي لأقوم بما يصعب عليك القيام به من أعباء وعليك الآن أن تنام مستريحاً ثم غادره ليطمئن على والدته في غرفتها قبل أن يبدأ في استذكار درسه ولشد ما هاله رؤيتها باكية بغير صوت ولما سألها عن سر بكائها جففت دموعها وهي تبسم مغالبة أساها الدفين منغممة لاشئ يا حبيب فقال بلمهجة

الحب العميق والحنان الأكيد ولكنك تبكين ؟ فتكلفت البشر وهى تقول آه
يا ولدى هناك مشاعر تطوف بالصدر لا يمكن تصويرها قال اتكتمين عن ابنك
ومن يضمنه جرحك إياه أن كان ثمة جرح لم يندمل ؟ قالت يا حبيبى لا تشغل
نفسك بغير مستقبلك . . لا تشغل نفسك بى وبأبيك إننا مازلنا نسير دون عصا
ونرى الأشياء واضحة . . فطوقها بذراعيه وهو يقول ألا يصح أن يكون
تفكيرى فى راحتك مفتاحا لإيجاد السعادة لمن تعوزهم السعادة وأن تشجعنى
متاعبى من أجل أبى على اكتساح متاعب المتعبين فعاونينى على أن أهى لك
ولأبى الطمأنينة والاستقرار ليطمئن قلبى ويرتاح ضميرى ولا سبيل إلى ذلك
إلا بجمع شملكما ولا أظنك من أجلى تمنعين . . ولم يكن يتصور أنه
بهذه المصارحة قذف بها فى أتون من النار ولم تستطع مقاومة أنفعالها
فأخفت وجهها بيديها لكيلا يرى اللهب المتطاير من عينيها وكأن الماضى
بأهواله تجسم أمام عينيها فقالت بصوت مرتعش النبرات داعم الكلمات
. . . هذا محال . . محال أتفهم معنى كلمة محال وإياك أن تفكر فى هذا
وإلا اضطرت إلى ترك البيت لك ولأبيك فترفق بها وطوقها ليقبلها قائلا :
يبدو أنك متعبة الآن فاستريحى وأرادت أن تؤكد له أنها لن تحيد عن إصرارها
فجرتة فى حنان وأجلسته بجانبها قائلة . . . حاول أن تفهم ما أريد أن
أفهمك إياه بعقل غير خاضع للعاطفة . . قد يصح أن تكره إنساناً
فى أول تعارفكما ثم تتكشف لك الأيام عما تحب فى نفسه فيتحول الكره إلى
حب أكيد وقد تحب إنساناً ثم يتضح لك أنه كان يلبس مسوحاً يغرى على
الحب وهو فى حقيقته لا يستحق هذا الحب . . لقد أحببت أبىك يوم
تزوجته الصورة المثالية التى عرف بمهارة كيف يلبس مسوحها فلما بان
على حقيقته واكتسحت شمس الواقع ضوء الصورة التى مثلها فبان باهتة
ثم تلاشت وتلاشى معها حبي . . أحببت فيه إنسانيته فلما ظهر لى الشيطان
الحاثم فى أعماقه لم أستطع التعلق به ، والآن كلما رأيته تصورت شيطانه يطاردنى

بآلام الماضي ومآسيه . . . لا . . . لا يا حبيبي لا يمكن مطلقاً أن أرتبط
من جديد برجل لم يترك في نفسي من آثاره غير جروح شيطانه ولو كان
هذا الرجل والله أحب الناس إلى في هذه الدنيا فلا تحاول التحدث في هذا
الشأن وانصرف إلى دراستك لقد سمحت له بالإقامة معك ليطمئن
قلبك ولأمنحك فرصة للقيام بواجب الابن نحو أبيه مهما كان شأنه ووضعت
مالى تحت تصرفك لرعايته فمن أجلك يهون كل شيء . . . حسبي من
الحياة أنت وتسكت لتهد في تحسر ومرارة بينما يصعب على حسام الكلام
فيتركها مطرقة متألماً لها وعليها وفي طريقه إلى غرفة أبيه يلاحظ أنه يتسلل
في حذر على صورة تثبت أنه كان يسترق السمع فيتجاهل حسام أمره ويدخل
عليه كأنه يريد أن يطمئن عليه فيراه مرتجياً على المقعد منهوك القوى يلهث
كأنه يتلع آخر لثائه وقد تصيب العرق من جبينه واضطربت أنفاسه وأشتدت
حتى تحولت إلى أزمة قلبية واضحة وريع حسام وأستاذته ليستدعى الطبيب
ولكنه أشار إليه لينتظر ثم أخرج من جيب سترته الدواء الذي تعود على
أن يتعاطاه في هذه الحالة وترى حسام حتى استعاد الوالد انتظام قلبه
وطلب منه أن يتركه لينام فأبى وظل بجواره حتى بدا عليه أثر النوم المريح
ومضت بعض أيام والأم لاهيه لشئون بيتها ورعاية ولدها . . . وبينما
كان فايد في الحجز يفكر فيما مضى آنأ وفي حاضره أحياناً وكراهية مسرة له
رغم محاولات إنه التي يلاحظها أحياناً ويتسمع حوارهما آنأ انتابه الأزمة
القلبية ولم يكن في وسع من معه غير استدعاء الإسعاف التي حملته إلى أقرب
مستشفى وبينما يقوم الطبيب الكشف عليه خيل إليه أن هذا الوجه مر
به ولكن متى وأين لا يدرى وظن أنه بينما كان من مرضاه منذ سنين طوال
وكان أحدهما في مستشفى شبابه . . . وأثناء إنصراف الدكتور من المستشفى
عند مغادرته الباب الخارجى استوقف نظره . . . شاباً يدلّف من تاكسى
في هلع واضح ووقع نظر الشاب على الدكتور فخلع منظاره وتقدم منه
ليصافحه في اضطراب وتلعثم وحيرة فيما يجب أن يناديه به . . . وقبل أن

يتكلم أسعفه الدكتور قائلا . . أهلا حسام كيف حالك يا ولدى . . ألك
صديق مريض هنا . . واضطرب حسام وارتجف ولم يدر ماذا يقول . .
وخاف أن يصارحه فينتقم من أبيه . فقال . . إنه والد زميلي فقال الطبيب
ماذا به . . فأجابه علمت أن الإسعاف أحضرته إلى هنا فقال الطبيب
أظنه المصاب بنزلة حادة في القلب . . طمئن زميلك . . لقد كتبت
له العلاج اللازم، وعند عودتي سوف أمر عليه والله معه . . وعندما
دخل حسام بعد اعتراض البواب وتصريح الطبيب راعه منظره فازداد
هلعاً وسمعه يردد بصوت مرتجف متقطع الأنفاس مسرة . . مسرة . .
سأخيني من أجل ولدنا وخيل إلى حسام أن رؤية المريض لأمه تعيد إليه
الأمل في الحياة فأسرع إليها وأرتقى عند قدميها وهو يقول بصوت كسير
يحفه الألم البالغ . . أبى يحتضر ثم جذبها وهو يقول لا تحبسى قلبك وراء
قضايا الماضي . . تصورى أنه مجرد مريض على حافة الموت وفي يدك
حياته فرافقه دون كلام وفي الطريق أخبرها أفي الطبيب الذي أسعفه الدكتور
مؤنس ولم يشأ أن يجبره بأنه والده خشية أن ينتقم منه وأخشى أن يعلم فكيف
أعفيه فابتسمت أمه على مضض وقالت في حزم وهدوء وهي تربت على
خده . . لا يا ولدى . . دعه يعالجه إن قلبه ملأ لا يعرف إلا ثم
ولا الثأر وليس الذنب ذنبه فيما حدث كان يجب أن أكون أكثر حكمة ولكن
حبي لك كان أقوى من حكمتي وهنا قاطعها . . أفهم من ذلك أنك كنت
تحبينه . . فأطرقت وهي تقول دعنا من الماضي بشره وخيره . . وإن
كان الخير فيه هو الذي مدني بروح من عند الله فقال في دعابة . . الآن
فهمت لماذا لم تستجبي لرجائي وتعودي إلي أبى . . فقبلته ثم تنبّهت أنهما
في التاكسي فقالت بصوت مرتفع لكيلا يسي الظن بها السائق . . يا ولدى
حسبى أنت فعاد يقول في دعابة وإذا قلت لك الدكتور يطلب يدك فقاطعه . .
ياشقى لقد وصلنا إلى المستشفى وعندما دخلا إلى غرفته وجد حسام سريره
خلواً منه فسأل عنه فقليل له أن الدكتور النوبتجي أمر بخروجه تلبية لرغبته

إذ لم يشأ أن يمكث في المستشفى وفي طريق عودتهما قال حسام لأمه . ألا
يحتمل أن يكون الدكتور مؤنس عرفه وتجاهل وأراد أن يعنى نفسه من علاجه
فقالت أمه ثق بأنه لم يعرفه ولن يعرفه لقد رآه يوم كان شاباً وسيماً
في أتم صحة أما الآن فقد أصبح ضامراً هزيباً إلى حد تغيرت معه ملامحه
كأن الأحداث التي قام بها تركت آثارها على وجه كيانه مسكين وتهدت
متحسرة مردفة غفر الله له وعقب حسام مسكين عاش كالشريد فعلمت
الأم لأنه اتخذ الشيطان رائداً له وغلبها الأسى فقد دمعت عينها مغممة لكم
حاولت أن أثنيه عن طريقه ولكن الشيطان كان أقوى مني وأأسفاه وعاداه
إلى البيت وأسرع حسام إلى غرفته على أمل أن يجده فيها ولكنه لم يجده وأخبرته
الخدام أن رسولا من قبله حمل إليه رسالة قدمتها إليه فقرأها فإذا
بها مكتوبة بيد مرتعشة يقول له فيها كنت أستأجرت غرفة بجوار
الخبز قبل أن أصاب بما أصبت به وكان في نيتي أن أصارحك بذلك قبل
أن أنقل إلى المستشفى معذرة يا ولدى يجب أن أبتعد عن أمك لكيلا
أثير ذكريات لاتفارقها مادمت في بيتها وحسبي أن أراك بخير وفي
سعادة وأطمئن عليك دائماً أطلب منها أن تساعني يا ولدى وكن
شفيعي لديها ودون كلام خرج مسرعاً وكانت أمه دخلت غرفتها
تاركة إياه مع والده وعرف عن طريق عمال الخبز مكان غرفته
فذهب إليه وفي نيته أن يثنيه عن هذه الرغبة ويعود به إلى المنزل فوجده
نائماً نوماً عميقاً فلم يشأ أن يوقظه وتريث حتى يستيقظ من تلقاء نفسه
وفكر فيما يجب أن يفعله لكي يؤثر عليه خشية أن يرفض العودة معه فعاد
إلى أمه على أمل أن يؤثر عليها لكي ترافقه وتدعوه معه للعودة إلى البيت
وعندما دخل عليها غرفتها في هدوء وجدها تتأمل صورة الدكتور مؤنس
ولأول مرة يراها وعلى لمحاتها ما يجيش في صدرها من مشاعر لاشك أنها
تحوم في تلك اللحظة حول الدكتور وازداد موقفه تعقيداً وصعب عليه
كيف يسعد أمه أيردها إلى الطبيب ومشاعرها كما يترأى له ترجع ذلك

ولكنه تذكر والده فأرجأ التفكير في ذلك ريثما يتعافى والده إذ يشغل كل تفكيره الآن وبعد الرجاء والإلحاح المصحوب بدموعه وتوسلاته رافقته فلما اقتربت منه أرتجفت وكادت تراجع لولا مشاعر الرحمة التي سيطرت عليها حينما قربها منه ولدها قائلاً . . دعيه يسمع صوتك وبصوت هامس أردف تصوري أنه غريب غريق فانقذيه . . ووقفت عند رأسه تناديه . . فايد . . فايد ساعلك الله وفتح عينيه وحرك شفثيه ابتكلم فصعب عليه الكلام وظل نظره عالقاً بها وبصوت منغم بالآسى والحزن على مصيره المفجع قالت . . عد مع أبنيك إلى البيت لكيلا تعطل دراسته إذا اضطُر أن يظل بجوارك فكن رحيماً به وببنفسك وعاد معهما خاضعاً كما يخضع الطفل لأمه وبعد أن هبأ له سبل الراحة بمعاونة أمه خلا بنفسه في غرفته لمراجعة ما فاته من محاضرات وقطع مذاكرته صوت والده يناديه فلما اقترب منه استرد وعيه إلى حد تنفس الصعداء في بطء قائلاً بصوت متقطع الأنفاس أشعر بنهاية حياتي تقترب مني ورغم انهيار دموعه يقول . . ليكن كنت أريد أن أموت على صدرها ولكنها لا تريد فأتكن مشيئتها ويلمح حسام والده يتنفس بصعوبة فيحنو عليه قائلاً . . أنت اليوم أحسن حالا وعلى وجهك إشراق الصحة بادياً وهز الوالد رأسه بمعنى هيات وهنا يسمعاصوت الأم تنادى مؤنس . . وكأن عقرباً لدغ الأب فيقول . . أسمعت أنها تناديك باسمه خانها الوعي فيبتسم حسام قائلاً . . أنسيت أنه الاسم الذي ولدت به ونسب إليك في شهادة الميلاد ولاحظ حسام أن الأزمة توشك أن تعاوده فغير مجرى الحديث قائلاً . . أنها تدعوني لكي أحضر لك الطعام وقد صنعتها بيدها حسب تعليمات الدكتور فلم يعقب الوالدو نظر إليه بعينين دامعتين وبشفثين مرتعشتين قال : أحيانا تدفعنا الظروف إلى عمل مالا نحب ونتجنب مانحبه من أجل مانكره فقاطعه ولده ملاطفاً في دعابة أتراك جربت فقال الوالد بلهجة تقاطعها التهنيدات . . أغلب أيام حياتي بل كلها لم أشعر بحياتي كما كان يجب أن تكون إذ لم

تستطع امرأة واحدة أن تملأ فراغ قلبي وفي الوقت الذي تزوجت أملك كنت مصاباً بعمى القلب فلم أتبين جوهرها وبهذه المناسبة أوصيك يا ولدي ألا تختلط بأبناء السوء الذين يعيشون بعيداً عن الله ثم يحزن على شفته في ندم مردفاً . . ليتني وجدت من يفتح قلبي على هذه الحقائق منذ صباي وليت أبواي عالجوا عمى قلبي منذ تفتحت بصيرتي على مغريات الحياة وأضاليل المجتمع وقاطعه حسام وقانا الله شر السوء وحمد الله الذي أنشأني بين أبوين طاهرين من كل سوء فاستطرد والده في سنك هذا يا ولدي لا بد أن ترتطم بتيارات الحياة المختلفة شرها وخيرها لذلك يجب أن تتحصن من التيارات الجارفة لتنجو من شرها فنظر إليه حسام مستوعباً ما قاله ومعقبا ولكن كيف أفرق بين أسلوب الخير والدافع للخير وأسلوب الخير والدافع للشر وهنا كمن يتخذ أسلوب الخير رقيقاً عذبا لطيفاً ذا منطق وجيه فقال الوالد بصوت هادئ تم نبراتك عن اليقين الصادق اقرأ القرآن يا ولدي واستوعبه وعش مع كل معنى من معانيه فإذا وعيته تماماً سبق حسام المدرك عقلك اللامدرك واستطعت بالهام من ربك أن تفرق بين الحق والباطل فنظر إليه والده دهشا وأراد أن يسأله سوألا ولكنه توقف لحظة ليفكر كيف يبدأ بيننا ظل نظره عالقا بنظر أبيه كأن عينيه سبقتنا منطقته في التعبير عما يريد وأدرك ما يقول بندهمه فقال : عليك تسألني ولماذا لم أعمل بهذا المنطق ويؤسفني أن أعترف لك في شيء من الخجل منك . . صدقني يا ولدي . . أننى أشعر بخجل يوشك أن يخطمني كلما نظرت إليك . . المهم أحب ان تعرف اننى قرأت القرآن ووعيته ولكن بعد أن أضلنى الشيطان طويلا وليتنى قرأته من لاطفولتى كما توجه الدولة الآن صغار الأطفال إلى تحبيبهم في حفظ القرآن بمكافآت مادية تتناسب مع قصر تفكيرهم حتى إذا تمكنوا من وعى ما جاء به لن يعوزهم التشجيع أو المكافآت إذ سوف تتعلق بأرواحهم بتعاليم القرآن فيعملون وفق نصهره دون توجيه ولو كان هذا شأنى فى طفولتى أو

مستهل شبابي لما تمكن الشيطان لعنة الله عليه مني وهأنذ بعد أن قرأته بقلبي وأدركته بعقلي واستضأت بنوره عرفت طريق الله . . . دخلت السجن وبودي لو أختق كل انسان امتدت يده إلى بسوء ولما قرأت القرآن ووعيته في السجن ثم خرجت منه تمنيت الله لو نتاح لي الفرصة لأحسن إلى كل من أساء إلى وسكت ليسترد أنفاسه بينما رفع حسام نظره إلى السماء ليشكر الله ولاخط الوالد ذلك فقال : أنا مطمئن عليك لأن أمك صانت قلبك وهذبت عقلك فعدت بفضلها إنسانا وحسبك هذا . . لقد وراك الله بفضل رعايتها الكاملة عواصف الاهداء فلم تصرعك وأدعو الله أن يحفظك أبداً مطهراً من كل سوء وعقب حسام عندما سكنت ليتنهد متحسراً على ماضيه الذي رافق فيه الشيطان . . فعلا أحمد الله الآن والدتي حصنتني بالإيمان وعودتي منذ الصغر على تأدية فرائض ديني فلم أتخلف عن الصلاة منذ التاسعة من عمري ولم تعتمد على مذاكرة القرآن وفق منهج الدراسة بل وعودتي على أن أوليه عناية خاصة ومر بخاطره تصرف زملاءه اللاهين في الكلية فسأل والده بودي لو أهيب بزملائي إلى اعتناق دينهم بتفهم ووعي وتنفيذ لا مجرد اعتناق وراثي لا أثر في تقويمهم فقاطعه الوالد أنها مهمة صعبة في باكورة الشباب تحتاج لطاقة روحية هائلة ومناعة حسية تقيهم شر مغريات الشيطان وإغراء الشيطان يعمى القلب كما قلت لك لأن القلب معين الإيمان وهو الذي يرتفع به إلى الله لذلك أعمانى الشيطان فلم أتبين جوهر أمك فلما غلب إيماني بعد قراءة القرآن شيطاني تبدد إلى دخان لم يلبث أن انمحي من أمام بصيرة قلبي لاح لي جوهر أمك . . ولكن بعد . . أن أذهب من طريقي وإن لم تذهب من تفكيري وحسي وأطرق يتهدد والحرقة تغلف أنفاسه فترفق به ولده ليخفف من حدة آلامه وقال من يدري ما وراء الغد فاستطرد والده قائلاً . . المرأه لا تحب في حياتها حبا صادقا فدائيا غير مرة واحدة لقد أحبت أمك الدكتور وليس في مقدورها أن تحب مرة أخرى حتى ولو حاولت ترضية لك . . فقال

أبنيه والغصة تذيب آخر كلماته . . إن أمي تعيش مع حب الله وقد
صارحتني وهي صادقة أنها أحبتك يوم تزوجتك قال الوالد هكذا خيل
إليها يومذاك إذ شأنها كأى فتاة فى سن المراهقة يومذاك لا تفرق بين الزوج
مادام يشبه الصورة الماثلة فى ذهنها وكما تسميه فارس أحلامها وبين
الحبيب والزواج يا ولدى غير الحب فالحب لا غاية له ولا وسيلة أما الزواج
فله وسيلة وله غاية قد تكون سامية عظيمة وقد تكون تافهة وضیعة الحب
يا ولدى لا يرتبط بالمكان والزمان أو المسعى إليه بدليل أن أملك أحبت الدكتور
وأحبها الدكتور قبل أن يتزوجها ومن المحتمل أنهما تحابا وكلاهما
لا يفكر فى الزواج من الآخر لاستحالة طلاق أملك فى هذا الوقت ولشد ما
يحز فى نفسى ألا أدرك ذلك إلا بعد أن هدانى الله وأنار بصيرة قلبى وقد
انفصمت علاقتهما الزوجية وأنا على يقين بأنها لم تزل تحبه لأنها أحبته للحب
للازواج ولعله كذلك فقاطعه حسام ولكنهم يقولون ما للحب إلا للحبيب
الأول فعقب الوالد قالوا للحبيب ولم يقولوا للزوج فأراد ولده أن يهدى
من التياغه البادى فى لهجته فقال . . ألا تحتمل أن تكون أنت أول حبيب
فأشار إليه بمعنى . . اسكت وبلهجة تدغدغها نبرات اليأس قال . .
صدق أملك فى كل ما تقوله فقد عرفت أن لا تكذب أبدا وأعرف يا ولدى كما عرفت
أنا بالتجربة أن الكره والحب كالموت لإرادة القضاء ولزما الصمت حيث
طاف برأس كل منهما الخواطر التى تتمشى مع أحاسيسه وتفكيره ولم
ينبههما غير دقائق الساعة التى ذكرت حسام بميعاد مقدم الطبيب فانتصب
واقفا ليقول لقد نسيت أن أقول لك اننى كلفت زميلى باستدعاء ابن عمه
وهو طبيب ماهر كما يقول زميلى لفحصك بعد انتهاء روضة الطبيب ليأمر
بتكرارها أو تغييرها وتوقف عن الكلام عندما سمع تنبيه التليفون
فأسرع إليه وكان زميله يخبره أن ابن عمه سافر فى مهمة
خاصة بعض أيام وقد ترك عيادته تحت إشراف زميل له وسوف
يحضر نائبا عنه بعد محادثته وهو طبيب على مستوى رفيع فى علاج

المرض الذى أشار إليه فيطمئن الوالد . . . لاداعى لكثرة المصاريف يا ولدى
أنا الآن بخير والحمد لله وبينما هما يتحدثان سمعت الأم طرقا على الباب
وبعد أن فتحت الخادم وقبل أن يظهر الطارق أسرع حسام لمعرفة من القادم
متوقعا مقدم الطبيب . . . ولم يكذب يقع نظره على الطبيب حتى ارتجف
وانتفض وقال : أهلا وسهلا ولم يشأ أن يتم . . . اذ تحير بما يناديه . . .
(ببابا) أم بالدكتور . . . وصافحه فى احترام وقاده إلى غرفة المريض
وخيل للطبيب أن حسام فى زيارة الزميل الذى دعاه وقد أخبره أن
المريض قريبه لكى يعفيه من دفع الروشنة بعد أن علم بأن المتحدث ابن
عم زميله الدكتور الغائب على أن رؤية حسام أعادت له الماضى الذى لم
يزل يتعلق به ولا يستطيع أن يتناساه وقد أحجم عن الزواج رغم تقرب
لفيف من العذارى المثقفات واللائى يعملن معه إليه على أمل أن يتزوج منهن
ولكن لم يستطع أن يفتح قلبه ويسمح لإحداهن أن تحل محل مسرة فيه . .
وأثناء فحص المريض ترمى إلى مسمعه صوت مسرة . . . تنادى حسام
ولولا قدرته على مقاومة ما ألم بنفسه لارتعشت يده وهو يقبض على مقياس
الضغط . . . إنه صوت مسرة . . . وهذا حسام . . . وتاه تفكيره فى تفسير
هذا الموقف فى الوقت الذى لبي حسام نداء أمه وقبل أن
يخبرها بأن القادم الدكتور مؤنس قالت . . . من يكون هذا الطبيب
لقد رأيت ظهره يشبه . . . فقاطعها ولدها باسم . . . الدكتور مؤنس فعلا إنه
يشبه تماما . . . وهو دكتور ممتاز لذا أريد أن يفحصك ليقرر حاله التى
تمر بك أحيانا قبل أن تزاد . . . فقالت . . . لاداعى . . . أنا أعرف
متى أشعر بها ومتى تزول . . . إنها حاله نفسية أكثر مما هى بدنية فقال
والبسمة تهوم على شفتيه أعتقد انه يعالج هذا اللون أيضا وصفق الدكتور
يدعوه ليخاطبه لإنهاء مهمته وأثناء حديثه مع حسام ترمى إلى أذنها صوته
فبدا الإحساس يراودها كأنه هو — وكانت أسرع بعمل الليموناده
وظهر الدكتور فى الردهة لينصرف وكانت تحمل كوب الليموناده

لتناولها إلى حسام لكي يقدمها إليه.. ووقع نظرها عليه وتبادلا النظرات وعرف كل منهما الآخر وارتعشت يدها فوق الكوب على الأرض فانتفضت وارتجفت وأسرعت لتختفي بينما جمع حسام فتات الزجاج وهو يقول ..
او لم أقل لك لا بد من فحصك للضعف الذي يستبد بك أحيانا وقال الطبيب إذا سمحت انا على استعداد بعد أن اكتب لك رويته المريض ...
فما اسمه ؟ وما سنه ؟ وقبل أن يجيب حسام سمع والده يناديه فقدم للطبيب مقعدا في ردهه قائلا .. عن اذنك دقيقة واحده وسمع أمه تقول من المطبخ لقد أعددت الليموناده يا حسام فتعال خذها لكيلا تقع فقال حسام للدكتور أو لم أقل لك انها في حاحه إلى الفحص أرجو أن تقنعها بضرورة ذلك فقال الطبيب وهو يحاول أن يتمالك نفسه لا بد أن توافق دون أي تأثير لكي تكون طبيعية لأن ذلك يساعد على نجاح التشخيص فعاد حسام أرجو احضار الليموناده بنفسك وأراد أن يقول أبي ينادى ولكنه أحجم وقال .. لأرى ماذا يريد .. ووقع نظر الطبيب على صورته مع مسرة وحسام وهو صغير معلقة في إطار ثمين أمام مرآة بالصالة فغض الطرف وقام من مجلسه ليجلس بعيدا عنها فاذا به يقترب من باب المريض ويسمع فايده يقول لابنه إن هذا الطبيب يذكري بزواج أمك فقاطعه حسام قل والدي الروحي فأنى ما زلت استشعر نحوه بشعور الابوة فعاد يقول .. انه يشبه تماما رغم تقدم السن وكأنه لم يزل يحتفظ بحيويته وشبابه اليس هو الذي انقلد حياتي في المستشفى لم أكن اتبينه يومئذ جيدا لكنني استطيت أن أوكد إنه هو فقال حسام .. اجل هو طبيب ممتاز وعقب حسام هب انه الدكتور مونس والدي الروحي ايسوءك هذا ؟ فقال الوالد .. بالعكس ولكم أتمنى أن يكون هو لأقبل اليد التي منحتني العافية بدل أن تمنحني السم لنثار مني على الأقل فقال وهل تنتظر من الملاك أن يفعل غير ما فعل فردد الوالد ..
أى والله انه ملاك الآن أعترف وبودي لو أسجل ذلك على حساني ..
وانتصب الطبيب بعد أن انتهى من تناول الليموناده دون أن يتكلم إذ قدمت

له — مسرة — الكوب فى هدوء وانسحبت بعد أن رمقته بنظرة خاطفة إذ
خيل إليها أن الدموع توشك أن تنهر . . . ودخل الطبيب على المريض
لأخذ بيانات الروشة وإن كان فى قرارة نفسه أراد أن ينصرف لكيلا
يزداد انفعاله الداخلى وسأل عن اسم المريض وقبل أن يجيب حسام الذى
امتقع وجهه [وبدا الارتباك] عليه أجاب [فايد] وذكر اسميه ولم يبد
الطبيب دهشة المفاجأة إذ كان يخامره الشك منذ رآه فى المستشفى وكاد
الشك يكون يقينا عندما رآه هذه المرة ولكنه عمد إلى التجاهل تمشيا
مع رغبة حسام ومسرة كما ظن وتحول عنهما راجيا له الصحة وطول
العمر ولكن المريض استوقفه وسأل يسرنى أن أتشرف بمعرفة اسم الدكتور
فابتسم الطبيب وقال يمكنك قراءة الاسم على الروشة فقال فايد . . نظرى
مازال متعبا فقال الطبيب . . مؤنس . . فاعتدل المريض فى جلسته وكان
العافية عاودته وخاطب ابنه أولم أقل لك . . لقد صدق حسى واستوقف
الطبيب وسأله ألم تعرفنى يادكتور إلى هذا الحد تغيرت ورغم إيمان الدكتور
بأنه هو ولكنه قال . لم أتشرف من قبل بمعرفتك فقال المريض ولكننى
ذكرت اسمى قال الطبيب عشرات أسماء المرضى مرت على بهذا الاسم
قال المريض . . أنا فايد . . زوج مسرة . . قال الطبيب وقد تماسك
نفسه . . عوفيت وسلمت وتحول عنه ليخرج مسرعا بعد أن حيا حسام
وأردف . . لقد تحسنت صحته . . طمئن الهانم زوجته وأنا فى الخدمة
دائما . . وفى طريقه إلى الخارج كانت مسرة واقفة فى زواده على أمل
أن يحياها أثناء انصرافه على الأقل ولكنه قال وهو يمر بها دون أن يصفافحها
طمئنى ياهانم لقد زال الخطر عن زوجك . . وأسرع دون أن يصغى
إليها وهى تقول خدعك ظنك يادكتور وأسرعت إلى غرفتها
كالحمومة لاتدرى كيف تبعد عن خاطره ذلك . .

عندما يغفر الله

وهو أعلم الناس بدخيلة نفسها ومدى كراهيتها لفأيد . . تحول فأيد من شيطان آدمى إلى إنسان صوفى وراح يفكر تفكيراً جدياً فى التكفير عما أصاب مسرة فى ماضىها وفهم من تعليق الدكتور على حديثه أنه ظن أنها عادت إليه ووجد نفسه مسوقاً إلى جلاذ ضميره ولا سبيل أمامه إلا أن يترك نفسه تحت حبل مشنقته اللامرئية ولم يجد وسيلة لانقاذ مسرة من هذه التهمة إلا الابتعاد عنها لغير رجعة مضحياً بولده فى سبيل إسعادها فيما تبقى من عمرها وسيجد ولده بجوارها ما يغنيه عنه ولن يفقد لفراقه حنان الأب فإنه لم يزل يحب الدكتور كما لاحظ أن الدكتور لم يزل يغمره بعطفه وحنانه ويعامله معاملة الوالد لابنه وعليه بجانب ذلك أن يكفر عن خطيئته نحو أنسجام الذى تركها حامل على وشك الوضع ولم تحاول أن تلاحقه مطاردة إياه بعد خروجه من السجن لتضع حلاً لمشكلاتها كأم بعد أن طلقها وكان اقتصد من مصروفه اليومى الخاص الذى خصصه ولده له مبلغاً لا يستهان به وصح عزمه على الذهاب إلى أنسجام ليسترضيها وليعرف مصير الحنين الذى تركه، فى أحشائها وقد يطيب له المقام بجوارها موقناً بأنه سيجد عندها الحنان النسوى الذى افتقده منذ تخلى عنها وبدأت أخيلة جميلة ترافقه وهو فى الطريق إليها مستعيداً ذكريات الماضى وما تحملته من آلام وحرمان من أجله غير ملولة ولا ضجرة يراوده أمل بسام يلتمع فى خاطره يتحقق بلباقها ولما بلغ مسكنها الذى كان يعرفه وجد فيه سكان غيرهم وعلم من الجيران إنها تركت لهم عنوانها ولكن عندما ذهبوا لزيارتها إذ كانت جارة طيبة لا تتردد فى خدمة الجيران ومساعدتهم اتضح أنه غير صحيح ولما أحس بالتعب يعاوده عاد إلى المخبز ليقضى بعض الوقت ريثما يسترد قوته ثم يستأنف البحث عنها وأثناء استراحته سمع صوت مشادة داخل المخبز وبعد التحرى لمعرفة السبب علم أن صبيها من موزعى الحبز على

المنازل مدينا للمخبز بمبلغ استجراره لحساب أسرة لم تسدد المبلغ ويأبى المسئول في المخبز تسليمه الخبز الا بعد سداد المبلغ ويتفرق — فايد — بالصبي مشققا عليه محاولا استدراجه للتأكد من صحة هذا الدين وبان في حديث الصبي الصديق في لهجته وهو يقول : سيدة كانت تأخذ منه وتدفع له دائما حساب كل شهر دون مراوغة مع (البقشيش له) وقد مرضت ووعدت بتسديد المبلغ بعد شفائها عندما تغادر المنزل اذ ليس معها غير ابنتها .. وهز الصبي رأسه كأنه رجل يقدر آلام الغير قائلا بلهجة تفوق سنه .. لازم الواحد منا يكون في قلبه شفقة انا انسان ولست حجرا .. وتأثر فايد — بانسانية الصبي واثني عليه وحول الدين عليه ثم سأله عن اسم السيدة وعنوانها ليرسل لها الخبز على حسابه الخاص ريثما تتعافى فأجابه الصبي — أنسجام — الممرضة — ولم يكذ فايد يسمع اسمها حتى ازداد تعلقه بالصبي وراح يتحدث اليه ليستطلع اخبارها وبعد معرفة عنوانها خرج مسرعا وبوده لو يركب طائرة وليس في مقدوره أن يركب تاكسي لأنها تقطن في زقاق يتفرع من حارة ضيقة يصعب على التاكسي الدخول فيها ولو فرض وكان من الممكن دخول التاكسي فسوف يرفض السائق لأننا أصبحنا في زمن يتخير فيه السائق الطرق وفق مزاجه لا وفق رغبة الراكب . . وبعد المعاناة التي أشعرته بالتعب اذ الطريق المؤدى الى البيت غير ممهد ومياه الحارى حولتها الى برك ومستنقعات عليها طبقة من الناموس والميكروبات تكفى لقتل مئات السكان وروائح العفونة تخنق انفاس المارة ولو طال بهم المقام لاصابهم ميكروب الكوليرا ولقت نظر فايد بيوت سكان الحى التى تشير الى فقرهم وبؤسهم وأدرك سبب إهمال البلدية لهذا الحى فلو كان من الشوارع التى يقطن فيها أصحاب الجاه والثراء والمسئولية لتحولت هذه الشوارع الى جنة فيحاء وتنهد فى تحسر مغمغما مناجيا نفسه بغير صوت يارب السماء . . خلقت الكل من طين . . ووحدت بين العقاب والثواب دون أن تفرق بين مخلوق ومخلوق . . وفق شريعة السماء . . ولكنهم ابتدعوا للأرض شريعة تفرق بين طبقة وطبقة وفق ميزان المال والجاه والسلطة . . انها

تعطى من لا يحتاجون وتحرم المحتاجين في مقدور الأثرياء الذين يقطنون
في أى شارع أن يجعلوا منه روضة لو شاءوا ولكن الدولة توليهم اهتماما
على حساب الفقراء المحتاجين لعناية الدولة ورعايتها ويلمح الناس تتجمع
في مقهى يمر به لتستمع الى خطاب الرئيس السادات . . فيجلس ريثما
ينتهى الرئيس من خطابه وسرعان ما تتلاشى ثورة نفسه الناقمة على نظم
المجتمع موقنا بأن الفجر بدأ فعلا ينير مصر بعد ظلامها الحالك وان العدالة
الاجتماعية سوف تلغى التفرقة بين الطبقات مؤثره انصاف كل من يحسن
الإنتاج ويبرز أقوى ما في نفسه من طاقات وتسرب الى نفسه أملا مشرقا
يوحي بتحقيق عدالة السماء موقنا بأن الدولة بدأت وفق توجيهات الرئيس
الى العناية بشئون الفقراء وصغار العمال لترفع بمستواهم الذهني والخلقي
ويقينا لو استطاعت الدولة أن تطهر أحياء الفقراء من القاذورات والميكروبات
فسوف تتطهر تباعا نفوس هذه الطبقة وتتلاشى الأحقاد والضغائن والتفكير
المنبعث من التفرقة بين مواطن ومواطن وكلاهما يتساوى أمام الدولة في
تسديد جميع الالتزامات . . وواصل سيره بنفس مطمئنة حتى وصل الى
منزل انسجام وطرق الباب . . وطال الطرق واشتد على امل انها نائمة
فتصيحوا ولكنه لم يسمع ما يشير الى وجود احد في الداخل واضطر أخيرا
أن يسأل البقال المجاور للمسكن فأخبره أن المالك طردها لعدم تسديد الأجر
مدة ثلاثة أشهر وعقب البقال . . لو عرفت ذلك قبل طردها لسددت
عنها المبلغ المطلوب ولكنها تركت المسكن وانا أؤدى فريضة الحج . . لقد
كانت سيدة طيبة تخدم الجميع دون أجر . . ورفع الحج وجهه الى السماء
قائلا . . لطفك يارب بعبادك . . بجانبها جار يعيش على حساب الغير
بوسائل السرقة والنصب والاحتيال ولا يستطيع المالك أن يطرده مع علمه
بأنه لص لأنه يدفع له الاجر ولا يستطيع ان ارفض بيع المطلوب له لأنه يدفع
الثمن أعرفت أن المال وحده هو الذى يحمى صاحبه دون اعتراض . .
ولم يشأ فايد أن يطيل الحديث في هذا الشأن اذ لا فائده فيه ريثما تكون القيم

الأخلاقية هي التي تحمي المواطن . . . وأنهى البقال حديثه بقوله أن صبيه الذي ساعدها في نقل متاعها أخبره أنها ذهبت لتقيم مع والدتها . . واستراح فايد لهذا الخبر وشكر الحاج وواصل سيره إلى بيت أمها . . وبدل أن تستقبله الأم كالمعتاد لم تكن انسجام موجوده استقبلته امرأة لا يعرفها وعلم منها أن ام انسجام غادرت القاهرة منذ شهور لتعيش مع ابنها الذي سافر الى ليبيا للعمل هناك تاركة ابنتها في البيت ويبدو أن ابنتها كانت مريضة بمرض استعصى على الأطباء علاجه فراحت تباع أثاث بيتها لتسديد ديونها وتوفر لقمة العيش لابنتها وأخيرا اضطرت أن تترك المسكن قبل أن تجمع أجرته وخرجت بدعوى أن تستأجر غرفة فوق سطح قريب لوالدتها ولم تخبرني مقرها مع الأسف وكنت أتمنى أن أرد لها جميلها فقد قامت على تمريضى حتى شفيت دون أجر . . جزاها الله خيرا وشفأها وعاد فايد إلى بيت مسرة مضطرا بحمل من الهم أضعاف ما كان يحمل من أجل مسرة يدب في أوصاله مشاعر قوية نحو انسجام ورغبة ملحة تحتم عليه البحث عنها مهما كلفه الأمر من تضحية واسودت الدنيا في ناظره لاستحالة العثور عليها طوال هذين اليومين ولاحظ ابنه أن والده على غير ما عهده شارد الذهن زاهد في كل شيء حتى الطعام ورجح أن يكون حرمانه من أمه هو سبب هذا العزوف فراح يمينه بتحقيق التقريب بينهما وما عليه الا الصبر والاحتمال رغم اعتقاده في قرارة نفسه باستحالة تحقيق هذا الأمل ولما كان فايد اقتنع أخيرا باستحالة إعادة مسرة أراد أن يضع حدا لتفكير ابنه في هذا الأمر فصارحه بما يعاينه ويشعر به ليوفر عليه جهد التفكير في حل هذه المشكلة واستجمع شجاعته وسرد عليه قصته مع انسجام ولكي يرى نفسه من وصمة ما علق بها بسببه أخذ على عاتقه ضرورة انقاذها من محنتها ولو تطلب الأمر أن يعمل أى عمل يدر عليه ربها يعولها به اذ لا شك أن أمه سوف تتور وتغضب عندما تعرف ذلك وتأثر حسام لأبيه وأشفق على انسجام وأحس بأنه مسئول معه من أجل اخته وأخذ على عاتقه أن يبحث عنهما مهما

كلفه البحث من مشقة وعناء وتضحية ليهون عن أبيه جهد البحث ومعاناة التفكير ورغم الحاح والده راجيا منه ألا يولى الأمر اهتماما لكيلا يتعطل عن دراسته وخشية إيلاام والدته لكن حسام أكد له حرصه على الدراسة والبحث عنهما وقت فراغه ولما اختلى حسام بوالدته صارحها بما أفضى به والده ونأهب حسام للدفاع عن والده وانسجام وابنتها عندما تثور ولكنها استمعت إليه في هدوء وأناة وأشفقت على انسجام موقنة أنها ضحية من ضحاياها ولا شأن لها فيما قدمت يداها وزاد عطفها عليها عندما علمت إنها أنجبت منه بنتا وهنأت حسام بأخته مؤكدة له أن مشاعر الأخت الحانية لا تقل عن مشاعر الأم وهي المعين الذى يرتوى منه إذا نضب الحنان من قلوب من حوله بعد وفاة الأم وأوصته بها خيرا . . . وازداد حسام بوصية أمه وتوجيهها رغبة في البحث عن انسجام وابنتها في أوقات فراغه مستعينا بمعلومات والده التى ظلت تعلق بذهنه للاتصال بالمرضات اللاتي كانت تعمل معهن ومعارفها دون جدوى بينما ظل والده حليف السهد والأرق يتمنى لو تدور عجله الأيام بأقصى سرعتها ليهتدى إليها إن كانت واقفه عند نهاية هذه الأيام وأراد ابنه أن يخفف من حدة تفكيره ويزيح عنه كابوس اليأس فسأله إذا جمع القدر بين أمي وانسجام وسألك أيهما تختار ؟ وأطرق فايد إذ لم يكن يتوقع هذا السؤال كما لم يفكر من قبل أو يحاول التفكير فيه ثم أطرق لا يدرى ماذا يقول فضحك ابنه وهو يقول أهذه مشكلة تحتاج للتفكير المفروض أن يحيب قلبك فوراً فرفع الوالد رأسه ونظر لابنه وهو يقول . . . إذا صح هذا وهو لن يحدث مطلقاً لأن أمك تعتد بحبها إلى أقصى حد وتعتد بكرامتها مضحية في سبيلها بحياتها إن تطلبت الكرامة ولذلك سأختار طبعاً من لم تزل تحبني ولم تتخذ بدلي بديلاً وضحك ليبادل ابنه الدعابة ثم قال عليك أردت أن تستدرجني في لباقة إن كنت سأرد أنسجام لعصمتي أو مجرد رغبته في لقاءها . . . إطمئن يا ولدى أن أختك في حاجة إلى رعايتي وأمها في حاجة إلى حمايتها والكفاح لاعادة الحياة الكريمة إليها وأعتقد أن سبب مرضها تفكيرها في ابنتها ومصيرها فإذا

اطمأنت لا شك أن الصحة تعود اليها . . أما أنت فلم تعد في حاجة الى فقد أصبحت شابا مكتمل النضج والرجولة ويمكن الاعتماد عليك في كل مهام والفضل لأملك التي عرفت انشائك نشأة استقلالية سليمة بعيدة عن العوج والغرور فعرفت كيف تسلك الطريق المستقيم وفق تعاليم الدين والحمد لله .

ولقد ضحت أملك بزوجها من أجلك قبل ان تعرف انك ابنها والدم الذي يسرى في شرايينك هو الذي دفعها إلى ذلك من حيث لا تدري وأنا اعرف أن الآلام تعانيتها المسكينة . انها فدائية ياولدى وما بها الآن ليس التهاب أعصابها كما يقول الطبيب أو كما تظن هي . . بل هي حمى عواطفها الكمينية حمى الصراع القائم في نفسها بين عاطفتين عاطفة الزوج تركته غصبا وعاطفة ولد توثره نفسها ويسيطر على هاتين العاطفتين الخوف من الوحدة المقبلة . . إن كل يوم يمر بك ويدنيك من ضرورة اختيار الفتاة لتكون زوجتك بعد ان تحبها طبعاً وسوف يتطلب هذا الحب والزواج ضرورة البعد عن املك مخطراً مدة ثم تأتسها بعد قد تقصر أو تطول انت الآن لا تدري ما يصوره خيال الوحدة الموحشة قد تكون مخيفة ومزعجة . . أنها تفكر منذ الآن في اليوم الذي تفرح فيه بزواجك وهي تعلم أن ميلاد حب إمرأه أخرى في قلبك قد يكتسح حبك لها ولولا إلى حد — وهنا تحده حسام لا لا يا أبى إن حب امي أقوى من أى حب يحتمل أن يتسلل إلى قلبي . . لمنى أعبدتها بعز الله ودمعت عيناه وبحرارة الصدق أردف حبي لها أقوى من حبي لنفسى وأنا على استعداد أن اضحى بنفسى من أجلها فسمح الوالد رأسه بيديه ليباركهم هو يقول أرجو ذلك ياولدى وبهذا الحب وحده تصنع المعجزات فحب الأم يا حسام هو الذى يصنع المعجزات لو عاشت امي حتى باكورة شباني لصنعت متى هذا الصانع ولا اكتمك أن حب أملك الذى سيطر على بعد لقائك عندها هو الذى مدنى بالقوة والاحتمال بعد أن نفذت قوتي وأعاد في أوصالى ماء الحياة وردنى الى الله . . ولمح تاريخ النتيجة المعلقة أمامه فهز

رأسه لتذكره أمرا وسأل ابنه أتعرف ميلاد أمك . فقال الولد في لهفة تصور
أنى حريص على الاحتفال به هذا العام رغم معارضتها . . ونظر الى النتيجة
إنه غداً شكراً لك يا أبى كدت أنسى أذكر أن والدى الدكتور كان يحتفل
به احتفالاً لا مثيل له فى احتفالات الميلاد كأنها أبنته الوحيدده وليست زوجة
وقاطعه فايد . . أتعرف أن تصميمك على الاعتراف له يادكتور كوالد
يثلج صدرى ويشعرنى بأنك ولد بار يقدر الحميل فقال حسام لو كان
له ولد لما أهتم به أكثر من اهتمامه بى طوال عمرى فكيف أقابل الحميل
بالعقوق . . أننى عندما اناديه — بابا — أشعر أن جوانحه تهتز وتنفرج
أساريره إذا كان مقطباً كأن النداء قبلة حارة تطبعها أمى على ثغره . . وكم أنا
سعيد بأبوته فخور بها سعيد بأبوتك لأنها أعادت إليك الحياة والى الطمأنينة
والقدرة على خدمتك والعمل على مايرضى الله . . وهنا انتصب الوالد واقفاً
وقال أرجو أن تسمح لى بمغادره المنزل لكى تفسح صدرها إلى استقبال
ميلادها بقربك وقرب وتهد على مضض وهو يقول . . . الدكتور . . .
فاجئها بالحفل دون مقدمات وفكر فى توطيد حياتها المقبلة منذ الآن وتأمينها
ضد الوحده والوحشة القاتلة وقاطعه الولد فى إصرار لابد أن
تحضر الحفل معنا فقال الوالد بلمهجة الأسى . . إن أمك موسوعة
ذكريات إذا رأتنى سأعتذر سيطوف بخيالها ذكريات فى حسابها أسوأ
ذكريات ميلادها . . بسببى ساحبنى الله ثم أطرق خجلاً ليجفف الدموع
التي طفرت من عينيه بالرغم منه وقال بلمهجة حزينة . . أنا الآخر لا أريد
أن اذكر هذا اليوم . . لقد كان بداية فراقنا وانتصب واقفاً قائلاً بصوت
الملتاع دعنى اخرج يا ولدى تعالى إلى فى الخبز عندما يتسع وقتك لأراك
وغدا ستعرف أننى كنت على صواب وخضع حسام لمشيئة والده بعد طول
جدال مضطراً وليقينه بأن وجوده حقاً يثير شجون أمه فلا تحظى بالبهجة
التي يريد أن تنعم بها كما يريد وبعد انصراف والده خلا بنفسه يفكر فيما
يجب عمله ليجعل من هذا العيد ميلاداً جديداً لسعادتها المقبلة راجياً من الله

أن يجعل حياتها المقبلة مشرقة بسامة وانتهى تفكيره الى قرار أراد ان يفاجئ به أمه ليسعد به قلبها بعد طول حرمان وقام في التو لينفذ ما اعتزم عليه وفي اليوم التالي لاحظت الأم أن ابنها بمعاونة الخادم ينسقان البيت تنسيقاً جديداً مع تجميل الصالون والردهة بالورود والأزهار وأقام صورة عرسها مع الدكتور مع الشموع والورود ثم هيأ المائدة على طريقة احتفال أمه بعيد ميلاده فلما سألته أمه عن سبب ذلك قال إنه دعا بعض أصحابه لتناول الشاي عنده بمناسبة نجاحه وقد حال مرض والده فايد دون الوفاء بالعهد وقد حانت الفرصة لتنفيذ ذلك قبل دخول الكلية وأخذت عليه عدم تكليفها ونحته لتقوم بباقي الإعداد رغم انحرافها ولكنها قاومت لكيلا تشوه سرور ولدها ولكن التوعلك كان أقوى من المقاومة فبان عليها الشحوب والإعياء رغم تماسكها ولاحظ عليها ذلك فأقبل عليها يداعبها ويناغها كأنها حبيبته قلبه ناسياً أن يقاد الشموع أمام صورة عرسها أعادت إليها ذكريات ميلاد زواجها السعيد ونسيت نفسها وراحت تنظر إلى وجه الدكتور الذي يشيع منه النور على ورق الصورة كأنه مجسم امامها وشاع وجهها ولم يدر ولدها أن ميلاد زواجهما كان يوم ميلادها ورمقها ولدها بجانب عينيه من بعيد ولم يشأ أن يبعد عن خاطرها جمال تخيل هذا اليوم ولو عرف أن هذا الميلاد كان فاتحة آمالها ومناط حياتها ومر شريط الذكريات يحمل سحابة قائمة دفعت الدموع من عينيها وعندما لاحظ حسام ذلك أقبل عليها يهددها كما كانت تهدده وهو صغير ويغدرها بقبلاته حتى إذا استرددت قدرتها على مبادلة ابنها البشر والسرور انتهز الفرصة وقال لها لقد نسيت أن أخبرك بأنني دعوت — بابا — الدكتور — فنظرت إليه في دهشة فاستطرد أنا سعيد بأبوته ومدين له بحياتين حياتي فهو الذي ساعدك حتى صرت هكذا وحياة أبي حيث رد إليه الصحة والأمل بعد اليأس والمرض وأعتقد أنه من حقه أن يشاركنا فرحة هذا اليوم فنظرت إليه تتفرد خفايا تلك الشاعر

ولاح على وجهها انشراح قلبها وقالت : جميل أن تقدر الخميل يا حبيبي ولكن أخشى أن يعتذر لأن صدره يضيق بهذه المناسبات إذ لا يملك وقته إلا لما . . . فأجابها اطمئني سأعرف أحمله على قبول الدعوة فأظهرت ارتياحها ببسمة مشرقة ولم تتكلم وتركها حسام تشرف على ما تبقى من إعداد الحفل بعد أن لاحظ أنها استعادت نشاطها بشكل ملحوظ واعتمد على الله وذهب إليه في عيادته متظاهراً بالحزن والاضطراب وظن الدكتور أن والده أصيب بسوء فسأله كيف حال والدك الآن ؟ هل هو متعب فقال حسام إنه بخير والحمد لله والفضل لك فعقب الدكتور الفضل لله يا ولدي . إذن ماذا حدث فقال أمي واليوم كما تعلم . . على ما أظن عيد ميلادها وقد أعددت الاحتفال به دون أن أشعرها وأرجو أن تحضر كأني دعوتك مع زملائي احتفالاً بنجاحي وسكت حسام عندما لاحظ انعكاسات حديثه على وجه الطبيب تجاههم لذكر مرضها وأشرق لذكر ميلادها أطرق مايا كأنه يستعيد ذكرى هذا اليوم وبصوت هاديء فيه رجفة الأسى قال : أجل اليوم عيد ميلادها وابتسم في مرارة مردفاً يال للانسان من غدر الدهر . . تصور يا ولدي كان في نيتنا أن نحتفل به هذا العام في الحجاز أثناء تأدية فريضة الحج وغامت عيناه بالدموع فوارى وجهه لكيلا يراه حسام متمتماً . . تشدنا الأمانى إلى السماء وتجذبنا تقلبات الأيام إلى الأرض ويصمت ليتنفس الصعداء . . ثم يطرق كأن للذكرى خشوعاً يتصل بالله ويتطلب الحمد والصلاة وكان لابد أن يطمئن حسام على قبوله فقال . . نحن في انتظارك — يا بابا — وهز النداء مشاعر الدكتور فلم يعلق وحسام يردف مهمتك أن تطمئنا على صحتها وتشعرها بأنها غير مريضة وكل ما تشعر به انحراف من تقلبات الجو فاغتصب الدكتور بسمة قائلاً المفروض ألا تشعر بأى انحراف مادمت أنت بجوارها وقد جمع الله بينها وبين والدك فايد وأنت قادر على أن تجعل حياتهما سعيدة هائلة فقاطعه حسام . . قد تكون سعيدة حقاً بي ولكن لاتنس أن المرأة في حاجة دائماً إلى الحب وخصوصاً حب من يحبها وأهى تحبك

— يا بابا — رلا أحسبك الا مبادلا إياها هذا الشعور رغم ما حدث فقاطعه الدكتور بصوت تموج نبراته الأناة .. أرجوك يا لى الكلام فى هذا الآن لا يجدى لقد انتهى ما كان بيننا لغير رجعه ويبدو أن ذلك كان مقدرًا بدليل اننى لم أعرف انك ولدها الا عندما جئت لعيادة خالك ثم اتضح انه والدك ولا أكتملك انى حمدت الله اذ ايقنت انكما قادرين على أن تزيلا عنها عيش الوحده وتبددا ذكريات الماضى إن كان لم يزل فى ذهنها ما يسمح لطواف هذه الذكريات .. فقاطعه حسام بلهجة التأكيد وقد تكون سعيدة بقربى لكن سعادتها منقوصة لفراقك .. صدقنى يا أبى .. لقد خبرت أمى جيدا وأدركت كمين عواطفها .. أنا حاضرها وانت ماضيها وحاضرها ومستقبلها وذهل الدكتور لهذا المنطق ونظر إليه مأخوذا متأملا خلدجانه وقد لمس بصدقه عميق صدره فقال بنبرة الأسى والقنوط لم يعد لى وجود فى حياتكم يا ولدى وفهم حسام ما يعنيه فقال : خدعك ظنك يا أبى .. صدقنى .. لقد خرج أبى فايد من بيتنا لغير رجعه خرج بعد أن أيقن أن لا مكان له فى قلب أمى وأنت لم تزل تعيش فى قلبها ولا أكتملك انى حاولت جهدى أن أقنعها بالعودة إليه لأعيد إليه الأمل ليعمل عملا يضىء به جانبنا من وطنه ولكن تعلقها بك وقف حاجزا بينه وبينها وعرفت منها إنها أغلقت قلبها عليك ولقد علمتنى فيما علمتنى أن قيمة الإنسان فيما يعمل عملا يصعب على الآخرين القيام به وعودتك إلى أمى هو أعظم عمل أقوم به من أجل إسعادها وسعادتك كما أعتقد إنك بالنسبة لى أبى و بالنسبة إليها زوجها ولن تتم سعادتنا الا باكتمال وحدتنا .. وطوقه الدكتور بذراعيه مقبلا وجهه فى حرارة قائلا .. يا ولدى الحبيب لقد أثبت إن البنوه لا ترتبط بالدم وحسب ... ولكن بتلقيح ما هو انتى من الدم .. فقد يكون دم الأب أو دم الأم فاسدا . فلا ينتفع به انتاجهما بل قد يكون كالسم يقضى عليه .. ويشهد الله انى لفتحك فقاطعه حسام .. بأسمى العواطف وانبل المثل وذلك ما أعتربه وهو ذخيرتى مدى الحياة .. وصارحه الدكتور بأنه اليوم انتشله من أعماق بحر لاق ار

له بعد أن ظل غريقا طوال مدة الفراق : وسرح بذهنه لحظة ثم أردف :
ولكن والدك في حاجة إلى الرعاية فقال حسام سأكون بجانبه دائما والله
يتولاه برعايته وعلى كل حال أرجو الله أن يوفقني لتحقيق أمله الذي يرجوه
وإذا تحقق سوف تعرفه فقال الطبيب أنا على استعداد لمعاونتك ماديا
وأديبا واعتمد على الله ومن أجلك يا ولدي سأحضر وقطع عليهما الحديث
دخول الممرضة لتذكره بالكشف على المريضة المتعبة وخرج الطبيب
بعد أن استبقاه ريثما يعود وبدأ حسام يستروح نسيمات الطمأنينة لنجاحه في
مهمته وراح يطالع بعض المجلات المودعة على المكتب ولفت نظره صورة
أمه مودعة بين صفحات مجلة يبدو أنه كان يقرأها في هذا اليوم ومد يده
ليقبل الصورة ثم تراجع عندما دخل الطبيب وفي أثره فتاة ناضرة الحيا رغم
ضمور وجهها وأثر الحزن العميق البادى في عينيها . ووقفت تنتظر الروشة
التي بدأ يكتبها الدكتور وهو يقول لماذا لم تأت إلى منذ بدأت تشعر بالآلم
وهي تعرفني جيدا لقد عملت معي انسجام مدة غير قصيرة يوم كنت في
مستشفى الدمرداش وكانت تتردد على في عيادتي الخاصة كلما ألم بها أى
انحراف .. على كل حال اطمئني يا وجيده وحتى أهىء لها مكانا في عيادتي
أحضري لها هذا الدواء الآن واختفى برهة ثم عاد ليقدم إليها مظروفا وهو
يقول .. بالمظروف الروشة وقد وضعتها في المظروف خشية أن تفقد منك
وأين تقيم الآن لكى أمر عليها بعد يومين إن شاء الله ذكرت له الفتاة
العنوان وقبل ان تنصرف سألها أظنها في إجازة مرضية الآن فأجابته
الفتاة على أثر انتهاء اجازتها المرضية كلها فصلتها المستشفى إذ كان
المرض طال حتى مضى عليها عاما وعندما ما أرادت العودة إلى العمل
قالوا لها لا تسمح الميزانية بزيادة الممرضات ووعدوها بدعوتها إذا احتاجوا
إليها وكانت صحتها تحسنت إلى حد فخيّل إليها أنها تستطيع أن تعمل ممرضة حرة
ونسيت أنها في دور النقاهة فراحت تعمل ليل نهار لكي توفر لى تكاليف الدراسة

ولم أكد التحق بكلية التجارة وعادوها المرض فاضطرت إلى ترك الكلية والتحق بإحدى المؤسسات بوسيلة زوجة رجل سبق لوالدتي تمريرها إذ لابد أن أضحى في سبيلها كما ضحت في سبيلي وبدا الشفاق باديا على وجه الطبيب فقال بصوت ينم على الرثاء والأسف . . مسكينه لقد كانت ممرضة ممتازة وأبدى استعداده بعد شفائها بقبولها ممرضة في عيادته الخاصة أوصى الفتاة بضرورة مواصلة تعليمها بانتساب معتمده على الله وعليه فشكرته الفتاة وقالت لقد حدثني والدتي كثيرا عن مروعتك وإنسانيتك فقاطعتها . . من اعتمد على الله لا يخيب أملة واتصل بسائق سيارته وأمره أن يوصلها إلى بيتها وعندما همت بالانصراف سألها حسام وكان التأثير ملك عليه حسه . . واين والدك فقالت توفي وأنا طفلة فعقب الدكتور عوضها الله بك خيرا ومر بذهن حسام حديث والده ووجد اسم الزوجه كما ذكره انسجام ولها بنت ودون تردد ودع الطبيب رغم إرغبه في استبقائه ريثما ينتهى من العيادة ولكنه اعتذر بدعوى شراء بعض اللوازم وافترقا على أن يلتقيا في المساء وخرج مسرعا وركب تاكسى يتبع عربة الدكتور فلما دخلت الفتاة مسكنهما المتواضع . . طرق الباب وإذا برجل عليه سمه الشراسه يفتح الباب ولم يتوقع حسام وجود رجل فاضطرب ولكنه تشجع وقال : الست انسجام الممرضة هنا فقال الرجل بنبرة جافه . . هب أنها موجودة ماذا تريد ؟ فقال حسام والدتي مريضة وتريد أخذ حقنه فأغلق الباب في وجهه بعنف وهو يسب ويلعن وترامى إلى مسمع حسام إتهام الفتاة بأنها شجعت الشاب على توصيلها ليعرف البيت لكى يحضر أثناء تغيبه ودفعت الابنه عن نفسها وراحت الام بلهجة المحمومة تلعن الأيام التى ربطتها به وكان سببا في مرضها وتعاستها ويضطر حسام تحت تأثير رغبة خفية إلى الانتظار على مقهى عند ناصية الشارع متخذًا زاوية تسمح له بروية الخارج من منزل انسجام ومضى الوقت وبدا الليل يطوق الكون بغلالته الرقيقة السوداء

وايقن حسام انه لافائده من الانتظار في هذه الليلة وقد يكون الدكتور في طريقه إلى البيت ومضى في طريق عودته وأثناء مسيره لمح الرجل يسير مسرعا امامه كانه على ميعاد وخلفه رجلان يتهاامسان احدهما يقول للآخر . هذا الجبان العاقل يعيش على حساب فتاة صغيرة ابنة زوجته لقد اوهمها قبل الزواج انه من الاثرياء وبعد ان تزوجته اتضح انه يتاجر بالزوجات فهذه الزوجه الرابعة عشر وكلهن من العاملات ويدهش رفيقه ويتساءل كيف تزوج هذا العدد فيجيبه يتزوج مدرسة مثلا أو عاملة في إحدى الشركات ويساعده على اغراء الفتاه قدرته على تمثيل دور المحب الوهّان وبجانب عنايته الفائقة بمظهره وعيب فتاة العصر انها تقيم الرجل بمظهره وهو يتصيد بأسلوبه الشيق الرجل الطيب الكريم فاذا انس الرجل اليه استعار عربته بدعوى ان زوجته مريضة ويريد ان ينقلها إلى بلدتها لتكون تحت رعاية أمها وبوسيطه العربية والزى الفاخر الذى اغتصب ثمنه من زوجته يتزوج الفتاه التي راقبها وعرف اتجاه تفكيرها المادى وتأثرها بمظهر الرجل ويتحايل لدعوتها على فنجان شاي أو وجبة غداء في قصر الوجيه الذى تعرف عليه ويدعى ان له نصيبا في هذا القصر قد ورثه عن والده وهكذا يتحايل بأساليب مختلفة لاقتناص الزوجات ويسكت مرددا . لطفك اللهم بعبادك بينما يقهقه رفيقه ساخرا قائلا : يا لله كأن السيارة والفيلا والملابس الفاخرة جواز المرور لتحصل على قلب الفتاه فيعقب محدثه .. بالضبط عند الفتيات التافهات اللاتي يعتقدن أن قيمة الرجل فيما يبدو من مظهره ويتساءل رفيقه ماذا تفعل المنكوبة اذا اكتشفت أمره بعد الزواج فيجيبه .. طبعا تطلب الطلاق وهنا على ارادته تدفع له مبلغا من المال بجانب تنازلها عن حقوقها الشرعية ولكن شأن زوجته المريضة هذه كما تقول غير السابقات لأن ابنتها هي التي تعولها وتعوله بالتبعية فيقول أن مرتب البنت يكفي بالكاد لسداد الترامات البيت الضرورية هذا اذا ترك لها مبلغا من المال وهو لا يترك معتمدا على عملها الاضافى في إحدى المكاتب التجارية بعد الظهر ويسكت عنده

يبلغ متجرا فيدلف إليه مستأذنا من رفيقه لشراء بعض اللبس وازم
ولا يدرى حسام كيف اندفع بحماسة قاهرة إلى العودة لمنزل انسجام
دون تهيب ويطرق الباب كأنه على ميعاد وتصعق وحيدة عندما تفتح
الباب وتجده أمامها وتنظر إليه في ذعر وقد امتد بصرها خلفه خشية
أن يكون زوج أمها عاد وبصوت مرتجف تقول .. أما يكفيك ما حدث
أتريد أن تكون قتيلا الليلة ؟ وتجهد نفسها أمامه في الغرفة دون
أن تقاوم دخوله أو تطرده مستغيثة بالخيران ويغلق الباب دون
تعليق ويتجه صوب أمها والفتاة تنظر إلى أمها في هلع وقبل أن تتكلم
الأم التي أخرستها المفاجأة يقول لها حسام .. عندي لك حديث هام وتنتفض الأم
كأنها تنبت من يوم عميق وبصوت ضعيف متكسر تقول .. خير إن شاء
الله وتنظر إليه فإذا بلمحاته تشد قلبها شدا وتقول لابنتها بصوت هامس
اغلق الباب من الداخل وقدمي له الكرسي ليستريح إذ يبدو أنه مجهد وهو
شاب طيب كما يبدو ولا أحسبه يفكر في إيذائنا وارقبى الشارع فإذا لحت
الرجل قادما من بعيد نهينا لكيلا يؤذيه ولا يسع الابنة إلا الطاعة وهي تنظر إليها
لتستزيدها إيضاها ويدرك حسام ذلك فيقول للأم .. أتعرفين رجلا اسمه
فايد وتهلع الأم ولكنها تشعر بانتفاضة مريحة فتقول لابنتها التي ظلت واقفة
ترقب التغير الذي طرأ على وجه أمها ولكي تطمئنها تقول لها هذا الرجل
كنت أقوم على تمريض زوجته وهو الذي توسط لي لكي أعود للعمل
في المستشفى بعد شفائي منذ أعوام طوال وتنسحب الابنة مطمئنة إلى صدق
أمها لكي تراقب الرجل ولما تشعر بابتعاد ابنتها تسأله .. أجل أعرفه وقد
سافر إلى السعودية منذ أعوام فهل تراه مازال حيا وتتهند المريضة وتدفع
عينها وهي تقول .. ذهبت إليه آخر مرة فقبل لي لقد أفرج عنه وسألت
عنه في كل مكان أعلم أنه يرتاده فلم أجده فقال حسام .. إنني موفد من عنده
لقد بحث عنك كثيرا متتبعا تنقلاتك من منزل إلى منزل .. فانتفضت جوانحها
وارتعشت مفاصلها وتصلبت عيناها عليه وهي تغغم وأين هو لينقذ ابنته

من برائن هذا الذئب .. أنا لا آبه لنفسي فأني في طريق النهاية على عجل لكن الذي يزيد من وجيعتي ومرضى قلتي على ابنتي إن التفكير في مصيرها بعد موتى يزيد من علتى التى تتسرب إلى قلبي في غير بطء .. ما أسوأ حظى وما أتعس ابنتى بسببى فليبرنى بالله ماذا أفعل لأضمن مستقبل ابنتى بعد موتى وفهم مرامها .. فسردها عليها معاناة فايد من أجل الحصول عليها وعلى ابنتها وكيف هو اهتدى اليهما بطريق الصدفة عندما كان عند الطبيب ولا شك ان الله سبحانه وتعالى اراد إنقاذكما فاطمئنى وهنا جذبت يده لتقبلها ولكنه سحب يدها محاولا أن يكرر ما يبعث الطمانينة والأمل البسام إلى قلبها وهى تصغى إليه دامعة ثم قالت .. إنك رسول الخير يا ولدى وبشير السعد لابنتى لقد صنعت معجزة إن كان حتما ما تقول فقال ستعرفين أكثر مما يؤكده سعادتك أو سعادة ابنتك المقبلة إن شاء الله وسكت عندما لاحظ أنها استغرقت في تفكير عميق أضفى على وجهها نقابا من الجھامة وبدأ فى عينيها بريق الحيرة والخوف والتناقض فحركت شففتها لتتكلم ولكن اللوعه أخرستها فأدرك ما يجول بذهنها فقال .. لا تحملهم الرجل الذى معك سنعرف كيف نخلصك منه فاغتصبت بسمة مريرة وقد انتشلها من تفكيرها وقالت بصوت حزين يائس إنك لا تعرفه .. إن جشمه المادى لا يحده قال : هذا لا يهم .. إن مشكلة المال أسهل المشاكل . . .

مادام ميسورا .. قالت .. لن يغفرلى فايد زواجى ويعلم الله أننى قضيت طوال هذه السنين أبحث عنه على أمل أن يعود من أجل ابنته .. وعندما أخبرنى صديق له من أقرب الناس إليه أنه هاجر إلى السعودية تائبا إلى الله ليتمضى ما تبقى من عمره بجانب الرسول عليه الصلاة والسلام اتصت بالسفارة السعودية وفى نيتى أن ألحق به مع ابنتى ولكن السفارة كدت لى أن الاسم ممنوع من دخول السعودية بعد أن رحلته السفارة المصرية من هناك مكبلا بالقيود .. وعدت أبحث عنه ولما عيل صبرى ارتضيت بنصيبى ونصيب ابنتى وهنا دخلت

ابنتها تنتظر إليها محذرة خشية من عودة الرجل فأشار إليها بالتجلس بجانبه ولكنها جلست بجانب أمها وهي تنظر إليه في حذر فقال وعلى شفثيه بسمه مطمئنة لو عرفت سبب مجيئي الآن لاطمأننت إلى ومر بذهن الفتاة أنه جاء لخطبتها وأدركت أمها ما يجول بخاطرهما وهي تنظر إليها فقالت فعلا يا وحيدة واستطرد حسام قائلا .. تعلمين أن والدك توفي فدمعت عيني الفتاة وغمغمت ليت الله مد في عمره من أجل أمي وأجلى فلم يكن لنا في الحياة سواه أو ليتني مت قبله لكيلا تعاني أمي ما عانت من أجلى فاستطرد حسام لقد قيل إنه استشهد في حرب سنة ١٩٥٦ ولكن الذى حدث أن إسرائيل أخذته أسيرا فلما انتصرنا في حرب ٦ أكتوبر عاد والدك مع الأسرى وانتفضت الفتاة وطوقت عنق أمها من شدة الفرح وهي تقول .. أبى .. حى أصحيح هذا ؟ فاستطرد حسام .. وستريه حالا وسكت ليتنفس الصعداء كأنه ألقى عن عاتقه حملا ثقيلا كان ينوء بحمله وكادت الفتاة ترمى عليه لتقبله من شدة الفرح لولا أنها تداركت نفسها وقالت بصوت منغم بالفرح والابتهاج شاعرة بأنها انتشلت من بحر عميق غرقت فيه طويلا وكادت تشرف على الهلاك .. لقد أعدت الحياة إلينا والأمل المشرق فكيف نجزيك ونشكرك.. قال حسبي سعادتكما فعقبت الأم وهي موقنة بأنه يعمل ذلك من أجل خطبة الفتاة وانتصب واقفا وهو يقول .. سأحضر تاكسى فاستعدا لتذهبا إليه لكى يتدبر فى مصيركما وإنقاذكما وأسرع فى ارتداء ملابسها فى حين استوقفته الوالدة لتسأله أصحيح ما قلت .. كان أسيرا .. ولكنى أعلم أنه لم يحارب سنة ١٩٥٦ فقال حسام لقد اسعفتنى البديهة لتلفيق ذلك لأبرىء والديها من وصمة الغدر بك والحمد لله إنها اقتنعت وسرعان ما حملهما فى تاكسى إلى والده فى الغرفة التى استأجرها بجانب المخبز وفوجئ فايده بابنه يرافقه سيدة ضامرة مريضة توشك أن تقع على الأرض من شدة ضعفها وهزالها معتمدة على ذراع ابنتها وقال له .. لقد خطبت هذه الفتاة فأرجو أن تسمح لهما بتمضية الليل عندك ريثما أهوى فرصة لمفاتيحة والدتى ثم أرافقهما

غدا لمقابلتها وكانت الطمأنينة ردت الحياة بحرارة الشباب إلى وجه الفتاة فبان متوردا جميلا وغض الوالد نظره عن رؤية المريضة عاكفا على التسبيح والاستغفار قائلا لابنه .. اذهب لأهلك لقد تأخرت يا ولدي ولا شك أنها قلقة عليك خصوصا في مثل هذا اليوم ألم أقل لك من قبل يوم يفتح قلبك للحب .. ستنسى .. ولم يدعه ابنه يتحم كلامه فعقب .. لا يا أبي ستغفر لي أمي تأخرى عندما تعرف السبب وتركهم مسرعا إلى منزل أمه وأقيته وعلى وجهها مسحة من مظهر العتب واللوم لتأخره دون أن تتكلم ولم تشأ أن تنبه المدعوين والمدعوات من زملائه اللاتي دعاهم إلى الحفل واستطاع أن ينفرد بها بعض لحظات ليسر إليها بما حدث فزاد إشراقها وبدأ جمالها كأنها في سن العشرين وتأخر مقدم الدكتور فاعتقد حسام أنه أحجم لأمر لا يدريه ولما اتصل به تليفونيا علم أنه اضطر إلى التأخير لعيادة مريض وهو في الطريق إليه كما أخبره الممرض .. وعلى أثر مقدم الدكتور بعد أن لعب القلق والشك بقلب مسرة إذ خشيت أن يعتذر بسبب مرضاه .. قدمه حسام إلى زملائه وكان لفت نظر والدته أن تقابله وتعامله دون أن تشعر الزملاء بأن بينهما جفوة وخلي بالدكتور بعض لحظات وسرد عليه ما حدث منذ تركه حتى عودته لأمه واستأذنه في التغيب بعض الوقت لكي يحضر فايد وانسجام وابنتها راجيا منه أن يقابلهم ويعاملهم معاملة رب البيت لضيوفه وأدار آلة التسجيل على الموسيقى الراقصة لكيلا يشعر الرفاق بتغيبه وأسرع إلى فايد وعندما سأل عنه الرفاق قالت مسرة .. لقد ذهب ليحضر قريبة لنا مريضة لكي يرفه عنها ولأول مرة في تاريخ حياة فايد يجالس امرأة وفتاة دون أن ينظر إليهما أو يتحدث ليعرف على الأقل كيف تعرف ابنه على تلك الفتاة التي سحرت لبه وعندما عاد حسام .. ابتسم فايد وهو ينظر إليه بلهجة فهم ابنه مرمأها عدت وتركت أهلك وهي في أشد الحاجة إليك الآن .. فقبله ثانية وقال جئت لأرافقك مع خطيبتى وأمها إلى الحفل لتشعر والدتى أنك راضى عن هذه الخطبة .. وبدأت الأم حائرة لا تدري تفسيرا لهذا الموقف المريب

ومن هذا الشيخ الرابض كأنه في محراب يتعبد .. إن ملاحظته تذكرها بفائدة ..
ونظر حسام إلى كل منهم متفرسا ثم قال .. أعتقد أن كل منكم يتساءل .. ما
نهاية هذا الموقف .. وقد حان الوقت ليعرفوا .. وقدم فايد إليهما قائلاً ..
السيد .. فايد الذى حولته المعركة بعد خروجه من إسرائيل .. صوفيا ..
ودهشت انسجام وألحمت المفاجأة لسانها ونظرت إلى فايد مغنعة ..
يمكن هذا ؟ .. وقدم انسجام إليه .. وهذه السيدة انسجام وتلك ابنتها وحيدة
وترك والده مأخوذا لا يدري ماذا يقول .. ثم أردف .. لقد حضرت لمرافقتكم
لحضور حفل ميلاد أمي .. واتجه لأبيه قائلاً . لاتسألني الآن كيف اهتديت
فهى قصة تحتاج لوقت وهناك سوف أخلو بك وأسردها عليك .. وهناك
قابلت مسرة لأول مرة — فايد بالترحاب وبغير كلفة وقابلت انسجام مع
إبداء عطفها وشفقتها مقبلة ابنتها وحيدة وأبدى الدكتور ارتياحه إلى انسجام
لتحسن صحتها بسرعة إلى حد يبدو كأنها غير مريضة وخيل لانسجام
أن حسام ابن مسرة من الدكتور لانه لم يشر فأبدت لها اغتباطها وهنأها
على ابنها لما يمتاز به من شباب ناضر ومثالية رفيعة موقنة بأنها وافقت على
زواج ابنها من ابنتها لما أظهرته من مشاعر الرضا واستقبالهم في غير ضجر
او تبرم وانتهر الطبيب فرصة انهماك الشباب في الرقص وتحدث إلى مسرة
بعيدا عن الموجودين معتذرا عما بدر منه معللا سوء تصرفه يوم تخلى عنها
من فرط حبه والحب لا يخلو من الغيرة والأثره مهما سميت روح الحب
وارتفع بمثاليته إلى مصاف الملائكة المنزهين وطال بهما الحديث كل منهما
يصور للآخر ما قاساه في أيام الفراق من وحشة ولوعة وضنى وبينما هما
يتناجيان تحت — وحيدة — بين المدعوات طالبه كانت معها في مستهل العام
الدراسى بالكلية قبل أن تتركها عندما اشتد المرض بأمها لكي تعمل وكانت
هذه الطالبة تغار منها لاجتهادها ومنافستها في حب طالب معهما كان يغازل
كل منهما على انفراد ويشعرها أنها عروس أحلامه وما هو إلا ساخر لاهى
لأنه مرتبط بابنة عمه منذ الطفولة ولكنه يحاول أن يساير أسلوب العصر

الموبوء بما انتقل إليه من مساوىء الغرب حيث يسعى كل شاب أن يتعرف على أكثر من فتاة ليباهى بمغامراته الغرامية وتعلق الفتيات به كما تفخر الفتاة أمام لداها بأنها حلوة مغرية يتبارى الفتيان للحصول على قلبها وكل فتى وفتاة في هذا العصر مشدود إلى أوهام لا صلة لها بالواقع الذي يتحتم أن يركز تفكيره عليه للمساهمة في بناء مجتمع صالح جدير بالانتساب إلى العروبة الكريمة وكان حسام إلى هذه اللحظة لم يظهر^١ لانسجام وابنتها أن فايد والده لكيلا يقحم نفسه في سرد قصته منذ ولدته أمه على مسمع من وحيدة التي لا تعلم شيئاً كما حرص فايد ألا يشعرها أو يشعر زملاء حسام بأنه والده المعروف في الوسط العلمى أنه ابن الدكتور ولم يشأ أن يشوه حسام في نظر زملائه .

ووجدت وحيدة — الفرصة سانحة لتنتقم من غريمتها في الحب الاول الذى ولى منذ خروجها من الكلية وشجعها على هذا الانتقام تقرب هذه الزميلة إلى حسام ومحادثته بأسلوب العذارى المراهقات اللاتي يحسبن أن النظرة الساحرة والكلمة الناعمة والحركة الرشيقة والهمسة المشيرة .. كل ذلك يكفى لإيقاظ الحب في القلب الذى لم يتفتح لنسمات سحره ولو عرفت العذارى أن الحب لا يتطلب غير الصدق في كل شيء .. الصدق في المظهر^٢ وفى الكلام وفى المشاعر المهم أن تكون الفتاة بسيطة^٣ المظهر معبرة عن عواطفها في صراحة وبراعة واضحة المشاعر في غير ابتذال أكثر تأثيراً في الرجل بصدقها من فتاة تصطنع الجمال^٤ والدلال والرشاقة والمعرفة على أن حسام رغم المحاولة التي بذلتها الزميلة لتنبه مشاعره وتدنيه منها كان منصرفاً عنها بتفكيره في تحليل تلك المواقف المائلة امامه فوالده الذى قهر شيطانه أخيراً بفضل قوة إيمانه وأمه الحبيبة التي تحدث الآلام ومرارة الحرمان بقوة الإيمان وشدة أخته إليها عن بعد فرأى الفرحة تغمرها سعيدة بقاء أبيها وهى ترقبه^٥ جلسة يتحدث إلى أمها وقد ظهر^٦ا كعاشقين تقدم بهما السن ولا يزالان يحفظان بحبهما الوفير واشرق وجهها اشراق

نفسها متناسية ما مر بها من أيام قاسية عانت خلالها مع أمها آلام الحرمان والأسى . . . وشعر حسام بغبطة روحية هائلة لأنه مصدر هذه السعادة التي شملت أمه وزوجها ووالده وزوجته واخته وراح يلاطف ويداعب مدعويه وزميلاته يلتفن حول كآته النور وذن الفراشات كل ترفرف حوله بعطرها وأنوثتها . . . ولكنه في الواقع كان متلهيا عن النظر إلى أبيه الذي ترك الجماعة واعتزل بعيدا عن المرح والضحيح وأقبل عليه قائلا . . . فيم تفكر يا أبي أتفكر في مصير ابنتك التي أصبحت عروسا تغرى العين على التطلع إليها . . . اطمئن أرى زميلا لي يرقبها بإعجاب أكيد وأنا أعرفه شاب مكتمل الرجولة قوى الإيمان لا يألف الاستهتار والمجون . . . فدع أمرها لي والله يتولاك وزوجك برعايته واستشعر الوالد بغبطة ولده فنظر إليه معقبا . . . أنا سعيد بك وبها يا ولدي وسكت مليا ليرمقه في زهو وإعجاب مردفا أنت بدر هذا الحفل وها هي النجوم تلاحقك وإن كانت في الواقع زهور ناضرة فأى الزهور بلغ أريجها قلبك؟ ويطرق حسام خجلا ثم يطوف ببصره حواليه فإذا وجد الكل لاه عنهما بالموسيقى والدعابة والطرب قال لابي في الواقع لا يشغلني الآن إلا تركيز سعادتك وزوجك وابنتك وسعادة أمي وزوجها فابتلع فايد لهاته وقال بصوت مرتجف النبرات يتسم بالحزن والأسى كنت أتمنى أن تعيش بين أبويك فاستحال الأمل فقاطعه ابنه لاراد لقضاء الله والخير فيما يريد الله وتنفس فايد تنفس المستريح قائلا . . . حمد الله فلظلمار كبت مطايا الأمل وارتفعت به فوق هامات الرجاء على أجنحة الشيطان وأسفاه وضللت في متاهات التفكير فقاطعه حسام . . . أى تفكير يا أبي فقال الوالد . . . التفكير فيما قدر على الإنسان أن يكون وهل هذا القدر منبثق من خير نفسه أم من شرها فأجابه ولده بصوت مكتمل اليقين والإيمان كان لابد أن تدفع الضريبة لتنتصر على الشيطان فأحمد الله الذي رفعك إلى مصاف الأطهار خلى القلب من الدنس والأهواء واتجه الوالد بتأثير هذه اللصة

الروحانية نحو الله وردد وهذا حسبي وراح يستغفر الله ويكبره على نعمات
موسيقى المدياح كأنه حفل ذكر موسيقى وتجلي حب حسام فجذب يده
وقبلها قائلاً بارك الله فيك وحفظك لنا من كل سوء وتحول عنه ملياً نداء
أمه فلما أقبل عليها نظرت إليه لتستمع بشبابه الغض وحيويته الرائعة واتزانه
المحب وسألته بلهجة الدعابة ترى أى الزميلات أعجبتك يا حسام فأجابها
فى أدب وحياء اترك ملتئى فقاطعه الدكتور سنة الحياة يا ولدى نريد أن
نفرح بك ونطمئن عليك فقال حسام . . . يوم أوفق إلى الفتاة التى تماثلك
شكلاً وخلقا وتفهما لواجبات الزوجة والأم صبورة حكيمة تتخذ من
الحزن والآلام منفذاً للقوة والإيمان فربت الدكتور على خده معجباً به قائلاً
نعم الاختيار يا ولدى . . . وفقت وبوركك وأثناء جديتهما دارت مسرة
بعينها تجوب المدعوين وسألت ابنها أين انسجام فأجابها : لقد استأذنت
للتعود إلى بيتها قبل مقدم زوجها . . . قالت مسرة أسلمتها المبلغ المطلوب؟
قال أجل ولذلك خرجت مسرعة يتم كل شئ بأذن الله ولمح والده يتسأل
فى هدوء فأدرك أنه لم يستطع صبراً ويريد أن يلحق بها ليطمئن . وعزفت
الموسيقى وساد الجميع جو الطرب مصحوباً بالرقص . . . ومر الوقت حتى
كاد الليل ينسحب لولا بقية فيه تنبه المدعوين إلى ضرورة العودة إلى منازلهم
ليستريح أهل البيت . . . وانصرفوا تبعاً وتقدم حسام إلى والده الدكتور
قائلاً وهو يتأهب للانصراف . . . سأتركك الليلة تنصرف لترتب شئون
عرسكما غداً وسيكون الحفل على حسابى فقاطعه الدكتور على أن يسبق
الرقص والغناء فقاطعه مسرة بتلاوة الذكر الحكيم إن شاء الله وأقبلت
انسجام تجر ساقها فى إعياء وكانت ابنتها تؤدى فريضة العشاء فلما سمعت
مسرة تقول . . . أهلاً انسجام وعقب حسام ألم يلحق بك وأسرعت ابنتها
إليها متسائلة فى لهفة أين أبى ؟ فقالت بصوت من فرط البكاء لا يظهر . . .
أبيك . . . أبيك . . . وتلعثمت وارتعشت شفتاها وانهمرت دموعها ففزعت
ابنتها وقالت : لقد لحق بك هل أصابه الرجل بسوء فسكتت ولم تحر جواباً
وارتمت على الأرض فاقدة الوعي وبعد أن أسعفها الدكتور ثكأمت وهى

تجاهد نفسها وتعلم كلماتها .. قبل أن أدخل بيتي سمعته يناديني فاضطرت
أن أتوقف لأثنيه عن اللحاق بي خشة أن يراه الرجل فيسي إليه وأقنعت
بالتراجع والتريث وتابعت خطاى ولم أكد أبلغ بيتى حتى وجدت الرجل
فى انتظارى وخشيت أن يكون لحنا ونحن نتكلم فى الطريق ولكن هدوءه وسؤاله
بلمهجة لا يشوبها الحنق أين كنت لم يبعث الخوف أو الشك فى نفسى فقلت
له أن وحيدته أصيبت بمغص حاد وقد ذهبنا إلى المستشفى وتركها تحت
العلاج وعدت من أجلك ولأول مره يبتسم دون إبداء الشك فم قلت
ثم حادثته بشأن الطلاق وقلت له إننى ذهبت إلى أمى حيث علمت
أنها عادت من عند أخى وقد اقترضت منها المبلغ الذى طلبته فى مقابل
تنازلى عن ميراثى فى البيت الذى تركه والذى فى الصعيد ودون تعليق
مد يده فناولته المبلغ قائلا هيا إذن إلى المأذون وليكن الطلاق
على حسابى ولم يكده يتسلمه حتى سألتنى من هذا الرجل الذى كان يسامرك
فى الطريق قلت لا أعرفه .. لقد سألتنى عندما مررت به عن رجل يقطن
فى هذا الشارع لا أعرفه قال فى هدوء وغير إكتراث .. ربما ثم تركنى
وهو يقول .. من الأفضل أن يحضر المأذون هنا .. وعلى أثر خروجه
نظرت من النافذه لأرى — فايد — هل عاد ادراجهم أم ما زال وافقا على
الناسية فراغنى أنه كما تركته وقف يرقب بيتى وملكنى الرعب عندما رأيت
الرجل يخاطبه ثم رافقه وعاد به إلى البيت ودخل يخاطبني فى غير
اكتراث لو لم يكن لابد لك من إتمضيه شهر العدة لعقد المأذون
عليك بعد أن أطلقك فورا وشئت أن أنفى معرفتى به خوفا عليه فقلت
ما هذا الهراء .. وراح فايد ينظر اليه دهشا وإلى متسائلا دون كلام وإن
كانت نظراته تنم عن سؤاله .. هل يعلم شيئا وفى لمح البصر اخرج السكين
من رباط بطنه وهو يقول تستطيعا ان تقضيا شهر العسل فى القبر ورفع
يده ليغمد السكين فى صدر فايد ودون وعى وقفت بينهما لأحمى فايد
قائلة اقتلنى اذا شئت ولكن فايد ابعثنى وقام بينهما صراع كل منهما يريد

أن يقضى على الآخر والسكين تنتقل من يد الرجل إلى يد فايد . .
وانتهى الصراع بقتلهما وصرخت وحيدة أبى أبى ... ووضع حسام
وجهه بين يديه صارخا بصوت مخنوق أبى ... أبى

وزاغ بصر انسجام ونظرت إلى حسام دهشة مرددة أبليك
.... أبليك

وتقدمت منها مسرة قائلة... أجل أنه ابنى يا انسجام وإبنه الذى غاب
ثم عاد وغمغمت وحيدة فى أسف ومرارة وحزن بالغ .. أخى .. حسام
أخى ولا أدرى وتحول الحفل إلى مأتم ومالت مسرة على انسجام تواسيها
وتعزيها وبينما الجميع خاشعين لرهبة الموت سمعوا طرقا على الباب .

وهرعت الخادم لتفتح الباب وارتفع صوتها فى فرح وهى تقول
سيدى فايد والتف الجميع حوله مبهورين وراح يقص عليهم كيف تخلص
من الموت لقد طعن خصمه فى قلبه وطعنه الخصم بطعنة استطاع أن
يتحاشى تصويبها إلى قلبه ولكنه أوهمه أنها أصابت قلبه فأردته صريعا
واعتقد الرجل إننى مت فحاول الفرار وخرج إلى الشارع كالحيوان
المذبوح فى آخر أنفاسه وعقبت انسجام حمد الله أولا ظلام الليل الحالك
لاكتشف أمرنا . . ولاحظ الدكتور نزيف جرحه فأسرع بمعاونة ابنه
إلى تضميم الجرح ريثما يحمله إلى عيادته

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

رقم الإيداع بدار الكتب / ١٩٣٢ / ١٩٨٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٦٦٧ - (١٩٨٠ -) ١٠٠٠

جمهورية مصر العربية

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

- ٢٤٧ -

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م